

الأندلس الإسلامية

سياسياً وحضارياً



الدكتور

عبد اللطيف عبد الهادي

أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط
كلية الآداب - جامعة غريان



الأندلس الإسلامية

سياسياً وحضارياً

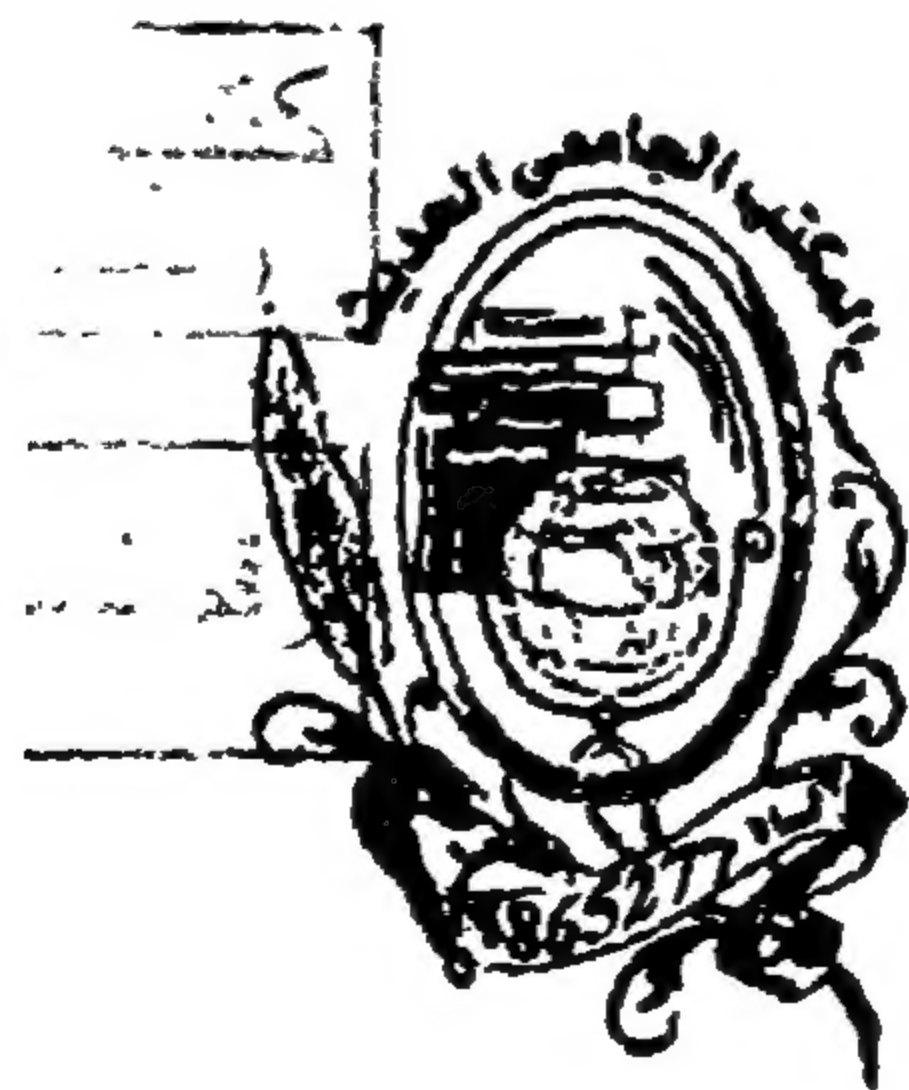
دكتور

عبد اللطيف عبد الهادي السيد

أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيط

كلية الآداب - جامعة غربان

٢٠١١ م



رقم الإيداع : ٢٠١٠/١٤٦٥٦

الترقيم الدولي : ٨٥٥-٤٥٦-٠٤٩-٩

مقدمة

لما كانت الأندلس إحدى ولايات الدولة الإسلامية التابعة للدولة العربية، منذ الفتح العربي لها عام ٩١هـ / ٧٠٨م، على يد زعيم البربر طارق بن زياد والوالى العربى فى أفريقية موسى بن نصير، وفى عهد الخليفة العباسى الوليد بن عبد الملك؛ فإن هذه البقعة من أرض الاسلام قد أثارت نهم المؤرخين فى البحث فى تاريخها وحضارتها على السواء، خاصة تلك الحقبة التاريخية لتلك البلاد فى ظل الحكم الإسلامى لها.

إن تاريخ الأندلس الإسلامى - رغم ما كتب عنه من قبل المؤرخين أو الكتاب أو حتى الفلاسفة- فى حاجة إلى مزيد من البحث والتقيب فى تلك الحقبة التاريخية للمسلمين هناك، والتي إمتدت نحو ثمانمائة سنة تقريباً، خلفت وراءها حضارة فريدة أذهلت المؤرخين المسلمين والغربيين على السواء، بإستثناء الحاقدين على الإسلام والمسلمين الجانبين أيضاً.

وقد كان تاريخ وحضارة الأندلس من الأهمية بمكان بحيث جعلتني أنهض للدفاع عنها أمام أولئك الذين يحاولون طمس هوية هذه الحقبة التاريخية الهامة، ليس فقط فى حياة المسلمين، ولكن أيضاً بما فيه نفع وفائدة للإنسانية جميعاً لما كانت تتمتع به الأندلس من حضارة إسلامية كانت زخراً حقيقياً للحضارة الغربية المعاصرة بشهادة أهل الغرب أنفسهم خاصة المستشرقين المعتدلين منهم، الذين غاصوا فى البحث والدراسة فى جنبات الحضارة الإسلامية على وجه العموم والحضارة الأندلسية على وجه الخصوص ووقفوا على مبادئ الإسلام السامية.

تلك الحضارة رغم أهميتها فى حياة البشرية إلا أنها كانت وراء حقد وكرامية الناقمين عليها منذ أن غزت أرضهم وحتى اليوم. فإن ما يدور بين

الغرب والمسلمين من صدمات يرجع في الأساس إلى كراهية وخشية الغربيين على أنفسهم من إستعادة المد الإسلامي لبلادهم مرة ثانية.

وعلى هذا قمنا بإعداد هذا الكتاب في تاريخ الأندلس السياسي والحضاري، في محاولة ليتعرف الشباب المسلم على تاريخ أجدادهم العظام الذين خلدوا لنا تاريخاً وحضارة سامية لازلنا نفخر بها، وسنظل نزهوا بها طالما نتبع كتاب الله وسنة نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه. مثلما كان الحال عليه أيام الجيل الأول والثاني والثالث من المسلمين. تلك الأجيال قد خططت لنا بأحرف من نور طريق الهداية والسلامة والمجد الإسلامي.

الأندلس، تلك البقعة التي أثارت لعاب الكثيرين حول ما أحدثه أجدادنا هنا بين أهل الغرب المخالفين لنا في الدين والجنس معاً، من حضارة عبرت في حقيقة الأمر عن سماحة الدين الإسلامي وعدله، حتى أن الأندلسيين أنفسهم دخلوا في الدين الإسلامي طواعية وعن إقتناع تام، وحتى أولئك الذين لم يدخلوا في الإسلام وظلوا على عقيدتهم وديانتهم، فضلوا العيش في ظل الحكم الإسلامي على أن يعودوا إلى ما كانت عليه أسبانيا (الأندلس) قبل دخول الإسلام إليها.

ومن الأمور التي أثارت غرائز المؤرخين من الغربيين على وجه الخصوص، ما حققه المسلمون من مكاسب سياسية وإنصارات متتالية في شتى أرجاء الأندلس في شماله وجنوبه، وشرقه وغربه، حتى كادوا أن يغزوا بلاداً غالياً (فرنسا) ذاتها في شمال الأندلس. وغاب عن معظم المؤرخين الغربيين أن الفتوحات الإسلامية في أوروبا عامة والأندلس خاصة، كان في معظم حالاته يلقي قبولاً من أهالي البلاد المفتوحة عندما لمسوا بأنفسهم أن الإسلام دين عدل وتسامح، وأن كرامة الإنسان في ظل الحكم الإسلامي لا في غيره. وقد بدا ذلك واضحاً بعد قيام الدولة الأموية في الأندلس، على يد عبد الرحمن الداخل، وبصورة أوضح في عهد دولة المرابطين، والموحدين في الأندلس، الذين كانوا يحكمون وفقاً لكتاب الله وسنة النبي محمد ﷺ.

لقد أثرنا على أنفسنا إخراج هذا الكتاب في صورته المتكاملة عن بلاد الأندلس سياسياً وحضارياً في ظل الحكم الإسلامي لنوضح للمسلمين وغير المسلمين، أن المسلمين لم يقوموا بالفتوحات الإسلامية لمجرد الغزو والسطو، بل لنشر دين الله الإسلامي، وهذا ما أكد عليه حكام المرابطين والموحدين في الأندلس إذ كانوا لا يتدخلون في شئون غيرهم إلا بعد اللجوء إلى القضاة والتثبت من الفتوى فيما يلجأون إليه، وإذا ما اضطروا إلى القتال فكان إما على سبيل الجهاد، أو الدفاع عن النفس.

ولما كان الكتاب يتناول تاريخ الأندلس، فكان لابد من معرفة هذه البلاد وتعريفها للآخرين من حيث طبيعتها السياسية والاجتماعية والدينية قبل الإسلام، لتتضح الصورة في الفرق لتلك البلاد -الأندلس- قبل الفتح الإسلامي وبعده، وكيف كان الناس يعيشون من قبل ومن بعد. حتى نؤكد للآخرين أن الدين الإسلامي دين حضارة إنسانية تجمع بين الروح والمادة في توازن وتناغم، لا كما هو الحال الآن في تلك الحضارة الغربية المادية التي يفتقد فيها الإنسان عنصر الروح. مما يؤكد على سرعة زوالها، لأن بقاءها مرتبطاً ببقاء المادة. فإذا كانت أمريكا أو أوروبا الغربية تفخر بسيادتها على العالم الآن، فلنتسائل كم هو عمر هذه الحضارة التي نراها، ستزول قريباً؟ الإجابة ببساطة أن تلك الحضارة الأمريكية أو الأوروبية لا تتعدى ستين أو سبعين عاماً. فإين هي من سيادة العالم الإسلامي للعالم الغربي الذي إمتد في بلاد الأندلس ثمانية قرون على الأقل؟!!

تلك الحضارة الأندلسية الإسلامية جعلتنا نقدم هذا الكتاب ليقرأه أصحاب تلك الحضارة الزائلة اليوم من الأمريكيين وغير الأمريكيين ونقول لهم حضارتكم هذه إنما تستند في أصولها إلى الحضارة الإسلامية عامة والإسلامية الأندلسية خاصة.

وعلى هذا قمنا بتقسيم الكتاب إلى خمسة فصول رئيسية هذا بخلاف المقدمة والخاتمة وقائمة المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها عند تناول هذا الكتاب بالبحث والدراسة.

الفصل الأول: وهو عبارة عن تمهيد أو مدخل للكتاب تناولنا فيه تعريف ببلاد الأندلس كمدخل طبيعي لا بد منه للتعرف على الحدود السياسية والجغرافية لتلك البلاد، وعرضنا من خلاله التقاسيم الطبوغرافية لبلاد الأندلس والتي كانت تبلغ إثني عشر تقسيماً سياسياً، إذ هي أشبه بالمقاطعات أو الممتلكات السياسية ذات الطابع الإقطاعي على غرار نظم الإقطاع الأوروبية. كذلك عرضنا في هذا الفصل أيضاً التقسيم الديموجرافي لسكان الأندلس والتي تضمنت عناصر عديدة منهم العرب (قبل الإسلام) وأهل البلاد الأصليين وعناصر من الرومان والقوط وكذلك من البربر المجاورين للأندلس والصقالبة وغيرهم، سنتعرف عليهم في هذا الفصل. كذلك يعرض هذا الفصل من الكتاب حالة بلاد الأندلس بشكل عام وكيف كانت الأمور تسير في صالح المسلمين الفاتحين، ثم نختم الفصل الأول بعملية الفتح ولأمراحل التي مرّ بها في بلاد الأندلس حتى دانت لهم تلك البقعة الهامة للمسلمين رغم وقوعها في أقصى غرب البلاد المفتوحة.

أما الفصل الثاني: فق إنفق المؤرخون على تسميته بعصر الولاة، وهي الفترة الممتدة ما بين (٩٥ - ١٣٨ هـ / ٧١٢ - ٧٥٥ م). وفي هذا الفصل نعرض لعدد من الولاة المسلمين الذين تولوا أمر المقاطعات الأسبانية التي خضعت لهم بداية بعهد الوالي عبدالعزيز بن موسى بن نصير الذي إتخذ من أشبيلية مقراً لولايته، ثم السمع بن مالك الخولاني، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم عبدالرحمن بن عبدالله الغافقي والذي وقعت في عهده معركة بلاط الشهداء في أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م، والتي قتل فيها عدد كبير من المسلمين على يد قائد الفرنجة شارل مارتيل (المطرقة). ثم يتولى أمر الأندلس بعد ذلك الوالي عبدالملك بن قطن الفهري، ثم عقبه بن الحجاج السلوي، ثم عبدالملك بن قطن

للمرة الثانية، ثم بلج بن بشر، فتعلبة بن سلامة، ثم أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، ثم آخر الولاة: يوسف بن عبد الرحمن الفهري؛ الذي بلغ عددهم أكثر من عشرة ولاة، ولكننا أثّرنا عدم ذكر الولاة الذين لا تتعدى ولايتهم شهراً أو بضعة أيام، حيث أن ذكرهم لا يغنى ولا يثمن من جوع، وفي نهاية هذا الفصل نعرض لأحوال الأندلس قبل قيام الدولة الأموية على يد عبدالرحمن الداخل.

أما الفصل الثالث: فيأتى تحت عنوان "عصر الإمارة". وفيه بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الأندلس السياسية والحضارية، وذلك بدخول عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك الأندلس وينشئ دولة أموية جديدة، متخذاً من قرطبة فى جنوب أسبانيا مركزاً وعاصمة لدولة الأمويين الجديدة فى الغرب، على غرار تلك التى كانت فى دمشق والتى أسقطها العباسيون فى المشرق سنة ١٣٢هـ / ٧٥٥م. فكانت هذه الإمارة نواة لقيام خلافة أموية فى الأندلس فيما بعد. ونعرض فى هذا الفصل أعمال عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) سواء فى مجال السياسة والإدارة والحروب أو فى مجال الإصلاح والإنشاء، هذا الشاب الأموى الذى إشتهر يلقب "صقر قریش" حيث جاء هذا اللقب من قبل ألد أعداء الأمويين "أبو جعفر المنصور" المؤسس الحقيقى للدولة العباسية فى بغداد. كذلك نعرض فى هذا الفصل ثورات العرب والبربر والأقارب الحاقدين والناقمين على الإمارة الأموية وكيف تغلب عبد الرحمن الداخل عليها، ومن جاء من بعده من الأمراء، أمثال هشام بن عبد الرحمن الداخل، الذى قام بالتصدي للإضطرابات والثورات، ومع هذا قام بالعديد من الإصلاحات، ثم يتولى الإمارة ابنه الحكم بن هشام، ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم، ثم ابنه هشام بن عبد الرحمن، ثم عبد الرحمن الثانى الذى عرف بالأوسط ثم ابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن والذى وقعت فى عهده أخطر ثورة ضد الأمويين قام بها عمر بن حفصون، ثم تولى الإمارة، الأمير عبدالله بن محمد، وكان آخر الأمراء الأمويين فى تلك العصر الذى إمتد من (١٣٨هـ / ٣٠٠م - ٧٥٥ / ٩١٢م).

أما الفصل الرابع: فيأتى تحت عنوان "عصر الخلافة الأموية فى الأندلس" والذي يبدأ من (٣٠٠ - ٤٢٢ هـ / ٩١٢ - ١٠٣٢ م). وهو العصر الذى يؤسس فيه عبد الرحمن الناصر "الخلافة الأموية" بعد أن رأى أنه أولى وأحق بأن يحظى بلقب خليفة عن الفاطميين فى بلاد المغرب، وبذلك صار هناك فى الدولة العربية الإسلامية ثلاث خلائف، هى: الخلافة العباسية فى بغداد، والخلافة الفاطمية فى المغرب، والخلافة الأموية فى الأندلس أواخر سنة ٣١٦ هـ / أوائل سنة ٩٢٩ م، بعد أن أقرّ الأوضاع وقضى على الفتن والثورات وأمنّ الحدود واستشعر بأنه أولى بالخلافة من عبدالله المهدي فى المغرب، وأما العمل الثانى الهام بقيامه بإنشاء مدينة الزهراء لتواكب المركز العظيم، على غرار دمشق فى الشام من قبل، وبغداد فى العراق .. وهكذا. ويخلف عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ليواصل كفاح أبيه فى الأعمال الحربية والإصلاحات الداخلية. ويعقب وفاة الحكم حالة من عدم الاستقرار وتنتقل الخلافة إلى بيت آخر عرف بالبيت العامرى "محمد بن أبى عامر" مستغلاً وصاية "صبح" والدّة الطفل "هشام" بن الحكم ولى العهد فى تثبيت أقدامه، والتخلص من خصومه وتلقيب نفسه بلقب خليفة - ومع هذا كانت الأندلس فى عهده تدّ حقت مكاسب كثيرة وكبيرة، ثم يضمن لإبنه "عبد الملك" الخلافة من بعده، ثم ابنه عبد الرحمن بن عبد الملك الملقب "بشنجول" والذي فى عهده تقوم ثورة فى قرطبة وتحدث ما يعرف بالفتنة الكبرى، وتتطور الأحداث حتى تقع البلاد فى يد حفنة من الملوك الضعاف عرف بعصر "ملوك الطوائف".

أما الفصل الخامس: فيتمثل فى عصر ملوك الطوائف وهو بداية النهاية لملك بنى أمية بصفة خاصة وتضعضع أحوال المسلمين فى الأندلس بصفة عامة، وتفككت أوصال الأندلس الإسلامية وإنتهت كدولة موحدة مهابة، حتى أن أحداً كان لا يمكن أن يتوقع نهاية العصر الأموى فى الأندلس على هذا النحو المأساوى، إذ أن هذا الفصل يبرز تمزق المملكة الأموية إلى أشلاء شتى.

وأصبحت الأمور فى طريقها إلى ضياع هذه القطعة الغالية من الأرض الإسلامية وسقوطها فى يد الممالك المسيحية الأسبانية بعد أن كانت هذه الممالك تدور فى فلك الدولة الإسلامية، وتدين لها بالولاء والطاعة؛ وهكذا يمكن القول أن العرب قد أصيبوا بانقسامهم بأكثر مما يصابوا بتآلب الأعداء ضدهم.

ومع هذا يقدم هذا الفصل الدور البطولى الذى قام به المرابطون ومن بعدهم الموحدون فى محاولات عديدة لإنقاذ الممالك الإسلامية، وقد نجحوا فى بعض أدوارهم، وأخفقوا فى البعض الآخر حتى تكالب عليهم الأعداء من كل حذب وصوب، لدرجة أن الأمر بلغ من التحدى بين العرب والأوروبيين، وتدخلت البابوية نفسها فى هذا الصراع، ودعت كافة الأوروبيين إلى تجيش الجيوش للقضاء على هذا الكيان الإسلامى فى الأندلس حتى تحقق لهم ذلك عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادى.

أما الفصل السادس والأخير: فيأتى تحت عنوان "حضارة الأندلس الإسلامية" وفيه نقدم للقارئ إختلاف الآراء حو أصول الحضارة الأندلسية، وأيهما أقرب إلى الصواب. كما يبرز الفصل أيضاً مدى تصدى المؤرخين العرب والمسلمين لإبراز عروبة الأندلس، ثم نقوم بتوضيح التطور الحضارى للأندلس الإسلامية من خلال مرحلة التكوين ثم النمو حتى وصلت إلى مرحلة الإزدهار كما توضح الدراسة هنا الأسس التى قامت عليها الحضارة الإسلامية فى الأندلس، وكذلك بعض مظاهرها، فى مجال التشريع والمجال الألبى وفى الحياة التربوية والتعليمية ثم أخيراً فى مجال العمران.

أما الخاتمة: فليست مجرد تلخيص ما سبق تقديمه من معلومات فى فصول الكتاب، ولكن الخاتمة هنا تبرز أهم النتائج التى توصلت إليها الدراسة والجديد فيها، ووجهة نظر الباحث فى أوجه الشبه والخلاف بين الحضارة الإسلامية فى الأندلس وبينها فى منطقة المشرق الإسلامى من جهة، ثم أثر

الحضارة الإسلامية على الحضارة الأوربية من جهة ثانية، ومحاولة الرد على الحاقدين من المستشرقين الغربيين الذين يزعمون أن الحضارة الأوربية إنما هي وليدة للفكر والعقل الأوربي فقط؟!

وفي النهاية نقدم قائمة لأهم مصادر الكتاب العربية والأجنبية ممن أصحاب شهود العيان والمعاصرين. مما يجعل الدراسة تقوم على أساس وثائقي، ثم إعتد الباحث على بعض وجهات النظر الحديثة الأجنبية والعربية وإختلاف وجهات النظر فيها.

وفي النهاية، أحمد الله لأن هذا الكتاب يعتبر خطوة أكثر تقدماً على الطريق، والله الموفق والمستعان.

المداخل

- تعريف بلاد الأندلس.
- طوبوغرافية بلاد الأندلس.
- ديموغرافية أسبانيا.
- العرب قبل الإسلام في شبه جزيرة أيبيريا.
- الأوضاع السياسية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي.
- فتح العرب واط مسلمين لأسبانيا.
- مراحل الفتح العربي للأندلس.
- فتوح طارق بن زياد في الأندلس.
- العرب وأهل البلاد الأصليين.

تعريف ببلاد الأندلس (أسبانيا):

الأندلس هي شبه جزيرة تقع جنوبى غربى أوربا، وتقابل براً العدو من بلاد المغرب، وبينهما بحر "الزقاق" الذى هو فم بحر الروم (البحر المتوسط) ملكها الوندال، وهم شعوب الجرمان الأوربية، وقد أطلق عليهم العرب الوندال "الأندلشى" بالشين المعجمة، فسميت البلاد بهذا الأسم، ثم عرب بالسين المهملة فصار الأندلس وسماها العرب أيضاً "القندلش" ثم عرب بإبدال القاف همزة والسين المعجمة سیناً مهملة^(١).

وقد عرّفها الإغريق منذ حوالى ٥٠٠ ق.م. بأنها "أيبيريا" وإقتصر هذا الاسم على شرقى شبه الجزيرة. أما الجزء الغربى منها فقد عرّفها الإغريق بأنها شبه جزيرة أيبيريا من نهر إيبروس أو (إيرو)؛ ولما دخلها الرومان قالوا عنها هسبانيا^(٢).

ولكن عندما زارها العرب وحاولوا وصف بلاد الأندلس جاء فى تقويم البلدان اسم "جزيرة الأندلس" على شكل مثلث ركن جنوبى غربى، وهناك جزيرة "قاس" وفم بحر الزقاق، وركن شرقى بين طركونة وبين برشلونة، وهى جنوبية وبالقرب منه بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة وركن شمالى بملىة إلى المحيط والبحر وبالقرب منه مدينة شنتياقوه، وحد الأندلس الشمالى يمتد على الجبل المعروف بجبل البرت الحاجز بين الأندلس وبين أرض تعرف بالأرض الكبيرة (فرنسا). وفى وسط الأندلس جبال تعرف بجبال الشارة وهى تمتد من الشرق إلى الغرب.

أما أهم التقاسيم الطبوغرافية فى بلاد الأندلس فهى:

أولاً: غرناطة: وهى تقع فى جنوب الأندلس ومملكتها فى الجنوب والشرق عن مملكة قرطبة وبينهما وبين قرطبة مسيرة خمسة أيام. وهى تشبه

دمشق في الشام من حيث الحصانة والروعة والجمال؛ وتشرف على غوطتها (أى حديقتها) وأنهارها تصب من جبل الثلج ولها أشجار وبساتين وأنهار وثمار ومياه مسيرة يومين؛ ولها ثلاثة عشر باباً منها: باب الكحل وباب الرخاء وباب المرضى وغيرها. وحولها أربعة أرباض: ربض الفخارين وربض الأجل وهو كثير القصور والبساتين وربض البيازين وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل وهو مستقل بحكامه وقضائه، وبها ربض الرملية. كما يوجد بغرناطة مسجداً من أروع وأبدع المساجد فهو محكم البناء، قام سقفة على أعمده حسان. وتجاور المسجد هذا دكاكين وأماكن للعطارين^(٣).

ورغم أن غرناطة شديدة البرد في الشتاء إلا أن طبيعتها الجبلية وكثرة بساتينها وحشائشها تزيدها جمالاً. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن غرناطة كانت قاعدة ومركزاً لملك الإسلام بالأندلس. فهي مركز الحكم في العصر الإسلامي في الأندلس.

وفي غرناطة القسبة الحمراء؛ وهي قاعدة عالية شديدة الانحدار والإمتاع وبمسجدها الثريات الفضية معلقة. وبحائط محرابه أحجار ياقوت مرصعة منمقة بالذهب والفضة ومنبره من العاج والأبنوس.

ومن مدن غرناطة: "المرية"؛ وهي مدينة مسورة على حافة بحر الزقاق. وأرضها وساحلها وبحرها غاية في الأناقة والجاذبية، فهي على الترتيب: فضى، تبرى، زبرجدي.

وتتميز غرناطة عن غيرها من بلاد الأندلس بكثرة أشجارها من العنب والتين؛ ومنها "مالقة" على بحر الزقاق وبها دار صناعة لإنشاء المراكب وبها الفخار المذهب. ومنها أيضاً "لشبونة" وجبل الفتح وهو الذي نزل به طارق بن زياد عند فتح الأندلس^(٤).

ثانياً: لشبونة: وبها بساتين ورساتيق وتقع غرب بلاد الأندلس، وتشتهر بكثرة ثمارها. وهي قاعدة لمملكة البرتغال؛ ومن مدنها "باجة" وهي أرض زرع وضرع.

ثالثاً: بطليوس: وهي مدينة عظيمة تقع على جانب أحد الأنهار في غرب الأندلس، وأرضها سهلة وليست وعرة، وتتميز أرضها بالطبيعة الخضراء.

رابعاً: أشبيلية: ومعناها المدينة المنبسطة ومملكتها غربي قرطبة ومن كورها "شريش" وإليها ينسب الشريشي، ومنها كورة "طريف" وأيضاً شلب وبها قصر الشراخيب.

خامساً: قرطبة: ومملكتها جنوب طليطلة وشرقي أشبيلية، وهي أعظم مدن الأندلس، وعليها سور ضخ من الحجارة، ولها سبعة أبواب؛ وبلغت مساجدها ألف وستمائة مسجد وحماماتها تسعمائة حمام؛ وبها مدينة "الزهراء" بناها الناصر الأموي غربي قرطبة في سفح جبل ومنها سفح مراد وكورة غافق.

سادساً: طليطلة: وكانت مقراً للملك لزريق قديماً وهو آخر ملوك القوط قبل الفتح الإسلامي لها. وهي من أروع البلدان الأندلسية فوق قمة جبل مرتفع؛ بها أشجار وبساتين والمسافة بينها وبين جبل إلبرت نصف شهر تقريباً.

ومن ملحقاتها: مدينة "وليد"؛ وتقع غربي طليطلة ومن أحسن المدن بها مدينة "الفرج"، وبها وادي يعرف بوادي الحجارة ومدينة "سالم" وبها قبر المنصور بن عامر.

سابعاً: جيان: وهي تقع بين طليطلة وغرناطة وتتميز أرضها بالخصوبة، وكانت بيد بني الأحمر أصحاب غرناطة حتى أخذتها الفرنجة منهم

بالسيف بعد حصار طويل. ومن مدنها "أبدة" وقد حدثتها دولة بنى أمية بالأندلس وأقامت بها عين تسمى عين الزعفران.

ثامناً: مرسية: وهي إسلامية النشأة بنيت في أيام حكم الأمويين بالأندلس، تكثر بها البساتين والراستيق ومن منتزهاتها الرشاقة وجبل "إيل" وتحتها البساتين وبسط تسرح فيها العيون.

تاسعاً: بلنسية: تقع شرقي مرسية وغربي طرطوشة حفت بها الأنهار والحدائق والبساتين، فلا ترى إلا مياهاً تتفرع ولا تسمع إلا أطيافاً تسجع وهي على جانب بحيرة حسنة. ومن منتزهاتها الرصافة ومدينة إين عامر ومن ملحقاتها مدينة شاطبة وإليها ينسب الشاطبي صاحب القصيدة المعروفة بالشاطبية في القراءات السبع.

عاشراً: سرقسطة: وهي قاعدة الثغر الأعلى، وهي مدينة قديمة بيضاء في أرض طيبة تحيطها بساتين زمردة خضراء، وإلتفت عليها أربعة أنهار، فأصبحت بها مرصعة مجزعة ولها منتزهات منها قصر السرو ومجلس الذهب.

حادي عشر: طرطوشة: وكانت مقراً لملك شرق الأندلس وإليها ينسب الطرطوشي صاحب "سراج الملوك".

ثاني عشر: برشلونة: وتعرف أيضاً برشونة ولكن تم إبدال النون لأمأ في الوقت الحاضر.

دجوجرافيت بلاد الأندلس :-

لقد سكن بلاد الأندلس قبل الفتح الإسلامي عناصر وأجناس من جهات مختلفة لعل أبرز هذه العناصر السكانية هي:

هاملكار (٢٢٩/٢٣٨ ق.م.) وخازد روبال (٢٢١/٢٢٨ ق.م.) وهم من القرطاجيين الذين سكنوا شرقى تالاندلس حتى نهر إيرو؛ وأسس هازدروبال مدينة قرطاجنة الجديدة وقد فزع الرومان بتقدم القرطاجيين مما دفعهم إلى التقارب معهم لتفادي خطرهم وتهديدات القرطاجيين لهم.

ولما آل ملك قرطاجنة إلى هانيبال استولى على مدينة ساجنتم سنة ٢١٩ ق.م.؛ وكانت للرومان، فقامت الحرب البونية الثانية بسبب ذلك الإعتداء وإنتهت الحرب بانتصار روما في معركة "زاما" الفاصلة سنة ٢٠٢ ق.م.^(٥).

وآلت أملاك قرطاجنة في الأندلس إلى الرومان الذين واصلوا الحرب لإخضاع بقية البلاد؛ وتم لها ذلك بعد قرنين من الزمان. وممن كان لهم شأن في هذا الفتح كيتو الأكبر الذي استولى على وسط البلاد سنة ١٩٥ ق.م.، وتايبرياس (تيبريوس) جراكوس وسيبيو الأفريقي سنة ١٣٣ ق.م. وأخضع القبائل التي كانت تعيش جنوب "التاجة". وفي عام ٦٠ ق.م دخلها يوليوس قيصر وأخضع الأقاليم الواقعة شمال التاجة وأتم أوغسطس إخضاع مناطق كانت لإبريا وإستورقة (ميورقة).

وقد قسم الرومان الأندلس إلى ولايتين يفصلهما نهر "إيرو" وقالوا عنها هسبانيا الخارجة وهسبانيا الداخلة. وهذا التقسيم هو الذي أدى بالرومان إلى تسمية البلاد هسبانيا. وأرادوا بتلك المملكة ذات الولايتين أو المقسمة إلى قسمين أو نصفين، وحكم كل ولاية نائب قنصل. ولما كان حكم أوغسطس، قسم أسبانيا إلى ثلاث ولايات أكبرها ولاية طراقونة في شمال شرقى أسبانيا. وفي غرب أسبانيا كانت باتيكا وعاصمتها (قرطبة). وأما القسم الثالث فهي لوزيتانيا.

وظلت أسبانيا تابعة للدولة الرومانية حتى عهد الامبراطور قسطنطين سنة ٤٠٩ م. وفي تلك السنة دخلها القوط الغربيون (الوندال) وانتزعوها من أيدي الرومان دون أن يلقوا مقاومة تذكر عام ٤٢٩ م؛ وعبر بعضهم المضيق ودخلوا

أفريقية. وظلت أسبانيا تابعة للقوط الغربيين (الوندال) حتى جاء العرب وغلبوا القوط الغربيين في بداية القرن الثامن الميلادي (٧١٠م/٩هـ).

العرب في شبه جزيرة أيبيريا :

في الوقت الذي داهمت فيه جيوش الاسكندر الأكبر ممالك آسيا الصغرى وبلاد الشام، ظل العرب يتمتعون بحريتهم في شبه الجزيرة العربية وظل حالهم كذلك ألف سنة أخرى وهم في عزلتهم وصحراواتهم يرتعون؛ لهم عاداتهم وتقاليدهم وأخبارهم خاصة بهم داخل بلادهم.

هذا في الوقت الذي أقام الاسكندر لنفسه وخلفائه من بعده ممالك لهم في مصر والشام وآسيا الصغرى. وهذا في الوقت أيضاً الذي توج أغسطس إمبراطور في روما، وكذلك قسطنطين إمبراطوراً في بيزنطة (تركيا حالياً). ثم قيام برابرة شمال وشرق أوربا بإسقاط روما والسيطرة على أملاكها في أوربا وحوض البحر المتوسط. كل هذا والعرب في جزيرتهم في غيهم يعمهون، لا أحد يعرف عنهم شيئاً ولم يفكر أحد ممن عرضنا في فتح بلادهم أو غزوهم. وظل أمرهم مجهولاً حتى بداية القرن السابع الميلادي. وإذ ذاك حدث إنقلاب عظيم في تاريخ العرب.

ما هو هذا الإنقلاب؟ وما أثر ذلك على جزيرتهم والشعوب المجاورة لها؟

للإجابة على الأسئلة هذه، يمكننا القول: أن خروج العرب من عزلتهم، ومحاربة الأمم المجاورة لهم وفتح تلك البلاد من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب إنما يعزى إلى رجل واحد هو النبي محمد ﷺ.

تم الإنقلاب وظهر الإسلام وإطمأنت القلوب، وعمل القوم على تنفيذ تعاليمه بنفس خالصة وبذل في الجهاد، ليس على سبيل الاعتداء أو الجور كما فعلت الأمم الأخرى، بل من أجل نشر الدعوة الإسلامية التي هي للناس جميعاً

وليس للعرب وحدهم؛ حيث أن محمداً ﷺ استطاع أن يجمع كلمة العرب في شبه جزيرتهم، وأن يخلصهم مما كانوا فيه من جهالة وسوء حال وأوضاع مزرية، فأصبحوا بفضل الله إخواناً وكانت دهشة الأمم المجاورة لهم عظيمة جداً، وقد رأوا العرب يخرجون ويفتحون^(٦).

وفي عهد خلفائه الراشدين تمكن العرب من إخضاع بلاد فارس وحتى الصين شرقاً، ثم الشام ومصر وشمال أفريقيا وبلاد الأندلس - التي هي موضوع الكتاب - وحتى بلاد وجبال البرانس جنوب فرنسا غرباً؛ وكان الفاتحون يقيمون ويشيدون المساجد وبيوت العبادة في كل مكان ينزلون فيه ويرفع فيها صوت الأذان "الله أكبر"^(٧). وكان كل مكان ينزلون فيه يلاقون مقاومة شديدة من أهالي البلاد خاصة في بلاد المغرب الأقصى وقوط أسبانيا (الأندلس) التي فتحت أخيراً على أيدي العرب.

الأندلس قبل الفتح العربي الإسلامي :

قبل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس، كان يحكمها - كما ذكرنا - القوط الغربيين (الوندال) وهم قبائل من البرابرة^(٨) الذين استولوا على أملاك الدولة الرومانية الغربية (روما). وقد كان ذلك في القرن الخامس الميلادي، وعلى وجه التحديد سنة (٤٧٦) ميلادية.

وكان المجتمع الأسباني يتبع آنذاك نظاماً عرف بنظام الإقطاع، حيث أن السكان كانت تنقسم إلى طبقة الأغنياء أو الملاك، وطبقة العمال أو الرقيق (الأفنان) وهم رقيق الأرض، وطبقة ثالثة بين الإثنين وهم الطبقة الوسطى التي لا ترقى إلى الطبقة الأولى ولا تنتمي إلى الطبقة الدنيا، وإن كانوا ليسوا - في ظل هذا النظام - أحسن حالاً من الطبقة الدنيا. وكان من جراء هذا النظام الظالم أن يسر الفتح القوطي في الندلس، ففتحت المدن أبوابها أمام القوط الغربيين وسلم الرومان للقوط مدنهم وبلادهم. وعندئذ أحرق الفاتحون المدن

وسبوا النساء والأطفال ونبحوا من بادر إلى ميدان القتال، هذا إلى جانب ما تعرضت له البلاد من قحط وانتشار الأوبئة والأمراض؛ فعمت الفوضى بلاد الأندلس واستسلموا للقوط صاغرين^(٩).

حكم القوط الأندلس ثلاثة قرون من القرن الخامس الميلادي إلى القرن السابع؛ وفي القرن الأخير (السابع) وصل العرب إلى المحيط الأطلنطي وتطلعوا إلى بلاد الأندلس، وكان حكام القوط الغربيين قد أهملوا أمر التبشير بالمسيحية هناك وكذلك أهملوا أمر الأهالي ولم يحاولوا تحسين أحوالهم، فكانوا بذلك أشبه بالعصور البالية التي كانت عليها أسبانيا في العهد الروماني الظالم؛ بل أن الطبقة الوسطى بالذات قد جردت من أموالهم وأملakهم بحجة ودعوى تسديد الضرائب المفروضة عليهم.

ونعم القوط بما إمتلكوه من الطبقة الوسطى التي تحول معظمها إلى أرقاء يعملون في أراضيهم لخدمة الحكام القوطيين؛ وأمام هذا الطغيان نهج رجال الكنيسة منهج الوندال في النهب والسلب فصارت طبقة رجال الكنيسة من الطبقات العليا الغنية، وأهملوا شئون الدين، فكان بذلك الأمر أن فتحت البلاد أمام المسلمين أبوابها؛ وليس معنة هذا أن المسلمين لم يجدوا مقاومة من قبل الأندلسيين، بل كانت المقاومة عنيفة في معظم جنابات البلاد ولكن كانت من قبل الحكام الغربيين دفاعاً عن أملاكهم وثرواتهم، ولكن موقف الشعب والأهالي الأندلسية الأصل لم يكن بالقدر الذي يحمي بلاده من الغزو الخارجي ظناً منه أن الفاتح الجديد ربما يكون أفضل حالاً من الغازي القديم^(١٠).

وهكذا كانت بلاد الأندلس مهياة تماماً أمام المسلمين لنشر دين الله، الدين الإسلامي الذي جاء به محمد للناس كافة.

فتح الأندلس :

حاول جوليان الحاكم القوطي إقناع موسى بن نصير والي أفريقيا آنذاك من قبل الوليد بن عبد الملك (٨٩هـ / ٧٠٨هـ) بالعدول عن القتال في أسبانيا ويكتفى العرب بأخذ ما تحت أيديهم من أسلاب وغنائم ثم يعودون إلى بلاد المغرب، ويعود إلى بلاد المغرب تاركاً أسبانياً لأولاد غيطشة والد زوجته. هذا إلى جانب دعوة جوليان لموسى بالتعاون سوياً للتخلص من لذريق أو (رونريق)^(١١).

وفي محاولة من قبل جوليان (يوليان) لكسب ود موسى بن نصير إلى جانبه ضد رونريق الذي أغتصب العرش من أولاد الملك غيطشة، أسهب وأطنب يوليان في وصف بلاد الأندلس من حيث مزارعها وجمال مدنها ووفرة خيراتها وضعف ملوكها وأخذ يسهل عليه أمر فتحها، وأعلن عن مدى إستعداده لمساندته وأنه سوف يقوم بتجهيز وإعداد السفن اللازمة لنقل جنود المسلمين إلى البلاد وتعريفه بدروب البلاد ومسالكها. مما دفع موسى بن نصير إلى عرض الأمر على الخليفة الأموي في دمشق الوليد بن عبد الملك، فكانت الإشارة من الخليفة إلى موسى بن نصير بأن يكون على حذر، وألا يزج بجنود المسلمين في أرض يجهلها، وأكد عليه أيضاً التأكد من إخلاص يوليان القوطي^(١٢).

عندئذ رأى موسى بن نصير أن يعتمد على عنصر البربر في فتح هذه البلاد الأندلسية، فأرسل حملة إستكشافية بقيادة طريق بن مالك في قوة لا تتعدى خمسمائة رجل، حيث توجه طريف بحملته تجاه الساحل الجنوبي لأسبانيا، وقد عبر البحر على متن أربع سفن من سفن يوليان، وكان ذلك في عام ٩١هـ / ٧٠٩م وكان طريف موفقاً في مهمته. فقد تمكن من دخول مدينة الجزيرة الخضراء واستولى عليها؛ وتأكد من إخلاص يوليان وصحة أقواله. ورغم ذلك ظل بن نصير متخوفاً، ثم وصله جواب الخليفة يحذره المجازفة وتعريض

أرواح المسلمين للخطر وترك له أمر غزوات بسيطة. غير أن حسب الفتح وتوسيع رقعة المملكة الإسلامية ونشر الدين الإسلامي دفعه لأن يقوم بأمر الفتح جدياً. وبهذه المناسبة ندفع عن العرب ووندافع عن أنفسنا كمسلمين موقف القيادات الإسلامية في عمليات الفتح ما ينسبه إليهم مؤرخو الغرب والإفرنج على وجه الخصوص من أن حب المال وحب القتال كان أقوى عامل يشجع الفاتحين المسلمين على فتح البلاد عنوة^(١٣).

مراحل الفتح الإسلامي في بلاد الأندلس :

ففي عام ٩٣هـ / ٧١١م علم موسى بن نصير أن أموراً داخلية تشغل ملك القوط رونريق في شمال بلاده، حيث قامت ثورة في مقاطعة "الباسك" ولقد دونت الأساطير الأسبانية القديمة قصة وأسباب هزيمة رونريق فقالت: "..... كان من أمر فتح الأندلس أن طليطلة كانت دار الملك وكان له بيت مغلق متحامى الفتح، يلزمه من ثقات القوط قوم قد وكلوا به كي لا يفتح يعهد الأول بذلك للآخر. كلما ملك منهم ملك زاد على ذلك البيت قفلاً فلما ولي لذريرق الأخير عزم على فتح لاباب والإطلاع على ما في البيت، فأعظم ذلك أكابرهم وتضرعوا إليه في الكف فأبى وطن أنه بيت مال ففض الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا تابوتاً عليه قفل فأمر بفتحه أيضاً فوجده أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقفي مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمام وهم متقلدوا السيوف رافعوا الرايات وفي أعلاه كتابة عجيبة فقرئت فإذا هي: "إذا كسرت هذه الأقفال عن هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها"^(١٤).

صحت النبوءة إن كان هناك نبوءة بهذا الشكل: أرسل موسى بن نصير إلى طارق بن زياد قوة وهو في بلاد الأندلس، عددها سبعة آلاف من أهل المغرب. ونجح طارق في مهمته أكثر مما كان يظن. نزل طارق بجنده على

صخرة السبع التي عرفت فيما بعد بجبل طارق، ومن ثم إستولى على مدينة كارتية وتقدم في داخل البلاد، حتى لقي جيش عظيم من القوط، يقوده ملكهم لملاقة طارق ومن معه من الجنود. وتلاقى الجيشان على نهر صغير سماه العرب نهر بقة. وهذا النهر يصب في المضيق بالقرب من رأس الطرف الأغر، وكان هذا النهر يعرف عند الأفرنج باسم "جواديليت". وكان جيش القوط ستة أضعاف جيش طارق بن زياد. ولكن الرعب كانوا كعادتهم أولى بأس شديد وشجاعة وإخلاص "قوم أغنتهم نفوسهم عن العدة وقلوبهم عن العدد" وكان جيش القوط من رقيق الأرض يعوزهم التدريب والنظام، وقد ملأ الخوف صدورهم وكان الكثير من أشرافهم ممالئين للعرب ظناً منهم أن في ذلك وسيلة تعيد الملك والبلاد إلى أولاد غطشة ملكهم المخلوع^(١٥).

رأى العرب جيش الغرب في عده العظيم ورأوا رونريق يتقدمهم فوجموا، فخطبهم طارق بن زياد خطبته المشهورة فزال ما دخل نفوسهم ووقالوا: قطعنا الآمال ما يخالف ما عزمنا عليه فإحضر إليه فإننا معك وبين يديك؛ وإنقضوا على أعدائهم وبدأ القتال الذي استمر سبعة أيام صبر فيها جيش المسلمين صبر الكرام، ثم خرج آل غيطشة على ملكهم فوق الخلل في صفوف القوط في اليوم التالي، ووجد القوم حذاءه وجواده على ضفة النهر مما يدل على إنتحاره غرقاً وحملته المياه إلى مصب النهر في المحيط الأطلسي؛ وإعتقد الأسبان أنه سيعود يوم يبرأ من جروحه ويقود العالم المسيحي لقتال المسلمين. ويقول بعض المؤرخين أن الذي قتله طارق بن زياد إذ ضربه بالسيف على رأسه فهشمه^(١٦).

عندئذ، كتب موسى بن نصير يبشر الخليفة الوليد بن عبد الملك بالنصر الذي أحرزه المسلمون على رونريق. والواقع أن المسلمين لم يلقوا من المقاومة - كما أسلفنا - إلا الأمر الخفيف فسهل عليهم إمتلاك البلاد بعد إخضاع ثورات متفرقة قامت بها بعض البلدان؛ وما كان طارق بن زياد ليضيع

وقته سدى فمد فتوحاته وتوالت إنتصاراته ولم يعبأ بأمر مولاه موسى بن نصير، عندما أرسل إليه ألا يتقدم أكثر مما وصل إليه، ولم يكن من باعث لهذا الأمر سوى ما دخل قلب مموسى من حسد وغيره، على ما ناله طارق من نصر لم ينله هو من قبل أو يدون له^(١٧).

فتوحات طارق داخل الأندلس :

أرسل طارق رجل من رجاله إلى قرطبة يدعى مغيث على رأس سبعمئة فارس، وإنتظر مغيث حتى أسدل الليل ستاره وإتخذ من ظلمة الليل حجاباً وقصد المدينة فوصلها قبل أن يعلم أهلها بقدومه، وعند قدومه بدأت السماء تمطر تلجأ، أخفى صوته وقع حوافر الخيل فعد المسلمون ذلك مساندة إلهية، وأخذوا يدورون حول أسوار المدينة وباغتوا الحراس وفتحت المدينة أبوابها فدخل الجيش وإمتلك المدينة بدون قتال. ولما تنبه حاكم المدينة لما حدث لجأ إلى دير للرهبان وإختفى به مع بعض رجاله وظل متخفياً ثلاثة أشهر ثم سلم نفسه وجعل العرب الأمر فيها لليهود لما كان من إخلاصهم إلى جانب المسلمين؟!!

ومن تلك الحادثة كان اليهود يسيرون فى أثر الفاتحين ويشهد مؤرخوا الإفرنج بحسن معاملة العرب لجميع الأجناس والأديان مما يبين مما يتميز به حكم المسلمين على حكم أمم القرون الوسطى، ومما جعل الأهلين عامة يشتركون فى إقامة حضارة الأندلس من علوم وفنون وهندسة.

استمر طارق بن زياد فى فتوحاته فى الأندلس، فلم يتوقف فاستولى على أرخيدونيا وكان أهلها قد خرجوا منها وإعتصموا بالجبال ثم سقطت مألقة بعد ذلك فى أيدى المسلمين. ثم هاجم البيرة وكان يثودمير القوطى يدافع عن ممرات مرسية دفاعاً مستميتاً حتى التحم بالمسلمين فى معركة فاصلة نصر الله فيها الإسلام، ومات ممن المسيحيين خلق كثير وفرّ ليثودمير وبعض رجاله إلى

مرسية، ولما وجد أن رجالها قد ماتوا في ميدان القتال جعل النساء يتلثمن وأعطاهن عصياً طويلة وأقامهن على الأسوار وذهب إلى طارق وأعلمه باستعداده لملاقاته والدفاع عن المدينة ورأى ومن معه كثرة عدد المدافعين، ثم قال لطارق، لو أنه فضل السلم لسلمه المدينة على شريطة أن يسمح لرجالها بأخذ متاعهم والخروج منها سالمين. فوافق طارق، زوما لبث أن خرج منها النساء يتعثرن في أثابهن، فأراد العرب سبيهن فذكرهم زعيمهم (طارق) بما كان من وعده، فكف العرب عنهم. وسوّ طارق لهذه الحيلة وجعله من قبله حاكماً على المدينة (مرسية) وسار الخبر بما كان فلقبهم المسيحيين بفرنسا غرناطة الأفاضل.

ومن مرسية خرج طارق إلى طليطلة عاصمة البلاد حيث أشرف القوط، وكانت غايته تتحصر في إبادتهم فلما سلم اليهود المدينة لم يعثر فيها على شريف وكانوا قد لجأوا إلى جبال إستورقة، وكان بالمدينة بعض الخونة أمثال يوليان فعينهم المسلمين في وظائف حكومية. وهنا أصبحت البلاد مفتحة الطرقات أمام المسلمين وصارت من أملاك الخلافة الإسلامية في دمشق^(١٨).

أما فيما يتعلق بموسى بن نصير فإننا نقول: أنه في صيف ٩٤هـ / ٧١٢م، دخل الأندلس موسى بن نصير بجيشه العربي في ١٨ ألف مقاتل لعل التاريخ يدون له شهرة تجعل فضل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس يسند إليه؛ وكان نصيبه من الفتح أن يجعل البلاد تخلد إلى السكينة ونشر الأمن على ربوعها وتوجه إلى طليطلة. وفي طريقه إليها دخل قرمونة وشدونه (سيدونيا) ومارده وأخيراً تقابل مع طارق بن زياد وكان قد خرج للقائه إجلالاً له، ولكن موسى بدلاً من أن يشكره بادره بالسوط على وجهه وأنبه على ما كان منه وعصيان أمره وكانت مقابلتهما في مدينة "ترافيرا" ثم إفترقا فصار موسى شمالاً وعبر جبال الشارة ودخل سلامنكا ثم وصل إلى إستورقة وأخضع إقليم جليقية ثم عاد شرقاً إلى قشتالة ودخل مدينة سرقسطة حيث وجد طارقاً وكان قد

سار شمالاً إلى مدريد ثم إلى تلك المدينة ثم إفرقا ثانية وسار موسى شمالاً مخترقاً أرغونة وناقار ووصل إلى جبال إلبرت وتسلفها وشاهد أرض الفرنجة (غاليا - أي فرنسا) ومياه المحيط وأثناء ذلك كان طارق قد سار من سرقسطة إلى طرطوشة وعبر نهر إيرو ثم قصد طراقونة ثم فتح برشسلونة وجيروننا وأخيراً عاد أدراجه وقصد بلنسية. وهنا عاد إليه موسى بن نصير، وكان الوليد بن عبد الملك أرسل إليه رسولين الواحد تلو الآخر يأمرانه بسرعة العودة إلى دمشق. وفي طريق عودته جنوباً قابل طارق بن زياد فصحبه وسارا معاً جنوباً إلى "قادس" وعبرا البحر إلى بلاد المغرب، وسارا إلى مصر ومنها إلى الشام حيث مقر الخليفة في دمشق، بعد أن استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز، وكان خروجه سنة ست وتسعين (٩٦هـ). وفي بعض الروايات أن طارقاً سبق ابن نصير إلى دمشق. وإختلف المؤرخون في وقت وصولهما إلى دمشق. فيقول بعضهم أن وصولهما كان آخر أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك؛ ويقول آخرون كان وصولهما عقب وفاة الخليفة. وأما كان الأمر فقد ادعى كل منهما لنفسه ففتح بلاد الأندلس، فطلب الخليفة البرهان فقدم له موسى الأسلاب وفيما بينها مائدة سليمان، وكانت هذه المائدة بطليطلة وطارق أول من استولى عليها ومنه أخذها موسى لنفسه، وهنا طلب طارق بن زياد إلى الخليفة أن يسأله عن رجل من ذهب للمائدة مفقودة فلم يجبه موسى بشيء، فأخرجها طارق وبرهن على أنه الفاتح للأندلس. ومما يؤسف له نهاية هذين القائدين العظميين، فقد أمر الخليفة بعزل طارق ووسجن بن نصير ثم خلى سبيله وإنتهى تاريخهما ومات موسى بن نصير في حالة فقر شديد، وقد فرض عليه سليمان غرامة ذهبت بما يملك هو وأفراد أسرته.

أما عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد دس عليه سليمان بن عبد الملك من قتله لإتهامه بزواج سيدة مسيحية راقه جمالها وطلب إلى الناس أن يحنوا الرؤوس له إجلالاً وإحتراماً فأبت عليهم ذلك عزة نفوسهم فغدروا به.

غير أننا نرى أن نهاية طارق بن زياد وموسى بن نصير على نحو ما سبق لا يمكن تفسيره إلا أن الوليد بن عبد الملك خشي على أن يستقلا الأميرين بالأندلس بعيداً عن الخلافة الإسلامية، خاصة وأن الأندلس كانت بعيدة عن العاصمة دمشق مقر الخلافة الإسلامية^(١٩).

العرب وأهل البلاد :

لبث الأندلس في حكم العرب والمسلمين ثلاثمائة سنة ولم تكن تلك المدة عصر سكون في كثير من أوقاتها إذ علاوة عما كان بين العرب أنفسهم من شقاق، فكثيراً ما سبب القوط في الأقاليم الشمالية اضطرابات. ولقد كان من شر ما إرتكبه العرب والمسلمين من أخطاء، أن تركوا بقايا القوط وشأنهم على شيء من الإستقلال، واكتفوا بما إمتلكوه، وأقاموا مملكة مقرها قرطبة فخار العصور الوسطى والشمس المشرقة الوحيدة في ظلام أوربا الحالك في تلك العصور.

لقد حكم العرب بلاد الندلس وفقاً للشريعة والدستور الإسلامي، فأقاموا العدل، وإتبعوا العقل الراجح والحكمة العالية في إدارة شئون البلاد؛ وجعلوا لهم من الأسباب والأغريق مستشارين، ولقد وجد الأسباب أنفسهم أحسن حالاً مما كانوا عليه في عهد حكامهم المسيحيين، ووفر لهم العرب أسباب معيشة هادئة آمنة، ولم يتدخلوا في ديانتهم وتركوا لهم التقاض أمام قضائهم والإنصياح لقوانينهم وجعلوا منهم عدداً ممن يجبون الضرائب وخفضوا الجزية على أفراد الطبقة الوسطى التي عانت من حكم القوط الغربيين (الوندال) من قبل، ورفعوا ما كان عليهم من واجبات، وكان على من إمتلك منهم أرضاً خراجها.

وفرضت الجزية على من يستطع دفعها وكانت فيما بين ١٢، ٤٨ درهماً سنوياً تدفع على أقساط شهرية فسهل دفعها؛ وطبعاً إقتصرت على المسيحيين واليهود. أما الخراج فتساوى في دفعه العرب واليهود والمسيحيون، وقدر الخراج حسب صلاحية الأرض للزراعة. ولم ينتزع العرب ما كان للقوم

من ملكيات واكتفوا بمصادرة أملاك الكنيسة وأملاك من فرّ من أشرف القوط. ومما يذكر للعرب أنهم حرروا رقيق الأرض وقضوا على نظم العبودية في العصر الإقطاعي، وإقتصر واجب الزراعة على أن يقدم للمالك ثلث المحصول أو فيما بين ذلك إلى أربعة أخماس. ولقد نالت بعض المدن حرية تامة في إدارة شئونها مالياً وزراعياً مقابل دفع جزية معينة ونالت ذلك مدينة ناردة وغيرها^(٢٠).

ولقد سمح العرب للأسبان أن يعتنقوا ما ساءوا من ديانات ولم يكرهوهم أبداً على إعتناق الإسلام ما داموا يدفعون الجزية وهم صاغرين. وبفضل مالقيهم من معاملة حسنة وعدالة، دخل الكثير منهم في الإسلام طوعاً لا كرهاً ومما يدل على رضاهم أن قس "باجة" عقد لعبد العزيز بن موسى بن نصير على أرملة رونريق (كناها العرب بأم عاصم). ومن ذلك نرى أن فتح العرب لبلاد الندلس كان نعمة على ساكنيها خاصة ونوراً وهدى على أوروبا عامة^(٢١).

الهوامش :

(١) مجهول المؤلف؛ أخبار مجموعة ص ٢٣. طبعة الإبيارى، درا الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨٢م.

(2) - Gamez Nogales; La Filozofia Musulmana, pp. 7-8.

(٣) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٧.

(٤) أوجه وألفت نظر القارئ إلى معرفة المقاطعات والمدن الأسبانية بشكل أفضل إلى الأطلسى العربى، خاصة خريطة أوربا الغربية.

(5) - Sanches allbrnoz; Historia de Espana Muslmana, vol, I, pp.19 - 20.

(٦) عبد اللطيف عبد الهادى (دمتور): موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٢، (عصر النبوة). ط. الاسكندرية، ٢٠٠٩م.

(٧) ابن هشام، سيرة بن هشام "سيرة سيدنا محمد ﷺ"، ج ١، ص ١٧٩.

(٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٧٨.

(٩) المرجع السابق، ج ١، راجع ما يتعلق بعناصر الوندال فى أوربا ودوافع وجهتهم إلى شمال الأندلس.

(١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(١١) ابن القوطية: إفتتاح الأندلس، ٢٢ - ٢٣.

(١٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات.

(١٣) عبد الرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٣٧ - ٣٨. وراجع كتابى "موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٩، ١٠.

(١٤) ابن القوطية، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(١٥) عبد العزيز سالم، تاريخ الأندلس "مراحل الفتح". وراجع كتابي موسوعة التاريخ الإسلامي (ج٦، ٧).

(١٦) المقرئ، نفح الطيب، المجلد الأول، ص ٩٢ - ٩٣، وراجع أحمد مختار العبادي، ص ٨٧ - ٩٣ وتتبع في هذا الكتاب القيم مراحل الفتح في بلاد المغرب والأندلس.

(١٧) أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، "مراحل الفتح".

(١٨) نفسه، نفس المرجع "مراحل الفتح". وراجع كتاب موسوعة التاريخ الإسلامي، مراحل الفتح في الجزئين ج٦، ٧.

(١٩) المراكشي، المعجب في تاريخ أخبار المغرب، ص ٤٣ وما بعدها. وراجع العبادي، المرجع السابق، مراحل الفتح في الأندلس.

(20) - Sanchez, Espanaun enigma Historico; vol, II, p.21.

(٢١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٤١ - ٤٢.

الفصل الأول

الأندلس في عصر الولاة

- عبد العزيز بن موسى بن نصير.
- ولاية السمع بن مالك الخولاني.
- عنبسة بن سحيم اللّبي.
- ولاية عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي.
- معركة بلاط الشهداء، ١١٤ هـ / ٧٣٢ م.
- ولاية عبد املك بن فطن الفهري.
- ولاية عتبة بن الحجاج السلوي.
- ولاية عبد املك بن فطن للمرة الثانية.
- بلج بن بشر وتعليبة بن سلامة.
- ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار اللّبي.
- آخر الولاة، يوسف بن عبد الرحمن الفهري.
- أحوال بلاد الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بالأندلس.

الأندلس في عصر الولاة :

لقد تولى إمارة الأندلس بعد فتحها إلى أن دخلها عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حوالي خمسة عشر أميراً في فترة قاربت نصف قرن من الزمان، وكان أولهم عبد العزيز بن موسى بن نصير، الذي ولاه أبوه قبل أن يغادر الأندلس، وكان آخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري.

وقد مكث بعضهم في الإمارة عدة أشهر، ومكث بعضهم بضع سنوات. وليس المهم هو معرفة أسماء هؤلاء الأمراء جميعهم ومدة حكمهم؛ وإنما المهم معرفة الأعمال المهمة التي حدثت في عهدهم، والنتائج التي ترتبت عليها ومدى تأثير هذه الأعمال في استقرار حكم المسلمين وقوتهم أو في ضعفهم وتمزيق شملهم. ثم إلقاء نظرة على النزاع المستمر بين العرب بعضهم مع بعض وبين العرب والبربر. وأخيراً محاولة التوصل إلى معرفة أسباب وقوف المد الإسلامي في أوروبا والنتائج التي ترتبت عليه.

وتجدر الإشارة هنا، أننا سوف نسقط من حساباتنا الأمراء الذين لم تتعد ولايتهم بضعة أشهر ولم يكن لهم دور مؤثر في تاريخ الإسلام في الأندلس.

أولاً - عبد العزيز بن موسى بن نصير :

تولى عبد العزيز بن موسى بن نصير إمارة الأندلس بأمر من والده موسى - الذي ربما كان سجنه من قبل الخليفة الوليد بن عبد الملك سببه هذا الإجراء دون الرجوع إلى الخليفة - بن نصير قبل توجهه للمشرق لمقابلة الخليفة. وقد اتخذ عبد العزيز هذا من أشبيلية مقراً لولايته. وقد قام هذا الأمير بأعمال جليلة ثبتت أقدام المسلمين هناك وعبر عنها الرازي بقوله: '..... ضبط سلطانيها وسد ثغورها وإفتح مدائن كثيرة، وكان من خير السوالة، إلا أن مدة ولايته لم تطل لو ثوب الحند عنه^(١) وقتلهم له الأشياء نقموها عليه ... وقد مكث في ولايته سنة وعشرة أشهر'^(٢).

والرازي هنا يجعل سبب قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أشياء
نقما عليه الجند بينما يذكر بن عبد الحكم "أن عبد العزيز بعد أن تزوج ابنة
رنريق ملك الأندلس القوطي الذي قتله طارق بن زياد طلبت منه أن يعظمه
الناس ويسجدون له كما كانوا يفعلون مع أبيها. وعند ذلك جعل نقباً قصيراً في
باب الحجرة التي يدخل عليه فيه الناس حتى ينحنوا له أثناء دخولهم، وبلغ الناس
أنه إنما نقب الباب لهذا الغرض. وزعم بعض الناس أن امرأته نصرته! فكان
سبب قتله"^(٣) وإين عذارى يروى عن الواقدي أنه قتل لأنه خلع سليمان وهم
بالاستقلال بالبلاد^(٤) وأنه إنتدب لذلك رجلاً من أفريقية وأعطاهم كتاباً بالولاية
لمن يقتله إلخ".

وسياق الرواية يدل على أنها موضوعة، وأن الخليفة كان بإمكانه أن
يرسل إلى عبد العزيز بن موسى للشخص إليه في دمشق مثل أبيه من قبل. وله
أن يرسل خطاباً بعزله فإن أبي كان الطرد والحبس وكان للخليفة حجة قوية في
تصرفه. أما ما تذكره هذه الرواية فشبهة الوضع فيها ظاهرة وجلية.

وقد يكون السبب في إغتياله أنه ساء التصرف وقسى في المعاملة مع
بعض الجند وأن الذين إغتالوه كانوا يريدون الإستيلاء على الإمارة مما جعلهم
يغتالونه أثناء صلاة الصبح^(٥) وبعدها أصبح الناس أعظموا ما حدث وأخرج
قتله كتاباً بأن سليمان أمرهم بذلك، فلم يقبله أهل الأندلس لعلمهم أن هذا الكتاب
منقول على الخليفة سليمان بن عبد الملك لأنه لا يأمر بمثل ذلك.

ولذلك يقول صاحب أخبار مجموعة: "أنه لما بلغ الخليفة سليمان قتل
عبد العزيز شق ذلك عليه، وأمر عبيد الله بن يزيد عامله على أفريقية بأن يتشدد
في قضية عبد العزيز بن موسى بن نصير، وأن يقبض على حبيب ابن أبي
عبدة وزيادة ابن النابغة اللذين قتلاه وأن يقبلهما إليه مع من شاركهما في قتله
من وجوه الناس"^(٦).

ومما يدل على أن الخليفة سليمان لم يأمر بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير أن الناس في الأندلس لم يرضوا عن قتله كذلك إختيارهم لأيوب بن حبيب ابن أخت موسى بن نصير والياً على الأندلس، فمكث والياً عليها ستة أشهر حيث خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي والياً عليها من قبل محمد بن يزيد والى أفريقية فقدم الأندلس أواخر سنة ٩٧هـ / ٧١٥م في جماعة من وجوه أفريقية فنظم أمورها ونقل عاصمة الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة. ويذكر المؤرخ كوندى الأسبانيولى أن الحر الثقفي هو الذى تجاوز حدود الأندلس إلى بلاد الفرنجة ونواحي أرغونة فسبى وغنم وقلل بالأسرى والغنائم وقد أدى توجيئه الجهود إلى بلاد الإفرنج إلى إنتعاش حركة المقاومة المسيحية التى يتزعمها "بلاي" المعتصم فى جبال إستوريا حيث جمع بقايا حزب المقاومة وثار به فى تلك النواحي مما اضطر الحر الثقفي إلى أن يعود أدراجه ليقمع هؤلاء الثائرين". وبينما هو مشغول بذلك عزلة الخليفة عمر بن عبد العزيز وولى على الأندلس السمع بن مالك الخولانى الذى وجه جهوده إلى الاستيلاء على جنوب فرنسا^(٧).

ولاية السمع بن مالك الخولانى :

قبل الحديث عن فترة ولاية السمع بن مالك، يجدر بنا أن نعرف الوضع الذى كان سائداً فى تلك البلاد؛ إذ أننا نجد أن فرنسا أو ما تعرف بالأرض الكبيرة كما يسميها العرب، كانت تسمى فى التاريخ الرومانى بـ "غاليا أو غاليس"، وبعد أن زال عنها الحكم الرومانى توزعت فرنسا إلى قوى وكيانات مختلفة. فكانت سبتمانية تابعة للقوط الغربيين، أما مقاطعة أقطانيا (اكوتين) وهو الجزء الذى يحده مهر اللوار شمالاً وإلى جبال البرانس جنوباً، فكانت بوقية مستقلة. كذلك كان هناك إقليم البروفانس الواقع شرقى إقليم سبتمانية. أما إقليم برجنديا فيقع شرقى نهر الرون. فإذا ما نظرنا إلى شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية فإننا نجد مملكة تسمى مملكة الفرنجة (الميروفنجية). ومن ذلك يتبين لنا أن فرنسا لم تكن تحت حكم دولة واحدة ذات سلطة مركزية وإنما كانت مجزأة

إلى قطاعات عدة عندما وجه المسلمون نشاطهم نحو الإستيلاء عليها.

وكان القائد الذى وجه جهده إلى مد نشاط المسلمين إلى جنوب فرنسا هو السمح بن مالك الخولانى الذى ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز على الأندلس وأمره "أن يعمل ويحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق أو يخمس أى (٥/١) ما غلب عليه ممن أرضها وعقارها ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها"^(٨).

وكان هدف عمر بن عبد العزيز من تولية السمح بن مالك عليها أن يجعلها ولاية مستقلة تابعة لمقر الخلافة مثل ولاية أفريقية ومصر؛ وذلك إهتماماً بشأنها، ولكى يبذل فيها جهداً كبيراً عندما يشعر بتبعيته مباشرة لمقر الخلافة مما يحمله على بذل الجهد فى الإعتناء بولايته لعدم تبعيته لوالى آخر يعزله بل يتبع الخليفة رأساً. إلا أننا لا نجد هذا الأمر يستمر بعد ذلك، بل نجد والى أفريقية هو الذى يسند إليه أمر الإشراف على والى الأندلس محتفظاً بتبعية الأندلس لوالى أفريقية ما عدا ولاية يحيى بن سلمة الكلبي الذى قدم الأندلس والياً من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فى أواخر سنة ١٠٩هـ / ٧٣٠م.

ويذكر ابن عذارى أن عمر بن عبد العزيز كان يرى "نقل المسلمين من الأندلس وإخراجهم منها لإنقطاعها عن المسلمين وإتصالهم بأعداء الله الكفار". فقول له: "إن الناس قد كثروا فيها وانتشروا فى أقطارها فعدل عن رأيه ذلك"^(٩).

وإذا كان هذا هو رأى عمر بن عبد العزيز حقاً فربما كان يخاف على المسلمين هناك لتصوره أنهم أقلية قد يتمكن الكفار لكثرتهم من التغلب عليهم وطردهم أو قتلهم، فلما وضح له كثرة الناس وإستقرارهم بها أعرض عن رأيه؛ ولذلك طلب من واليه أن يكتب له يصف الأندلس وأنهارها حتى يزيد إطمئنانه. على أوضاع المسلمين بها. وقد يقال غير ذلك من الآراء فى تعليل رأى عمر بن عبد العزيز فى نقل المسلمين من الأندلس^(١٠).

ولكننا نجد الأمير شكيب أرسلان ينقل عن كرينو "أن عمر بن عبد العزيز كان قد هاله بقاء ذلك العدد الكبير من المسيحيين في تلك البلاد وإستشعر من ورائهم خطراً على مستقبل المسلمين، ففكرى إجلاء مسيحي أسبانيا وجنوبى فرنسا إلى أفريقية حيث لا يكون من وجودهم هناك تهلكة على الدولة؛ إلا أن السمع بن مالك الخولانى طمأن مخاوف الخليفة قائلاً: "إن الإسلام ينمو وينتشر وتمتد شماريخه بسرعة فى أسبانيا وأنه لا يعد اليوم الذى تصير فيه تلك البلاد بأجمعها تابعة لدين محمد؛ وهذا رأى فى نقل مسيحيو أسبانيا إلى أفريقية لا نجد له أصلاً فى المراجع العربية ولسنا ندرى من أين جاء به رينو؟ بل إننا لا نقتنع أبداً بهذا رأى، لأنه لا يعقل أن يطلب أى إنسان وليس الخليفة نقل أناس من بلادهم جملة إلى بلاد أخرى، لأن ذلك أمر مستحيل.

ومبلغ علمى انه لم يسبق فى تاريخ المسلمين أن أجلى قوم من ديارهم لكثرة عددهم بالنسبة لعدد المسلمين الفاتحين. وأنه لم يجل عن دياره سوى اليهود عندما حملوا على ترك الجزيرة العربية لا لكثرة عددهم وإنما لإثارتهم الفتنة والدسيسة والقلق ضد المسلمين^(١١).

على أية حال، قدم السمع بن مالك إلى الأندلس والياً عليها من قبل عمر بن عبد العزيز فى رمضان سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م، بعد إختبار عملى له من قبل الخليفة عمر ثبت فيه صلاحه وفضله. فقام بعدة إصلاحات داخلية نلت على حنكته الإدارية والسياسية وتمكن بها من نشر الأمن والنظام فى ربوع بلاد الأندلس. فقد قام بتوجيه من الخليفة عمر بن عبد العزيز بإحصاء الأجناس والمذاهب التى كانت تقطن البلاد؛ وقيامه بعملية مسح لمدن الأندلس وجبالها وأنهارها وبحارها، مع بيان لطبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل. وحدد خراجها بنسبة الخمس. وإهتم بإزالة الخلافات والفتن المنتشرة بين الناس. ووجه جهداً صادقاً لإصلاح الجيش وإدارته، وجعله على درجة عالية من الكفاءة لخوض غمار الحروب. وثبت فيه من روحه الممثلة بالإيمان وحب الجهاد.

وبعد أن إطمأن السمع بن مالك إلى إستقرار الأمن والأمر في الأندلس داخلياً وإلى إستعداد الجيش لخوض غمار الحروب، توجه إلى المناطق الشمالية من الأندلس فهزم عصاة المسيحيين وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الإسترياس. ثم زحف على سبتمانيا مخترباً جبال البرنية من الجهة الشرقية وتمكن من إستعادة أربونة وقرقشونة ومعظم المدن والحصون التابعة لإقليم سبتمانية وقهر جميع القوى لآتى حاولت مقاومته أو الوقوف فى وجهه. ولا شك أنه فقد بعض جنوده فى الإستيلاء على تلك الحصون والمدن. وترك بعضاً آخر من الجنود لبسط الحماية الإسلامية على تلك البلاد والبقاع. ويذكر رينو أنه جاء فى تاريخ الرهبان الذين شهدوا تلك الوقائع "أن العرب هدموا دير (جوسل) بقرب بيزية؛ ودير (بوزيل) بقرب منهما ودير (ضجيل) بقرب آل، والدير المشهور المسمى بدير (الترائيل) بقرب أغيثمورت وغيرها... فدهم العرب هذه الديار كلها بغتة منحدرين عليها إنحدار العقبان بحيث لم يقدر الرهبان الذين فيها على أن يخلصوا نجياً برقابهم وببعض ذخائر قديسيهم التى كانت عندهم^(١٢).

وما نطن أن ذلك قد حدث إلا إذا كان الرهبان قد قاومت المسلمين وقتلتهم فاستولوا على هذه الأديرة عنوة. ورأى المسلمون هدمها حتى لا يتخذها الأهالى معاقل لمقاومة المسلمين مرة أخرى؛ ولو كان الرهبان سلموا بدون مقاومة ما حدث لهم ذلك وما إستولى المسلمين على ذخائرهم أو أملاكهم أو أصابوهم فى أرواحهم بسوء. ولذلك نجد رينو (المؤرخ) يعود فيعترف بذلك حين يقول: "وكان هؤلاء (يعنى المسلمين) لا يسيئون معاملة الذين يدخلون فى طاعتهم بدون مقاومة ويكفونهم القتال"^(١٣).

على أن السمع بن مالك بعد أن إنتهى من الإستيلاء على إقليم سبتمانيا الذى كان تابعاً للقوط الغربيين (الوندال)، وبعد أن حصن أربونة عاصمة سبتمانية وعزز حاميتها لوقوعها على البحر؛ توجه ببقية جنوده إلى الغرب نحو

مجرى الجارون باسطاً سلطان المسلمين على كل المدن والحصون التى فى طريقه حتى وصل إلى طرطوشة (تولوز) عاصمة إقليم اكويتين الذى إستقل به الدوق أودو؛ فضرب السمع عليها الحصار. ولكن قبل أن يتمكن من فتحها توجه له الدوق اودو بجيش عظيم يبلغ عشرة أمثال الجيش الذى مع السمع، فالتقى الجمعان بظاهر طرطوشة فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٠٢هـ / ٩ يونية سنة ٧٢١م ودارت معركة رهيبة بين جيشين غير متكافئين. غير أن المسلمين أظهروا من ضروب الشجاعة والجسارة مثلاً نادراً وصمموا على الإنتصار أو الاستشهاد وقد نجح كل فريق فى أن يحقق تفوقه حيناً بعد حين؛ غير أن السمع بن مالك أصابه رمح فى رقبتة خراً على أثره صريعاً فى أرض المعركة فأثر ذلك فى نفوس المسلمين الذين أرهقهم طول النضال مع كثرة جيش عدوهم وحسن إستعداده فأضطرب جيش المسلمين وإختل نظامه. ولكن الجيش الإسلامى إختار عبد الرحمن الغافقى لتولى القيادة العامة. فتمكن عبد الرحمن من الإنسحاب بالجيش إلى المازق الذى أحاط به بمهارة نادرة منعت عدوه من إلحاق الهزيمة به حتى وصل إلى أربونة التى صارت قاعدة للمسلمين فى الشمال قُتبت أقدام المسلمين فيها وظل يدير شئون الأندلس إلى أن قدم عنبسة بن سحيم الكلبى والياً على الأندلس من قبل بشر بن صفوان والى أفريقية؛ حيث عادت الأندلس ثانية تابعة لأفريقية فى عهد الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك^(١٤).

ولاية عنبسة بن سحيم الكلبى :

تولى عنبسة بن سحيم الكلبى قيادة الأندلس فى صفر سنة ١٠٣هـ / ٧٢٢م، وسار على سنة سلفة فى العناية بالأمور الداخلية فى الولاية أولاً غنظم الخارج؛ وقسم الأراضى بين المسلمين بدون جور على الأراضى التى لها ملاك أصليون ممن الأهالى. وكان يأخذ العشر من الذين خضعوا للمسلمين بدون قتال والخمس ممن لم يخضعوا إلا بالسيف. وطاف عنبسة فى مختلف البلاد

والمفاطعات ينظر في مظالم الناس وينشر العدل بينهم بدون تمييز بين المواطنين مختلفي الأديان^(١٥).

وقد ثار عليه أهالي طرسونة فزحف إليهم وتمكن من إحباط ثورتهم ودك حصونهم وإقتص من زعمائهم. وبذلك إستقرت أحوال بلاد الأندلس داخلياً، وإستتب فيها الأمن والعدل والنظام. وقد قضى في سبيل ذلك حوالى العامين.

وفي سنة ١٠٥هـ / ٧١٨م ولى وجهه شطر فرنسا بجيش من خيرة المقاتلين أهل النية في الجهاد والحسبة في الثواب أعده لمتابعة الجهاد فإخترق جبال البرنية وإسترد معقل المسلمين التى فقدوها بعد هزيمة طلوشة وإستولى على قرقشونة ونيمة وغيرهما من الأماكن الهامة وخافته جاليات القوط المجاورة فتحالفوا معه وتركوا محالفة الإفرنج. ولذلك يذكر المؤرخ الفرنسى رينو أن إنتصارات عنبة تعود إلى اللياقة وحسن الإدارة أكثرها مما تعود إلى القوة. كما أن جهوده التى بذلها لإكتساب ثقة الأهليين قد قوت من مركز ومكانة العرب فى جنوب فرنسا^(١٦).

وقد عامل عنبة الأسرى الذيين أسره من المدن الفرنسية معاملة حسنة وأرسلهم إلى برشلونة فساعد ذلك على إيجاد روابط الود بين المسلمين وأهالى بلاد الأندلس.

وقد تابع عنبة سيره على الساحل حتى وصل إلى نهر الرون، وبذلك إستولى على إقليم ليون ووصل إلى أوتون فى أعالى نهر الرون، وغزا مدينة سانس وقويت شوكتهم فى جنوب فرنسا حتى أن أودو دوق اكويتين خشى أن يهاجمه المسلمون مرة أخرى فطلب مفاوضاتهم ومهادنتهم .

وقد نسب إيزدور الباجى هذا النجاح إلى شخصية عنبة فقال: "كان نجاح عنبة راجعاً إلى الجرأة والبراعة أكثر منه إلى القوة والكثرة: وكان لينه

ومرونته وحسن معاملته لأهالى البلاد عاملاً فى تقوية سلطان الإسلام فى جنوب فرنسا.

والحقيقة ان هذا هو طبيعة المد الإسلامى وصفة الجيش الإسلامى عندما يجد الحاكم الملتزم والقائد بأحكام الإسلام^(١٧).

وقد أدى توغل عنبة فى هذه المساحات الشاسعة فى فرنسا بما يفوق قوة جيشه الذى تناقص عدده فى القتال ويترك بعض الحاميات خلفه إلى أن يتعرض أثناء عودته إلى الجنوب مع من بقى من جيشه من جموع كبيرة من الأعداء تربصت له ووقعت بينه وبينها معركة حامية قاتل المسلمين فيها قتالاً شديداً إلا أنهم فقدوا قائدهم عنبة فى شعبان سنة ١٠٧هـ / ٧١٩م؛ فاضطرب الجيش وإنسحبت فلوله إلى أربونة وفقد المسلمون المدن والحصون التى استولوا عليها من قبل^(١٨).

ومن المعروف أن المؤرخين الغربيين نجدهم أثر كل إنتصار للمسلمين فى أى مكان يحاولون أن يصفوا المسلمين بالقوة والوحشية والهمجية فى حروبهم، وبارتكابهم فظائع وجرائم تقشعر لها الأبدان وتشيب لها الولدان ولا تليق بالإنسانية ولا بالسماحة الإسلامية. وذلك أثناء تغلبهم على الأماكن التى استولوا عليها.

ولاشك أن هذه الدعاوى الكاذبة لا أساس لها ممن الصحة بالنسبة إلى المسلمين الذين بهم مثلهم العليا وأهدافهم السامية فى حروبهم ودوافعهم النبيلة فى هذه الفتوح. وإنما يريد المؤرخون الغربيون من هذه الفظائع والجرائم تطييح دماء المسلمين وتشويه حقائقه الناصعة. وإذا حدث أن ارتكب أحد الجنود الذين لم يتعمق سلوك الحرب والقتال الإسلامى وتعاليمه فى نفوسهم شيئاً من هذه الفظائع فإنه كان يؤخذ عليه بصرامة حتى يكون ذلك زاجراً لغيره عند ارتكاب مثل هذه الأفعال^(١٩).

والحقيقة التي لا مرية فيها أن هذه الأعمال الهمجية التي أظن في ذكرها هؤلاء المؤرخون لم تقع من المسلمين وإنما إرتكبها البرابرة البثنيون الذين كانوا لا يزالون غائصين في لجج الوثنية والقادمين من شمال شرق أوروبا ولذلك قال رينو (المؤرخ) بعد أن أورد الأوصاف البشعة التي ذكرها هؤلاء المؤرخون: "ألا إنه يعترضنا في هذه الروايات كون المؤرخين الذين ذكروها لم يصرحوا بأن أصحاب هذه الغارات من السرازين. ولا ثمة لفظته تدل على أن الذين فعلوا هذه الأفاعيل هم المسلمون بدون شك بل كان المؤرخون يشيرون إليهم بقولهم: "وندال" أي القوط الغربيين. وطالما كانوا يطلقون هذا الاسم في النصف الأول من القرن العاشر على المجيار عندما جاء هؤلاء إلى ألمانيا ودخلوا إلى فرنسا واكتسحوا "الألزاس" و "اللورين" و "فرانشي كونتي" و "برغونيا" و "شمبانيا" وغيرهم.

ومنم العجيب أن يذكر رينو أن المسلمين عندما قدموا إلى فرنسا وتغلغلوا في أحشاء البلاد لم يكن لهم خطة مرسومة معينة في مغازيهم ومراميهم؛ وأنهم لم يجدوا في البداية من أهل فرنسا إلا مقاومة واهية وعزماً مشتتاً. والحقيقة أن المسلمين كانت أهدافهم واضحة وهي بسط سلطانهم على شمال البحر المتوسط مثلاً فعلوا في جنوبه وأن خطتهم كانت متابعة الإغارة مرة بعد مرة مثلاً حدث في أفريقية ولولا الأحداث التي جرت في داخل الدولة الإسلامية لتحقق لهم في شمال البحر المتوسط مثل ما تحقق لهم في جنوبه.

وكذلك فقد لقي المسلمون في هذه الغزوات المتكررة مقاومة قوية وتجمعات كبيرة. وما حدث إنسحاب أو إستشهاد لقائد من قواد الفتح إلا في معركة كان تعداد جيش الإفرنج يفوق جيش المسلمين بمرات عديدة. وإن كان المؤرخون العرب بم تذكروا لنا تعداد جيوش المسلمين أو جيش أو جيوش أعدائهم. ولم يذكروا لنا ما قدم المسلمون من الشهداء في هذه الغزوات المتتابعة؛

وما فقد أعداؤهم من القتل والأسرى خلال مقاومتهم لتقدم المسلمين في أراضيهم.

ومهما يكن من أمر فقد انسحب الجيش الإسلامي بعد إستشهاد عنبسة إلى أربونة بقيادة عذرة بن عبدالله الفهرى. وتوفقت تلك الغزوات إلى أن تولى الهيثم بن عبيد الكنانى الأندلس سنة ١١١هـ / ٧٢٥م، فاستأنف الفتوح في فرنسا. وقد تولى الإمارة في الأندلس بعد إستشهاد عنبسة إلى ولاية الهيثم ثلاث ولاء: يحيى بن سلمى الكلبي سنة ١٠٧هـ من قبل أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وحذيفة بن الأحوص الأشجعي سنة ١١٠هـ، وعثمان بن أبى نعمة الخثعمي سنة ١١٠هـ من قبل والى أفريقية^(٢٠).

وقد أدى تتابع الولاة مع قصر المدة لكل منهم إلى اضطراب في إدارة الأندلس وإلى إيقاف الغزو مما شجع الإفرنج على مهاجمة المواقع الشمالية. ومكن القوط المعتصمين في شمال الأندلس من لم شملهم وتقوية صفوفهم وتنظيم قواتهم فأشتدت حركتهم داخل الهضاب النائية حول قائدهم "بلاي" الذي تمكن من وضع أسس لقيام الدولة النصرانية في الشمال^(٢١).

وعندما تولى الهيثم بن عبيد الكنانى إمارة الأندلس بذل جهداً مشكوراً في بث السكينة والأمن في ربوع البلاد وتمكن من تدمير حصون القوط ومعقلهم في الشمال. وغزا أرض مقوسة أو أرض مقرشة فافتتحا. ثم توجه وراء البرنية حتى وادى الرون فاستولى على ليون وماسون وشالون وبيون وأوتون، وصالحته بعض المدن الأخرى. وقد حدث خلاف بين قوى الجيش أدى إلى عودة الهيثم إلى الجنوب حيث توفي ولم يحتفظ المسلمون بهذا المد وضاع الجهد الذى بذلوه سدى^(٢٢).

وتولى إمارة الأندلس بعد الهيثم محمد بن عبدالله الأشجعي وذلك لمدة شهرين حتى اسندت إلى عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى إمارة الأندلس من قبل

عبدة بن عبد الرحمن السلمي والى أفريقية.

على أننا يجب أن نلقى نظرة على "منوسة" الذى حاول الاستقلال بالمنطقة الواقعة غربى البرنية، ثم إنشاقه على المسلمين ومحاربة الهيثم له. لقد تردد بين المؤرخين الخلاف حول جنسية وأصل هذا المغامر، ما بين كونه عربياً أو بربرياً أو نصرانياً غربياً وأنه من "لامباجيا" ابنه أودو دوق اكوئين أو حتى أنه ابن أخت بلاجيوس زعيم جليقية القوطى إلخ. وأنه عقد معاهدة دفاع من أودو وطلب من أمير الأندلس المصادقة عليها. وكذلك يتحدث المؤرخون عن أطماعه السياسية فى الإستقلال ثم رغبته فى المصاهرة من فتاة بارعة الجمال. ويتخذون من ذلك وسيلة لإستقلال الحاكم بما تحت يده، فيأتى والى الأندلس ويكشف القناع ويقاقله ويقضى على لامباجيا ويرسلها إلى دمشق^(٢٣).

ومع فرض صحة ما يقولون فإننى أميل إلى أن "منوسة" لم يكن عربياً ولا بربرياً وإنما كان نصرانياً أسند إليه المسلمون إدارة منطقة قرب البرنية، ولا مانع من ذلك، لأننا رأينا فى البداية أن المسلمين أسندوا إدارة بعض المدن إلى النصرارى كما حدث فى طليطلة. وومن يدرى فلعله كان أيضاً حاكماً سابقاً لتلك وصالح المسلمين فتركوا له إدارة البلاد مثل تدمير، ثم نقض العدا وأخل بالشروط فحاربه المسلمون وذلك لأم المصادر العربية لا تذكر سوى أن الهيثم غزا أرض مقوشة (منوسة)^(٢٤).

أما قصة الحب والجمال والقبح والزواج التى يوردها المؤرخون الإفرنج فهى من الأمور تذكر لحبك القصة التى يراد إختراعها. لأننا لا نصدق إنتقاص حاكم مسلم سواء كان عربياً أو بربرياً فى ذلك الوقت المبكر لأن الظروف كانت لا تسمح له بالإستقلال فى منطقة ما زالت ميداناً للغزو ولم تستقر فيها الأمور بعد. ثم لأن الجنود الذين تحت إمرته لا يوافقوه على ذلك. فهو لا يملك القوة

لتنفيذ هذا الإستقلال لا بالنسبة للمسلمين لإنشاقه عليهم، ولا بالنسبة للمسيحيين لأنه لا يضمن وفاءهم له بالمعاهدة التى عقدها معهم حسب زعمهم^(٢٥).

عبد الرحمن بن عبدالله الغافقى :

تولى عبد الرحمن الغافقى إمارة الأندلس فى صفر سنة ١١٢هـ — / ٧٢٦م. وكان يتسم بالحنكة السياسية والإدارية، هذا إلى جانب مهارته فى القيادة العسكرية وطموحه وآماله العريضة فى أن يأخذ بثأر من إستشهد من المسلمين وقوادهم فى فرنسا، وكان يأمل فى تحقيق ما عجزوا عنه بالإستيلاء على فرنسا.

وقد بدأ عبد الرحمن أعماله بالإصلاحات الداخلية فى الأندلس، فعمل على نشر العدل ورفع الظلم وقام بجولة فى ربوع البلاد قضى فيها قرابة عامين طاف خلالها معظم بلاد الأندلس مستمعاً إلى شكاوى الرعية وناظراً فى أمورهم ومحققاً لمصالحهم، فعزل كل من ثبت جورته من الحكام المحليين ومن أخل أو أهمل واجباته وعين بدلاً منهم رجالاً إشتهروا بالعدالة وحسن السمعة والنزاهة.

وقد عامل عبد الرحمن المسلمين والنصارى واليهود على قدم المساواة وبدون تمييز، فأعاد للنصارى كنائسهم التى إنتزعت منهم وكان لهم الحق فيها وفقاً للعهود. كما نظم الإدارة المالية وعاقب بشدة ممن أثار شغباً أو أحدث فتنة أضرت بالرعية وبذلك تمكن من توطيد الأمن ونشر السلام فى ربوع البلاد.

ومع إهتمام عبد الرحمن بالإصلاحات الداخلية الإدارية عنى أيضاً بإعداد الجيش وإصلاح أمره وحسن إختيار عناصره وقواده وتدريبهم وتعريفهم بالمهمة الكبرى الملقاة على عاتقهم وأثار فيهم روح التضحية والفداء وأعلن الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فإنضم إليه الكثير من خيرة المقاتلين فى أفريقيا والأندلس^(٢٦).

وبذلك تجمع لديه جيش كبير كان يأمل أن يحقق به ما أعجز العدو وعجز عن تحقيقه وإعدادة الولاة من قبله فبسط سيادة المسلمين على جنوب فرنسا.

وفي بداية سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م، تحرك ذلك الجيش الضخم بقيادة عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي مخترباً البرنية عن طريق بنيلونة ودخل فرنسا متجهاً شرقاً إلى مدينة "آرل" الواقعة على نهر الرون لإمتناعها عن أداء الجزية ودارت على شواطئ الرون معركة شديدة تغلب فيها المسلمون واستولوا على المدينة وزحف عبد الرحمن بعد ذلك نحو الغرب وعبر نهر الجارون مفاجئاً ولاية "اكوتين" التي تصدى للدفاع عنها الدوق أودو على رأس جيش ضخم فدار وطيس معركة عنيفة بين الطرفين في مضيق نوردون هزم فيها الدوق ومزق جيشه شر ممزق. وتمكن الدوق من الفرار ببعض رجاله إلى الشمال وبهذا بسط المسلمين سلطانهم على ولاية "اكوتين" جميعها^(٢٧).

ثم عاد الجيش الإسلامي ثانياً إلى الشرق مخترباً برجونية واستولى على "ليون" و "صانص" التي تبعد قرابة مائة ميل من باريس. وبذلك تم للمسلمين الإستيلاء على النصف الجنوبي لفرنسا كله من الشرق إلى الغرب ولم يبق إلا الاتجاه نحو عاصمة الإفرنج. وقد تم هذا في أشهر قليلة. وترك عبد الرحمن في المدن التي استولى عليها حاميات قوية من جيشه للإحتفاظ بسطان المسلمين عليها. ولمت حرصه على تقوية هذه الحاميات مع كثرتها قد أدى إلى ضعف قوة الجيش الذي معه والذي إتجه به نحو عاصمة الإفرنج حيث اللقاء مع شارل مارتيل (المطرقة) في معركة عرفت بمعركة بلاط الشهداء نظراً لكثرة القتلى والاستبسال في المعركة التي كان لها أثر كبير في تغيير الأوضاع، وتوقف المد الإسلامي في أوروبا حسب تقرير المؤرخين^(٢٨).

معركة بلاط الشهداء :

عندما هزم الدوق أودو في مضيق الدوردون، وفقد كل اكويتين تقريباً، إتجه إلى شارل مارتيل، أمير القصر في دولة الفرنجة وكانت السلطة الحقيقية لدولة الفرنج في يده - وطلب منه العون والنجدة والوقوف معه في وجه المسلمين ومحاولة إسترجاع اكويتين التي إستولوا عليها منه فسارع شارل مارتيل إلى إجابته وسار بجيشه حتى إلتقى بالمسلمين في موقعة بلاط الشهداء في السهل بين توربواتيه^(٢٩).

ولا شك أن شارل مارتيل كان يعلم بتحركات المسلمين في جنوب فرنسا ويعلم أن المسلمين سوف يقصدون دولته بعد الإستيلاء على اكويتين، فإستعد لذلك اللقاء وجمع جيشاً كبيراً من فرنسا ومن القبائل المتوحشة في حدود الدانوب والإلب وقفار ألمانيا. ولكنه لم يتحرك للقاء المسلمين عندما وطئوا جنوب فرنسا ليلتقى بهم في شمبانيا أو اكويتين، وإنما ترك الجيش الإسلامي يذهب شرقاً وغرباً ويفتح المدن ويخوض المعارك ويترك الحاميات هنا وهناك ويفقد بضع الجنود في المعارك المختلفة التي خاضها ضد أودو وكأنه يريد بذلك أن ينهك جيش المسلمين قبل اللقاء به وأن يحدد الزمان والمكان الذي يلتقى فيه بجيش المسلمين وكان يعد لهذا اللقاء في السر والكتمان، حتى أن جواسيس وعيون عبد الرحمن الغافقي عجزت عن رصد هذا الجيش أو إكتشافه حتى كان اللقاء الحاسم^(٣٠).

تجهز شارل مارتيل وإستعد للقاء عبد الرحمن، خاصة وأن جموع جيش مارتيل أخذت تطالبه قائلة: ما هذا الخزي الباقي في الأعقاب؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم ممن جهة مطلع الشمس حتى أتو من مغربها وإستولوا على بلاد الندلس وعظيم ما فيها من العدة والعدد وجمعهم القليل وقلة عدتهم وكونهم لا دروع لهم". فقال لهم ما معناه: الرأي عندي أن لا نعترضهم في خرجتهم فإنهم كالسيل

يحمل من يصادفه وهم في إقبال أمرهم ولهم ثبات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع، ولكن امهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا على الرياسة ويستعين بعضهم ببعض فحينئذ يتمكنوا منهم بأيسر أمر. وكان ذلك ما أعطى لجيش الفرنجة شيء من الثبات أمام المسلمين. يضاف إلى ذلك أن جيش الفرنجة لم يصاب بالتعب أو الإرهاق الذي تعرض له جيش المسلمين من كثرة المعارك وتعدد الغزوات في مختلف بلاد الأندلس وفرنسا^(٣١).

ولم يكن بين جيش شارل مارتيال (المطرقة) عبد يحارب في صفوف سادته الممقوتين، بل كانوا على قلب رجل واحد حتى لا يكون مصيرهم كبقاى النصارى واليهود الذين تعرضوا للقتل على أيدي جيش وقوات المسلمين من قبل. هذا إلى جانب ما وعدهم شارل مارتيال من منحهم الإمتيازات في حالة تحقيق النصر على المسلمين. فكان جيش الفرنجة أشبه في هذه المعركة (بلاط الشهداء) بجيش طارق بن زياد قبل ذلك في موقعة (شريش). فكانت هذه المعركة (بلاط الشهداء) هي اللقاء الفاصل بين المسلمين والمسيحيين في أوروبا العصور الوسطى^(٣٢).

أما جيش المسلمين فكان قد إنتهى من الإستيلاء على مدينتى بواتيه وتور. وعندما أراد عبد الرحمن الغافقى أن يعبر نهر اللوار، كان جيش الفرنجة قد وصل إليه دون أن يشعر المسلمون به. وهنا رأى عبد الرحمن الغافقى أن ينسحب بجيشه من وشاطئ اللوار وإستعد للمعركة في السهل الواقع بين تور وبواتيه.

وقد حاول عبد الرحمن الغافقى أن يثنى الجنود المسلمين عن التمسك بالأسلاب والغنائم حتى لا تعوقهم في خوض المعركة، ولكن محاولته لم تحقق النجاح المرجو منها، فرأى أن يخوض المعركة قبل أن يحدث الشقاق في جيشه،

وبذل كل جهده وطاقته لحمل الجيش على القتال بجدية وإصرار. فلما إلتقى الجمعان وبدأ المسلمون القتال في أواخر شعبان سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م بمناوشات إستمرت ثمانية أيام رجحت فيها كفة المسلمين، وفي اليوم التاسع خاض الطرفان معركة عنيفة إستمرت إى أواخر الليل، او بمعنى أدق حتى أرخى الليل سدوله. وفي اليوم العاشر استؤنفت المعركة من جديد بشراسة وقسوة وشدد المسلمون حملتهم على الفرنج حتى كادوا أن يقطفوا ثمر النصر، غير أن فرقة من الفرنجة تمكنت من الوصول إلى المكان الذي فيه الغنائم وأشيع بين صفوف الجيش الإسلامي أن الغنائم سيستولى عليها العدو. وهنا ترك بعض الجنود مواقعهم الأمامية ليدافعوا عن الأسلاب، مما أدى إلى خلل في صفوف المسلمين. وحاول عبد الرحمن جهده ليعيد النظام إلى صفوفهم وتقدم الصفوف يقودها ويجعل من نفسه سداً منيعاً أمام الأعداء وهنا أصابه سهم قاتل من قبل الأعداء فسقط شهيداً في ميدان القتال وإضطرب المسلمون لإستشهاد قائدهم وشدد الفرنجة الحملة وإغتتموا هذه الفرصة. إلا أن المسلمين صمدوا في ميدان القتال وثبتوا لأعدائهم يقاتلونهم حتى حجز الليل بين الجيشين، وعاد كل جيش إلى مواقعه دون أن يحقق أحدهما النصر على الآخر وكان ذلك في أوائل رمضان سنة ١١٤هـ / ٧٣٢م.

كان على المسلمين أن يقدروا موقفهم بعد إستشهاد قائدهم عبد الرحمن الخافقي، وهنا إختلف رأى القادة بين مواصلة القتال والإنسحاب. فمواصلة الجهاد قد تأتى بالنصر وقد تأتى بالهزيمة، والإنسحاب لا هزيمة فيه ولا نصر. وبعد أخذ ورد في التشاور إستقر الجميع في النهاية على الإنسحاب، فغادر المسلمون أماكنهم في ظلام الليل متجهين إلى سبتمانيا مخلفين وراءهم خيامهم وجرحاهم الذين لم يستطيعوا حملهم معهم^(٣٣).

ولاحظ جيش العدو في الفجر الهدوء يسود معسكر المسلمين. فظن شارل مارتنين (المطرقة) وأودو أن في الأمر خدعة فتقدمت فرق من معسكر

الفرنج بحذر نحو معسكر المسلمين فتبين لهم خلو المعسكر من المقاتلين عدا بعض الجرحى فأجهزوا عليهم وفرح شارل مارتيل لذلك ولم يتعقب المسلمين وإنما إكتفى بإنسحابهم وعاد مسرعاً بجيشه نحو الشمال. وقد سمي المسلمون المكان الذي دارت فيه المعركة "بلاط الشهداء" لكثرة من إستشهد فيه من عظماء الرجال مع عبد الرحمن^(٣٤).

على أن المؤرخين الغربيين قد أشادوا بهذه الموقعة وقالوا عنها أنها قد أنقذت أوربا من فتح المسلمين، وأنها قد أوقفت المد الإسلامي من أن تنتشر في أوربا. وأن جيش المسلمين قد مزق فيها شر ممزق، ولذلك بالغوا في عدد الشهداء من المسلمين حتى وصلوا إلى أضعاف مضاعفة بالنسبة لعدد الجيش الأصلي إلخ^(٣٥).

ومع هذا يمكننا القول: أنه إذا كانت الحرب قد ظلت طوال هذه الأيام العشرة بدون أن تتحقق هزيمة أحد الطرفين فإن المسلمين في مساء اليوم العاشر، رغم إنسحاب عدد كبير من جيش الإسلام ومقتل قائدهم عبد الرحمن الغافقي، إلا أنهم تمكنوا من الصمود في مساء ذلك اليوم، وكان من الممكن لهم أن يحققوا النصر وأن يصمدوا أمام شارل مارتيل إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً^(٣٦).

وكان من جراء مقتل عدد من القادة المسلمين إلى جانب القائد العام عبد الرحمن الغافقي أن أدى إلى عدم الإتفاق على رأى في إختيار من يقود الجيش في المعركة؛ وكان الإرهاق من الحروب التي خاضوها قبل المعركة في أرجاء جنوب فرنسا والجهد الذي بذلوه خلال المعركة ان أدى ذلك إلى أن تدور الدائرة عليهم، وإضطروا إلى الإنسحاب الذي فضلوه على الهزيمة في المعركة^(٣٧).

وإذا نظرنا بعين الحقيقة إلى إنسحاب المسلمين من معركة بلاط الشهداء لوجدناه مثل إنسحابهم من طولوشة منذ إثنى عشرة سنة، وليس هناك فرق

بينهما. فقد انسحب المسلمون عقب مقتل القائد في كلا المعركتين. غير أن الفرنجة في الثانية كانوا أكثر عدداً وتجمعوا من أماكن كثيرة، لكن في طولوشة كان المسلمون يقاتلون قائد دوقية اكويتين وحدها. بينما في موقعة بلاط الشهداء كان شارل مارتيل قد وجد مساندة من كل من إقطاعيات فرنسا وجيرانها، بالإضافة إلى تأييد بابا روما لهم مجتمعين لقتال المسلمين.

أما السبب في عدم مواصلة المسلمين الفتوحات في فرنسا بجيش كبير فيرجع إلى شيوع الفرقة بين المسلمين، وإنشغال السلطة بمقاومة الخارجين عليها، ثم سقوط الدولة الأموية بعد ذلك في دمشق، وإنفصال الأندلس عن السلطة المركزية في بغداد، هذا في الوقت الذي كان المسلمون في الأندلس يعتمدون على عناصر شتى في الجيش ليسوا من أصل عربي مثل البربر في شمال أفريقية. يضاف إلى ذلك بعد الشقة عن العاصمة الإسلامية في دمشق ثم بغداد، حيث أن الإمدادات كانت تصل متأخرة أحياناً^(٣٨).

ويرى بن خلدون، ويتفق معه المؤرخ الإنجليزي الشهير أرنولد تونبي ومن سار على دربهما من المؤرخين - أن كل فتح، خاصة في تلك العصور لم تكن الإمكانيات العسكرية المتقدمة موجودة، والإمكانيات البشرية محدودة^(٣٩).

بينما نرى أسباباً أخرى لم يتعرض أحد من المؤرخين لهما ألا وهي: أن الأندلس لم تكن هدفاً في الحقيقة عند العرب عندما قرروا عملية الفتح ناحية الغرب، ولم يكن يعرفون شيئاً البتة عن الأندلس اللهم أن البربر في شمال أفريقية قد لوحوا للعرب وعلى رأسهم طارق بن زياد بضرورة فتح بلاد الأندلس. كذلك ما كان من خلاف وانتزاع السلطة من البيت الحاكم في الأندلس - كما مر بنا - دفع جوليان (يوليان) إلى الاتفاق مع موسى بن نصير لقتال رنريق المغتصب للعرس في أسبانيا.

وعلى هذا، وبعد دخول العرب بلاد الأندلس وجدوا أرضاً ومناخاً مناسباً للإستمرار للفتح العربي. وطالما كانت الأمور تسير على هذا النحو، فليس هناك

غضاظة في عدم التوقف اللهم إذا حدث تحالف وتكاتف ول غرب أوربا ضد المسلمين في الأندلس، أو فرنسا، هنا يتوقف الفتح وليس من المفيد للإسلام والمسلمين حينئذ مواجهة هذا التحالف. والانسحاب هو الأسلوب الأمثل هنا للحفاظ على الأقل بما تحت أيديهم في بلاد لم يكن للمسلمين فيها خبرة بدروبها وطبيعة أهلها، وحرص المسلمون على البقاء في الأندلس على مغامرة غير مأمونة في فرنسا (غاليا)^(٤٠).

ولایت عبد الملك بن قطن الفهري :

كان لإستشهاد عبد الرحمن الغافقي ومن معه وإنسحاب المسلمين من بلاط الشهداء دون تحقيق النصر هزة كبيرة في نفوس المسلمين فأرسل والي أفريقية في رمضان سنة ١١٤هـ / ٧٣٣م عبد الملك بن قطن الفهري والياً على الأندلس في جيش من خيرة جند أفريقية وأمره بالعمل على حماية الأندلس وإسترجاع هيبة المسلمين وثبيتها في جنوب فرنسا^(٤١).

وكان بعض السكان في المناطق الشمالية في شبه جزيرة الأندلس قد حاولوا أن يستفيدوا من إستشهاد عبد الرحمن الغافقي ومن معه ويتخلصوا من الحكم الإسلامي، فوجه إليهم عبد الملك بن قطن الفهري جهوده فصار إلى كتالونيا وأرغون ونافار وهزم الثوار في عدة معارك وأجبرهم على طلب الصلح والإنصياع للمسلمين، ثم توجه عبد الملك إلى إقليم لانجيدوك فثبت أقدام المسلمين هناك، ونظم أمور الدفاع عنها حتى تتمكن من الصمود في وجه الإفرنج المتمردين^(٤٢).

وكان حكم البلاد في مقاطعات سبتمانيا وبروفانس يتبع بعضهم شارل مارتيل، ويتبع بعضهم دوق اكويتين؛ ولكنهم كانوا يميلون إلى التخلص من هذه التبعية والإستقلال ببلادهم. ولذلك نجد بعضهم يحالف حكام المسلمين ليتقى بأس ملوك الإفرنج ومن هؤلاء "موروند" دوق مرسيلية. وفي سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م

اتفق يوسف أمير أربونة المسلم مع موروند دوق مرسيلية حيث زحف المسلمون بجيش كبير تمكن من الإستيلاء على مدينة آرل ثم تقدموا في مقاطعة البروفانس وحاصروا مدينة مرينا المعروفة بسان ريمنى وإستولوا عليها، ثم توجه المسلمون إلى أفينون وتمكنوا من الإستيلاء عليها بعد قتال عنيف مع حاميتها، وبقي المسلمون يسيطرون على بلاد البروفانس أربع سنوات^(٤٣).

وبعد أن تمكن عبد الملك بن قطن الفهرى من إسترجاع هبة المسلمين بهذه الغزوات في أرض فرنسا (غاليا) عاد إلى جبال طبرنية لتأديب العصاة فيها. غير أن عواصف شديدة وأمطار غزيرة وطبيعة الجبال الوعرة، أجبرت عبد الملك وجيشه من المسلمين على التراجع^(٤٤).

ولاية عقبة بن الحجاج السلولى :

لقد عزل ابن قطن الفهرى عن إمارة الأندلس في رمضان سنة ١١٦هـ / ٧٣٤م؛ وكان عقبة بن الحجاج يعرف بالشجاعة وحسن تدبير الأمور والتمسك بالعدل والتقوى، ولذلك إستبشر المسلمون بولايته. وقد حقق عقبة خلال ولايته إمارة الأندلس الهدوء والأمن في ربوع البلاد، فنشر العدل ورد الظلم وحاسب العمال وعزل من ثبت ظلمه وجوره وعاقبهم حسب جرمهم وولى مكانهم من إتصف بالعدالة والنزاهة والحرص على مصلحة الرعية. وأمر العمال في الولايات بتجنيد فرق لحماية الأمن والضرب على أيدي العابثين به. وإهتم بدور العلم والعبادة فأسس كثيراً من المساجد والمدارس وعين لها من يقوم بشأنها وبتعليم الناس فيها ورصد لهم الأموال للإنفاق منها. وكان لا يفرق في المعاملة بين الرعية، فلا يحابى أحداً لإسلامه أو قرابته أو يظلمه لمخالفته له في الدين فأطمئن الناس في عهده وفرحوا بولايته^(٤٥).

وقد وجه عقبة بن الحجاج السلولى جهوده الحربية أولاً إلى شمال الأندلس عازماً على تثبيت أقدام المسلمين فيها وجعلها سكناً لهم ففتح بنيلونة

ومعظم جهات جيلقية. غير أن الصخرة التي لجأ إليها ملك جيلقية وكان بها ثلاثمائة رجل، فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت مؤنهم، ولم يتقوتوا إلا بعمل يجدونه في شقوق الصخرة ووعى المسلمون أمرهم فتركوهم. ولعلمهم أستهزئوا شأنهم وظنوا أنهم يهلكون ولا يكون لهم شأن؛ فعاد عقبة بن الحجاج السلولى ومن معه موجهاً جهوده تجاه جنوب فرنسا دون أن يتم القضاء عليهم، كما رجع عنهم من قبل موسى بن نصير عندما استدعاه الخليفة. وإذا كنا نلتمس لموسى بن نصير عذراً في رجوعه والقضاء على "بلاى" وعصابته المعتصمة بالصخور بتبليته أمر الخليفة، فإننا لا نجد هنا عذراً لعقبة بن الحجاج السلولى في رجوعه عن بلاى وعصابته دون أن يقضى عليهم. فقد كان القضاء على بلاوى وعصابته خيراً مما قام به من بعد ذلك من تثبيت سلطان المسلمين في جنوب فرنسا. ذلك أن سلطان المسلمين سوف ينكمش ثم ينسحب من جنوب فرنسا، كما سينكمش ثم ينسحب من شمال الأندلس. غير أن الفرنسيين سوف لا يستطيعون مقاومة المسلمين في الأندلس، بينما سيتمكن خلفاء بلاوى وعصابته مقاومة المسلمين في الأندلس، بل سيحملون أحفاد المسلمين بعد ثمانية قرون على مغادرة الأندلس؛ أو البقاء مع ترك عقيدتهم الإسلامية وإعتناق المسيحية وزادوا الطين بلة بسلبهم لحريتهم فصاروا عبيداً بعد أن كانوا سادة وحكاماً^(٤٥).

ومهما كان الأمر، فقد وجه عقبة جهود المسلمين الحربية بعد توطيد الأمن في شمال الأندلس تجاه جنوب فرنسا فتابع الجهاد خلال فترة ولايته التي استمرت أكثر من خمس سنوات فصارت أربونة موطناً للمسلمين ومكاناً لسكانهم. أما مواقع القتال والحروب فكانت في الأماكن المكشوفة حتى نهر الرون حيث أقام المجاهدون في المراكز العسكرية "الرباط" من أجل الدفاع والاستكشاف فقط^(٤٦).

وفي سنة ١١٨هـ / ٧٣٦م توجه الجيش الإسلامي للإغارة على إقليم دوفينة فاستولى على سان بول "ودونزور وفلانسي" وفيين وليون وغيرها، وانتشرت طلائع الجيش الإسلامي في بوغونية مهددة عاصمة فرنسا ومحاولة إسترجاع هيبة المسلمين والأخذ بثأر الجيش الإسلامي الذي إستشهد قائده وبعض جنوده في معركة بلاط الشهداء^(٤٧).

وكان شارل مارتيل مشغولاً بمقاتلة الثائرين عليه في الشمال فأرسل أخاه هيلدبراند بجيش لصد المسلمين وإستجد بصهره وحليفه لوتيراند ملك اللومبارديين في إيطاليا ليعاونه على قتال المسلمين الذين تمكنوا من جبال دوفينة وبيمونت.

وقد ضرب شلد براند بجيشه الحصار على المسلمين في أفينون ولحق به شارل مارتيل بجيش ثان، وجاء لتوبراند ملك اللومبارديين بجيش آخر من إيطاليا حيث تمكنوا من الإستيلاء على أفينون بعد حصار طويل وقضوا على حاميتها المسلحة مما إضطر الحاميات الإسلامية المنتشرة في بعض الأربطة أمام هذا الجيش الهائل من الإنسحاب والإعتصام في أربونة فتقدم شارل مارتيل بجيشه الضخم وحاصر بيونة فصمد المسلمون فيها وردوا كل هجماته. ورأى عقبة السلولى إنقاذ المدينة حتى لا تقع في أيدي شارل مارتيل فأرسل إليها مدداً عن طويق البحر غير أن شارل تمكن من منعه من الوصول إلى أربونة وأنزل به خسارة كبيرة ولم ينج منه سوى عدد قليل لجأ إلى السفن وذلك في سنة ١١٩هـ / ٧٣٧م ومع عدم تمكن هذه النجدة من الوصول إلى أربونة إلا أن المسلمين حالوا دون وصول شارل إليها^(٤٨).

وقد حاول المسلمون بقيادة عقبة بن الحجاج السلولى إسترجاع هذه البلاد ثانية سنة ١٢٠هـ / ٧٣٨م غير أن الفرنج بقيادة شارل مارتيل تكاثروا عليهم وإضطروهم إلى الإنسحاب من بروفانس ومعظم مدن سبتمانيا ولم يبق للمسلمين سوى أربونة ورقعة من الأرض بين أربونة والبرنية. ومع هذا، فإن المسلمين

واصلوا غزواتهم وفتوحاتهم البحرية على المدن الواقعة على الشواطئ الجنوبية لفرنسا وكذلك على الجزر الغربية منها.

فقد أنشأ المسلمون منذ الفتح دوراً لصناعة وبناء الأساطيل البحرية في كثير من موانئ الأندلس عدا دار الصناعة المقامة في تونس. وكان للمسلمين في الأندلس قائد للبحر يسمى "أمير الماء" وقد حرف بعد ذلك إلى أميرال^(٤٩).

ومع كل هذه الجهود الضخمة فلم يتمكن المسلمون من تحويل جنوب فرنسا إلى أرض إسلامية سنتحدث عنها فيما بعد.

ويبدو أن حالة المسلمين في جنوب فرنسا وعدم ثبوتهم هناك دفع أهالي الأندلس على الثورة ضد عقبة بن الحجاج السلولي، فعزلوه وولوا مكانه عبد الملك بن قطن للمرة الثانية. وقال بن القطان: إن عقبة بن الحجاج لما حانت وفاته استخلف عبد الملك بن قطن على الأندلس للمرة الثانية سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م.

ولاية عبد الملك بن قطن للمرة الثانية :

كانت ولاية عبد الملك بن قطن للمرة الثانية فترة لقيام الثورات وانتشار الفتن وإضطراب الأمور في الأندلس. وقد كانت أسباب الإضطراب من خارج الأندلس وداخلها معاً. ففي الخارج نجد أن المغرب الأقصى إضطربت الأمور فيه لانتشار مذهب الخوارج الصفارية وتزعّم ثورة المغرب ميسرة المدغرى، إذ قام البربر ضد الحكام المسلمين العرب حيث قتلوا حاكم طنجة وحاكم السوس ودعوا لميسرة بالخلافة وقاتلهم والى أفريقية. ولكن المسلمين هزموا في معركة الأشراف سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م بعد أن قدموا كثيراً من الشهداء فولى الخليفة هشام بن عبد الملك على أفريقية كلثوم بن عياض القشيري وأرسل معه جيشاً بقيادة بلج بن بشر القشيري لقتال البربر والقضاء على فتنة الخوارج في أفريقية وانضم إليهم جنود أفريقية وساروا نحو المغرب الأقصى حيث إتقوا بخوارج

البربر تحت قيادة خالد بن حميد الزناتى فى وادى سبو ودارت بين الفريقين معركة شديدة الوطيس إنتصر فيها البربر وإستشهد كلثوم بن عياض وتشتت جموع العرب المسلمين فلقق بعضهم بالقيروان ولجأ بلج بن بشر فى عشرة آلاف من أهل الشام إلى سبته فتحصنوا بها فحاصرهم البربر وإشتد عليهم الحصار فطلبوا من عبد الملك بن قطن أن يساعدهم فى العبور إلى الأندلس فمأطلمهم فى البداية خوفاً على مركزه وسلطانه^(٥٠).

ولكن أحداث أفريقية التى إنتصر فيها البربر فى المغرب الأقصى كان لها تأثير فى داخل الأندلس بين البربر والعرب فتطاول البربر فى الشمال فى جيلقية وغيرها وقاتلوا العرب وطردوهم من المناطق. وكان أن يحدث فى الأندلس ما حدث فى أفريقية. عند ذلك إضطّر عبد الملك بن قطن أن يسمح لبلج بن بشر وأصحابه ويعاونهم فى العبور إلى الأندلس ليستعين بهم فى القضاء على ثورة البربر فى الأندلس وشرط عليهم مقام سنة بالأندلس ثم يخرجوا عنها فرضوا بذلك وأخذ منهم رهائن أنزلهم بجزيرة أم حكيم.

وعبر بلج ومن معه إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م وقدم لهم ما يحتاجون إليه ممن الطعام واللباس واجتمعوا إلى جيش عبد الملك ثم إتجهوا إلى البربر المجتمعين فى شذونة فهزموا البربر وغنم بلج منهم غنائم كثيرة. ثم إتجهوا إلى قرطبة حيث ردوا جموع البربر عنها بعد قتال عنيف، فاجتمعت جموع كثيرة للبربر قريباً من طليطلة فزحف إليهم عبد الملك وبلج بعرب الأندلس وتمكن العرب من هزيمة البربر بوادى سليط وقتلوا منهم عدة آلاف، وبذلك قضى على ثورة البربر فى الأندلس وإشتد ساعد بلج وأصحابه^(٥١).

لم يكن القضاء على فتنة البربر بالأندلس بشيراً باستقرار الأوضاع بالأندلس، ولكن أعقب ذلك فتنة بين العرب أنفسهم. فقط طلب عبد الملك بن قطن من بلج وأصحابه الرحيل من الأندلس حسب الشرط الذى أخذه عليهم فقال

بلج بن بشر أحمانا إلى ساحل البيرة أو ساحل تدمير، فقال لهم عبد الملك ليس لنا مراكب إلا بالجزيرة. قال له: إنما تريد أن تردنا إلى البربر (أى المغرب الأقصى) ليقتلونا فى بلادهم. فلما ألح عليهم عبد الملك فى الخروج ثار بلج ومن معه من أهل الشام وقبضوا على عبد الملك وقتلوه مع بعض الرهائن التى كانت تحت يده وتولى بلج بن بشر بلاد الأندلس فى أول ذى القعدة سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م^(٥٢).

ولاية بلج بن بشر وتعلبة بن سلامة :

وفى فترة ولاية بلج بن بشر بدأ الصراع بين العرب أنفسهم فقد حشد أمية وقطن إبنى عبد الملك جموعاً كثيرة فى سرقسطة بلغت أكثر من مائة ألف، وإنضم إليهما عبد الرحمن بن حبيب الفهرى وعبد الرحمن بن علقمة اللخمى حاكم أربونة وفارس الأندلس وكل من أنكر قتل عبد الملك بن قطن، وسارت هذه الجموع إلى قرطبة حيث خرج إليهم بلج فى شعرين ألفاً من أنصاره ودارت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها أحد عشر ألفاً - وهو من وجهة نظرنا عدد مبالغ فيه - وانتصر فيها الشاميون رغم قتلهم إلا أن بلجاً هذا أصيب بجراح توفى على أثرها بعد أيام. فولى أهل الشام فى شوال سنة ١٢٤هـ / ٧٤٢م ثعلبة بن سلامة الجذامى إمارة الأندلس وقالوا أن ذلك كان بعهد هشام بن عبد الملك أو من كلثوم بن عياض كماذكروا ذلك فى ولاية بلج قبل ذلك وقد حاول ثعلبة إصلاح البلاد ونشر العدل بين العباد. إلا أن سلطة الحكومة المركزية فى الأندلس كانت قد ضعفت، وحاول حكام الولايات الوسطى والشمالية الإستقلال والإنفراد بالنفوذ. ونشبت الحرب مرة ثانية بين الشاميين بقيادة ثعلبة وبين أبناء عبد الملك بن قطن ومن انضم إليهم، ودارت بينهما معارك حامية حول ماردة قتل فيها خلق كثير وإنجلت الحرب عن إنتصار ثعلبة على خصومه وأسر ألفاً منهم وعاد بهم إلى قرطبة فى بلاد الأندلس.

ولاية أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلابي :

وفي مطلع سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م أرسل حنظلة بن صفوان والي أفريقية أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلابي والياً على الأندلس فقدم إلى قرطبة وتسلم السلطة من ثعلبة وأعفى عن الأسرى الذين كان يريد ثعلبة قتلهم. وقد حاول أبو الخطار أن يعيد الأمن والسكينة إلى البلاد وتمسك بالتسامح والعدل فأحبه الناس واجتمع عليه أهل الشام وعرب البلد وإنقاد له الحكام الخارجون على سلفه فأحسن إليهم ومن أبي الانقياد له خرج من الأندلس. وقد فرق أبو الخطار جنود الشام وأنزلهم في مدن مختلفة حسب المدن التي قدموا منها. وكأنه يراعى هنا رابطة البلد والمكان الذي ينتسب إليه الفرد لا رابطة القبيلة، وأنهى الحكم الذاتي الذي كانت تتمتع به تدمير (مرسية) بعد وفاة ثيودمير لأنه رأى أن تلك المعاهدة التي عقدت معه كانت تتعلق بفترة حياة ثيودمير ولا تتجاوز إلا أبنائه من بعده. وبذلك ضمت تدمير إلى باقي الإمارات في الأندلس وتم للمسلمين بسط سلطانهم على جنوب الأندلس كله^(٥٣).

كان شعور المسلمين بالمساواة من أبي الخطار بين جميع القبائل عاملاً أدى إلى الرضا عنه وتأييده وطاعته من الجميع. ولكن يذكر المؤرخون أن أبا الخطار مال بعد ذلك إلى اليمينيين وحاباهم على حساب المضريين مما أدى إلى اشتعال نار الفتنة بين العرب من جديد.

وقد أدى اشتعال النار بين الطرفين بإساءة أبي الخطار إلى زعيم من زعماء المضرية يدعى الصمويل بن حاتم بن شمر ذي الجوش، وجده شمر من أهل الكوفة وممن إشتراك في قتل الحسين بن علي عليه السلام. وكان الصمويل بن حاتم هذا، شجاعاً سخياً فالتف حوله المضرية وبعض الناقمين على أبي الخطار من اليمينية كجذام ولخم، فلما أهانه أبو الخطار بعث الصمويل إلى خيار قومه فشكا إليهم ما حل به من هوان فتأثروا معه وأيدته لخم وجذام من اليمينية، فقدموا

عليهم ثوابه بن سلامة الجذامي - أخو ثعلبة السالف ذكره - وإتجهوا نحو قرطبة فخرج إليهم أبو الخطار فهزموه وأسروه؛ وإتجه ثوابه ومن معه نحو قرطبة فدخل قصر الإمارة؛ وأعلن إختيار ثوابه وهو يمني أميراً على الأندلس سنة ١٢٨هـ / ٧٤٧م بدلاً من أبي الخطار. ووافق على ذلك والى أفريقية عبد الرحمن بن حبيب الفهري الذي إنتزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان. وقام ثوابه بضبط الأمور في الأندلس يعاونه الصمويل فاجتمع عليه جند الأندلس. وهنا نشير إلى ما يذكره معظم المؤرخين من أن العصبية القبلية بين اليمنيين والمضريين كانت هي السبب الدائم في إثارة الخلاف والفتنة والحرب بين العرب في الأندلس. وإن هذه الدعاوى قد تقبل على إطلاقها إن لم نجد شيئاً يدحضها. ومن ذلك إسناد الأندلس إلى ثوابه بن سلامة الجذامي وهو يمني، مع أن معظم المنتصرين كانوا من مضر وفيهم الصمويل بن حاتم، ومن هنا كان قتال جذام وهي يمنية مع الصمويل قائد المضرية لأبي الخطار اليمني والانتصار عليه. فإسناد إمارة الأندلس إلى ثوابه بن سلامة الجذامي اليمني بعد أن تحقق الانتصار ينفي أن الثورة سببها العصبية القبلية. إذ المتوقع حينئذ، أن يتولى الإمارة الأندلسية رجل من مضر ولكن ذلك لم يحدث. وهذه الظاهرة تبين لنا أن هناك أسباباً أخرى كان يدور من أجلها الصراع في الأندلس في هذه الفترة الحرجة، وأن كل فريق أو حزب كان يخوض الحرب لأنه يرى أن يولى الرجل الذي يطمئن إليه ويرتضيه ويحقق له مطالبه سواء كانت هذه المطالب تتعلق بالدين أو بالسياسة أو بالشرف والكرامة وسواء أكان الشخص يمينياً أو مضرياً^(٥٤).

وقد تمكن أبة الخطار من الفرار من أسره وتمكن من حشد جمع كبير من اليمنية لقتال المضرية وإسترجاع الإمارة وقدم إلى قرطبة فخرج إليه ثوابه بمن معه من اليمنيين والمضريين، ولكن جند أبي الخطار تفرقوا عنه، فانسحب أبو الخطار ولم يلبث أن توفي سنة ١٢٩هـ / ٧٤٨م.

وعقب وفاة ثوابة اشتعلت نار الفتنة من جديد وعادت الحرب إلى ما كانت عليه، حيث حرص اليمانيون على إعادة أبي الخطار إلى إمارة الأندلس ورفض ذلك المضريون بقيادة الصمويل بن حاتم وإستعرت نار الفتنة والقتال بين اليمينيين والمضريين أربعة أشهر على خلافة الأندلس حتى تولى عبد الرحمن بن كثير اللخمي من الفريقين.

آخر الولاة : يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

لما تفاقم الأمر وإشتد الخلاف خاف الزعماء من تطور الفتنة إلى أسوأ مما كانت عليه فاتفقوا على تولية يوسف بن عبد الرحمن الفهري المضري الإمارة في ربيع الثاني سنة ١٢٩هـ / ٧٤٨م لمدة عام يتولى بعده أمير من اليمانية. وهكذا تتبادل القبيلتان أو الحزبان الإمارة فيكون الحكم لكل منهما مدة عام. ولما إستقام الأمر ليوسف عزل يحيى بن حريث أحد الحكام اليمينيين، فغضب ودعا اليمينيين إلى الثورة معه وكاتب أبا الخطار فأجابه وحشدت جموع اليمانية التي تؤيدها وزحف على قرطبة مقر الحكم فخرج إليهما يوسف والصمويل في جموع المضرية والتقوا في مكان يعرف بـ "شقندة" قريباً من قرطبة سنة ١٣٠هـ / ٧٤٩م، ودارت رحى حرب ومعركة رهيبة إنتهت بهزيمة اليمانية وقتل فيها أبي الخطار وابن حريث وكثير من زعماء اليمانية وإستتب الأمر ليوسف الفهري بعد موقعة شقندة فرضى عنه جند اليمن والشام ومضر وعلا شأن الصمويل فخشي منه يوسف على إمارته فأسند إليه ولاية سرقسطة ليبعده عن الإمارة التي إضطربت شئونها، وزاد في إضطراب الأمور أحداث المشرق وأفريقية وسقوط الخلافة الموية في دمشق سنة ١٣٣هـ / ٧٥٢م وعجز سلطان العباسيين عن الوصول إلى أفريقية والأندلس آنذاك^(٥٥).

وقد وجه يوسف الفهري جهده إلى إصلاح شئون الإمارة بعد هذه الفتن التي مرت بها وأدت إلى ضعف السلطة المركزية لمحاولة إستقلال كثير من

العمال بولاياتهم، مما شجع النصاري في الولايات الشمالية إلى السعي لاسترجاع السلطة في أقاليمهم. وزاد الطين بلة حلول القحط بالأندلس لفترة زادت على أربع سنوات من ١٣١ - ١٣٥ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٤ م. مما حمل كثير من الناس على ترك الأندلس إلى أفريقية وخاصة الولايات الشمالية للأندلس؛ فكان ذلك مشجعاً للنصاري في الشمال على الاستقرار والاستقلال في البلاد التي رحلوا عنها^(٥٦).

ولكن ذلك لم يفت في عضد يوسف فأبدى همة عالية قاوم بها الصعاب والمحن وطاف بالأقاليم ينظر في شئونها ويقضى على الفوضى ويرد المظالم ويعزل الحكام الجائرين، ومهد الطرق ووأصلح نظام الضرائب وأمر بأن تجبى الضرائب عن الأحياء فقط وتسقط عن توفوا وأن تعدل السجلات تبعاً لذلك فأحبه كثير من النصاري لهذه الإصلاحات كما إهتم بالجيش وتدريبه وإصلاحه حتى يثبت سلطان إمارته. وقد وجه يوسف الفهري جيشاً إلى جنوب فرنسا بقيادة أحد أبنائه ليسترد هبة المسلمين ولكنه عاد دون أن يحقق الهدف الذي أرسل من أجله. وما نطن أن ذلك كان أمراً ممكناً إذا علمنا الثورات التي قامت في وجه يوسف الفهري وعمل على إخمادها. فقد ثار عليه عبد الرحمن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة، وأزنع الخروج إليه فلم يلبث إلا يسيراً حتى نال الله منه. وثار عليه عروة ابن الوليد بباجة وإتف حوله العرب والبربر وتحالف مع النصاري وتمكن من الإستيلاء على أشبيلية وإتسع نطاق ثورته فخرج إليه يوسف الفهري ودارت بينهما معارك إنتصر فيها يوسف وقتل عروة وكثير من أصحابه. وكان أشد الثورات وأخطرها ثورة تزعمها تميم بن سعيد وعامر بن عمرو بن وهيب الذي يقال أنه كاتل الخليفة أبا جعفر المنصور وطلب منه مرسوماً بإمارة الأندلس حتى يدعو له بالأندلس ويحكمها بإسمه وإنضم إليهما الحباب بن رواحه الزهري واجتمع عليهم كثير من المضرية واليمنية والبربر وإتجهوا إلى سرقسطة حيث كان الصمويل بن حاتم وضرباً عليه الحصار

ودارت معارك بينهما إنتهت بإنسحاب الصمويل من سرقسطة ووقوعها فى يد الثوار سنة ١٢٦هـ / ٧٥٣م. وأعلن عامر أنه أمير الأندلس حسبما إدعى انه تمت بموافقة الخليفة أبو جعفر المنصور وبسط سلطانه على ما حول سرقسطة فسار إليه يوسف فى سنة ١٢٨هـ / ٧٥٥م بجيش كبير أعده لذلك وتمكن من حصاره وهزيمته وقتله. وبذلك قضى يوسف الفهرى على كل الثورات التى قامت ضده فى الأندلس. ولكنه لم يكد ينتهى من ذلك حتى فوجئ بخطر جديد جاءه من المشرق فى مطلع ربيع الأول سنة ١٢٨هـ / ٧٥٥م وهو الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (الملقب بصقر قریش) الذى تمكن من إنتزاع الإمارة الأندلسية منه والإستقلال بها. وكان ذلك فى نهاية عهد الولاة^(٥٧).

أحوال بلاد الأندلس قبل قيام الدولة الأموية بها :

إذا كان الولاة الأول قد وجهوا جهودهم إلى متابعة الفتح فى جنوب فرنسا وقدموا الشهداء وحرصوا على الاحتفاظ بما فتحوه، فإن آخر عصر الولاة وما شاع فيه من الفتن والإضطرابات والثورات قد فقد المسلمون فيه تلك المناطق التى رووها بالكثير من دمائهم.

فبينما كان يوسف الفهرى يهم بالقضاء على هذه الثورات الضارية التى قامت ضده إغتتم الفرنج تلك الفرصة وإساولوا على أراضى ومدن سبتمانيا ولانجودك، وكانت ما تزال فى أيدى المسلمين فقد سار بيين بن شارل مارتيل سنة ١٢٥هـ / ٧٥٢م بجيش إلى لانجودك وإستولى على نيم وأفتت وماجلون وبيزیه وغيرها وخرب مساجدها وهدم مستشفياتها وقتل من فيها من المسلمين. ولم سجل المسلمون من هذه البلاد فى جنوب فرنسا فى سهولة فقد دافعوا عن كل شير فيها بدمائهم وقدموا الأبطال من شهدائهم.

ورغم عجز حكومة الأندلس آنذاك عن مساعدتهم فقد ظلوا ثلاثة أعوام يقاومون وينسحبون لعجزهم عن الصمود حتى لم يبق فى أيديهم سنة ١٢٨هـ /

٧٥٥م سوى مدينة أربونة التي وصل إليها بجيشه القوى وضرب عليها حصاراً طويلاً صمد له المسلمون طيلة أربعة أعوام. إذ أن أربونة كانت في حصانة ومنعة وصمم المسلمون على الدفاع عنها حتى آخر جندي وتمكنوا من رد كل هجمات العدو والمحاصر لهم مع عدم تحكم الحكومة المركزية من إمدادهم بما يحتاجونه. ولم يصلهم سوى بعض المؤن والإمدادات عن طريق البحر^(٥٨).

وأمام هذا الصمود الإسلامي، لجأ بيين إلى الخيانة والخديعة ووجد فرصته في سكان المدينة من القوط المسيحيين الذين أرهقهم طول الحصار فاتفقوا معه على الغدر بالمسلمين ومساعدته جيشه على أن يكونوا مستقلين في بلدتهم وتكون لهم إدارة أمورهم بحسب قوانين القوط وأعطاهم بيين الموائيق والعهود على ذلك فاتفقوا ووافقوا. وتم ذلك في غفلة من المسلمين وإذ بالثورة تشتعل ضرامها في داخل المدينة وينقص بعض القوط على حراس الأبواب فيفتحوها ويقتلوا المسلمين؛ ويتدفق جيش الفرنج على المدينة ويعمل الفرنج سيوفهم في رقاب المسلمين رجالاً ونساءً وأطفالاً، ويهدموا مساجدها ويدكوا معالمها وذلك سنة ١٤٢هـ / ٧٥٩م. فكان ذلك إيذاناً بسقوط آخر معقل للمسلمين فيما وراء جبال البرنية (البرانس) بعد وجود دام قرابة نصف قرن وأبقى الملك بيين جيشاً كبيراً لحراسة البلاد^(٥٩).

وبناء على ما تقدم استغل نصارى الأندلس من القوط الحالة المزريّة التي تعرض لها المسلمون واتفقوا حول زعيمهم "بلاي" في جيليقية وما حولها من المدن وتمكنوا من إقامة إمارة يبسطون منها سلطانهم على بلاد المسلمين في الشمال، وساعدهم القحط الذي حل بالأندلس في سنة ١٣١هـ واستمر أربع سنوات - كما ذكرنا - وجعل المسلمون يجلبون عن تلك البلاد وتغلوا في الأراضي الإسلامية فاستولوا على أسترقة وغيرها من البلاد ولم ينته عصر الولاة حتى كانت تلك الولاية شركة قوية تنغص على المسلمين حياتهم نفاق

وجودهم في الشمال، وأخذت تعمل بلك ما تملك لطرد المسلمين والإستيلاء على البلاد منهم^(٦٠).

على أنه يجب أن نلفت النظر هنا، أن أحداثاً قد وقعت في بلاد الأندلس، وكانت لها نتائج خطيرة على مستقبل المسلمين في الأندلس منها: أن السماح بمن ماله ومن جاء بعده من الولاة الذين خاضوا الحروب في فرنسا ربما قد خانهم الصواب في التخطيط لها بدقة ومهارة كما ينبغي. فلم يلتق الجيش الإسلامي بجيش العدو في موقعة من المواقع إلا بعد أن يكون الجيش الإسلامي قد خاض بعض الحروب التي قد أنهكت قواه وترك بعض الحاميات منه في النواحي التي استولوا عليها، ثم أصبح مشغولاً بالغنائم التي حصلوا عليها؛ وكل ذلك كان ذا تأثير سيء في القوة التي يتمتع بها الجيش الإسلامي.

ولعل الوضع السليم كان يتمثل في أن يعد الجيش لخوض غمار القتال في المعارك الكبيرة مثل الموقعة التي وقعت عند طلوشة وموقعة بلاط الشهداء. ثم يرسل القائد سرايا لفتح البلاد المجاورة والإستيلاء عليها.

ولا شك أن المسلمين كانوا يملكون جيشاً احتياطياً كبيراً إذا نظرنا إلى امتداد رقعة البلاد الإسلامية في الأندلس وحتى دمشق ومن دمشق إلى السند في الهند. كما يجب أن نشير هنا إلى أن العرب وحدهم لم يكن لهم من القوة ما يمكنهم من التوسع والمد على هذا النحو في الشرق والغرب بل يجب ألا نبخس للعناصر غير العربية حقوقهم وفضلهم في هذا الفتح. إذ أن الجنس الفارسي في آسيا والبربر في شمال أفريقيا كان لهما فضل كبير إلى جانب العرب في عملية الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً. ولم يكن بإمكان العرب وحدهم التوسع في الشرق أو الغرب دون الاعتماد على أصحاب البلاد المفتوحة في تحقيق ذلك^(٦١).

يضاف إلى ذلك القيادة التي قد أرسى قواعدها النبي العظيم محمد صلوات الله وسلامه عليه في خوض تلك المعارك والحروب بأكثر من قرن من

الزمان. وذلك عندما ترك خلفاء ضربوا أروع المثل في التضحية والفداء والطاعة والتواضع أيضاً.

مثال ذلك ما حدث في مؤتة في بلاد الشام حيث كان هناك قائداً أعلى بطيعة من هم دونه. فكان ذلك درساً واضحاً أمام المسلمين للسير على نهجه في فتوحاتهم المقبلة. ولما خالف ذلك بعض القواد في أفريقية والآنسلس، تعرض الجيش الإسلامي في معظم معاركه للخسارة، إذ أن القيادة العليا هنا لم تكن على غرار أسلافهم الذين إلتزموا بأوامر النبي الكريم.

ومع ذلك فإننا نرى أن العيون أو الجواسيس التي كان يرسلها القائد للوقوف على أحوال العدو وإستطلاع حقيقته ربما كانت تخطئ التقدير في غالب الأحوال، وبالتالي لم يكن بمقدور القيادة الإسلامية هنا تحديد كيفية إدارة المعارك على نحو سليم^(٦٢).

ولذلك كان أخذ المسلمين على غرة قبل الوصول إلى الدرجة المطلوبة في الإستعداد. وبالتالي لم تكن النتيجة في صالحهم عند اللقاء. وغالباً ما كان يقتل القائد الأعلى هنا.

وإذا أضفنا إلى ذلك عامل الطبيعة التي لم يكن للمسلمين دراية بها من حيث وجود أراضي تنقطعها النهار أو جبال وعرة صعبة المراس، كان يصعب على المسلمين في غالب الأحيان تحديد المكان المناسب لإدارة المعركة ولقاء العدو فيها. بينما كان العكس في صالح العدو الذي كان على معرفة ودراية كاملة بكل سهوله ودروبه وجباله، إذ كان يستدرج الجيش الإسلامي في المكان المناسب له - أي للعدو - .

ومثل هذه الأحوال هي التي حالت دون تقدم المسلمين بعد معركة بلاط الشهداء في مواصلة الفتح.

ولا شك أن انفصال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية كان أكبر عامل في إيقاف مواصلة الفتح في أوروبا. ويدل ذلك على تمكن المسلمين من مواصلة الفتح في شمال أفريقية وحوض البحر المتوسط والإستيلاء على صقلية بعد حوالي قرن من الزمن، وكانت القيادة الفاتحة هنا تابعة للخلافة المركزية في بغداد، وهو بخلاف الوضع في الأندلس الذي آل إلى القائم على شمال أفريقية.

وإذا كان هناك رأى يقول: بأن كثرة الولاة في الأندلس وتعاقبهم قد جعل المسلمين لا يبذلون جهوداً في مواصلة الفتح، فإن ذلك غير صحيح، لأن ما حققه المسلمون في شمال أفريقية والأندلس والجنوب الفرنسي كان أشبه بالأسطورة التي أذهلت الأوروبيين أنفسهم، وأن التضحية والجهاد الإسلامي الذي أدى إلى السيطرة على شبه الجزيرة الأسبانية دليل على نحض هذه الفكرة.

وبذلك نخلص إلى عهد الولاة في الأندلس وجنوب فرنسا في جبال البرانس إسم بأنه كان أكثر جدية بإستثناء الحالات الفردية العصبية التي وقعت هناك، وهي بلا شك كان لها دور في شغل المسلمين عن مواصلة الفتح تجاه الشمال ولكن كان غالباً ما يمكن التغلب عليها: وإن كان قد ترتب عليها آثار سلبية وخطيرة بالنسبة لمستقبل المسلمين في بلاد الأندلس^(٦٣).

هوامش الفصل الأول :

- (١) لين بول: العرب في أسبانيا، ص ٥٧ - ٥٨.
- (2) - Camp. Med. Hist. vol. 3, p. 309.
- (٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٧ - ٣٩.
- (٤) نفسه، نفس المصدر والجزء والصفحات.
- (5) - Diehl, Marcais; Le Monde Orient. pp. 360- 361.
- (٦) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص ١٧ - ١٩، ط. الابياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٢م.
- (7) - Camp. Med. Hist. vol. 2, pp. 303- 304.
- (٨) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٩.
- (٩) عبد اللطيف عبد الهادي السيد (دكتور)، موسوعة التاريخ الاسلامي، ج ٤، إقرأ ما يتعلق بعمر بن عبد العزيز.
- (١٠) المؤرخ، رؤية من خلال متابعة الأحداث والتاريخ الإسلامي.
- (١١) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص ٢١ - ٢٣.
- (١٢) ابن عذاري، المصدر السابق، ج ١، ص ٤١ - ٤٢.
- (13) A. History of Medieval Spain, I Thae and London; 1975, pp. 112- 113.
- (١٤) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، أنظر ما يتعلق بالفتوحات الإسلامية، والفصل الخاص "ب عصر الولاة".
- (١٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٧ - ١٨ وما بعدهما.

(١٦) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٣، ص ١١٢، وراجع أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، (عصر الولاة فى الأندلس).

(17) - Dozy, R; Histoire des musulmans D'Espagne, to. 9, Leyde, 1932; pp. 13- 15.

(١٨) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٢٧، وراجع: العبادى، المرجع السابق (عصر الولاة فى الأندلس).

(١٩) الحميدى، جذوة المقتبس، ص ٢٣ - ٢٥، وراجع :

- Dozy R., op. cit. tom. 9, pp. 17- 18.

(٢٠) عن عصر الولاة فى الأندلس، أنظر: ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، جـ ٣، ص ١٢٥ وما بعدها ٣. وراجع: ابن بسام، الذخيرة، القسم الثانى، المجلد الأول، ص ١٤ وما بعدها.

(٢١) ابن عذارى، المصدر السابق، جـ ٢، ص ١٧٠ وما بعدها.

(٢٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات، وراجع: ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، م/٣، ص ١٩٨٥م.

(٢٣) ابن الأثير، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٧٠، وراجع:

- Dozy; op. cit. tome; 9, pp. 19- 20.

(٢٤) ابن القطان؛ نظم الجمان، ص ٢١٣، وأنظر أيضاً: النباهى، المرقبة، ص ٩٧ - ٩٩، وراجع: ابن عذارى: المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٤.

(25) - Gaspar Remiro, Murcia musulmana, pp. 157- 158. and see also; Huici Miranda, A; Historia musulmana de Ralencia, t. III, pp. 100- 103.

(٢٦) أحمد مختار العبادى، المرجع السابق، (عصر الولاة فى الأندلس).

(27) - Dozy, R; op. cit, t., 9, pp. 113- 114.

(٢٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٥١٧-٥٢٩.

(29) - Comp. Med. Hist. vol. 3, p. 309.

وراجع أيضاً، سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥١٧ وما بعدها.

(30) - Comp. Med. Hist. vol. 3, p. 309- 310.

(32) Diehl, Marcais, Le Monde Orientalis, p. 396.

(32) Cam. op. cit. p. 309.

وراجع أيضاً، سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥١٧ وما بعدها.

(٣٣) ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٤٠، وراجع عاشور، المرجع السابق، والصفحات.

(٣٤) ابن القطان، نظم الجمان، ص ٢١٧. وابن عذاري، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٣٥) ابن القوطية، إفتتاح الأندلس، ص ٧٥، أخبار مجموعة، ص ٤٧.

(٣٦) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٤٥ - ٢٥٠.

(٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، نفس الصفحات.

(٣٨) ابن عذاري، المصدر السابق، جـ ٣، ص ١٥٦ - ١٥٧، وراجع :
- Gaspar Remiro, op. cit., p. 142.

(٣٩) ابن خلدون ، المقدمة، ص ٨٠٥ - ٨٠٦، وراجع النباهي، المرقبة العليا، ص ٧-٨.

(٤٠) ابن خلدون، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(٤١) ابن قوطية القرطبي، تاريخ إفتتاح الأندلس، نشر دون غليان ويبرا، ومريد ١٩٢٦م، ص ٣٧ - ٣٩.

- (٤٢) نفسه، نفس المصدر والصفحات.
- (٤٣) ابن عذارى، المصدر السابق، ص ٥٧ - ٥٨ وما بعدهما.
- (٤٤) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس (عصر الولاية فى الأندلس).
- (٤٥) نفسه، نفس التاريخ والصفحات، وراجع: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبيارى، دار الكتاب المصرى، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٩٣ - ١٩٥.
- (٤٦) أخبار مجموعة، المرجع السابق، ص ١٩٦؛ وراجع ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٧ وما بعدها.
- (٤٧) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، أنظر ما يتعلق بمراحل الفتح فى الأندلس.
- (48) - Camp. Med. History, vol. 3, pp. 309- 311.
- وراجع: سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥١٧ وما بعدها.
- (٤٩) حسن على حسن، الحضارة الإسلامية فى الأندلس على عصر الموحدين، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٥٧ - ٥٩. وراجع كتابى "موسوعة التاريخ الإسلامى" ج ٩، ١٠، الاسكندرية، ط/١، ٢٠١٠م.
- (٥٠) ابن القوطية؛ إفتتاح الأندلس، ص ٤٧ - ٤٨ وما بعدهما، وراجع ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٤٧.
- (٥١) ابن حيان، المقتبس، تحقيق محمود على مكى، ص ٢٨ - ٣٠. وراجع: مؤلف مجهول، مجموعة فى فتح الأندلس، ص ١١٤ - ١١٥.
- (٥٢) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص ١١٨ - ١١٩، وأنظر: ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الثانى،

تحقيق كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة ببيروت، بدون تاريخ،
ص ٦٥ - ٦٦.

(٥٣) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، ص ١٢١ - ١٢٢.

(54) Mahmud Makki, Ensayo sobre las aportaciones orientales en la España Musulmana, icos en Madrid, V. IX-X, Madrid, 1961, pp. 129- 154.

(٥٥) المقرئ؛ نفح الطيب من غص الأندلس الرطيب، الأندلس، المجلد الثانى،
بيروت (ب - ت)، ص ٤٣ - ٤٥.

(٥٦) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الإبيارى،
القاهرة، ١٩٨١، ص ١٢٧ - ١٢٩.

(٥٧) مؤلف مجهول، المصدر السابق، نفس الصفحات، وأنظر: ابن القوطية،
المصدر السابق، ٤٦ - ٤٧، وراجع: ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٢،
ص ٧٥ - ٧٧.

(٥٨) محمد بن عبد الله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول، الطبعة
الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩م، ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٥٩) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين فى الأندلس، ص ٢٢٢ - ٢٢٣،
وراجع: أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٢٨ -
١٢٩ وما بعدها.

(٦٠) السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٢٢٥ وما بعدها، وراجع:
العبادى، المرجع السابق، ص ١٣٠ وما بعدها.

(٦١) ابن عذارى، المصدر السابق، ج ٢، ص ٧٩.

(٦٢) كمال السيد محمد أبو مصطفى، تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية حتى سقوطها في أيدي المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة، آداب الإسكندرية، ١٩٨١م، ص ١١٧ وما بعدها.

(٦٣) نفس المرجع والصفحات.

الفصل الثاني

قيام الدولة الأموية في الأندلس

(عصر الإمارة)

- سقوط الدولة الأموية في دمشق .
- هروب عبد الرحمن بن معاوية إلى أفرنجية .
- عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس .
- عبد الرحمن الداخل وإحياء الدولة الأموية في الأندلس
- الصعوبات التي واجهت عبد الرحمن وكيف تغلب عليها :
- ١ - موقعة المصارة والإستيلاء على قرطبة .
- ٢ - قضاء عبد الرحمن بن معاوية على كل من يوسف الفهري والصمويل .
- ٣ - موقف عبد الرحمن من ثوار العرب والبربر والأقارب .
- ٤ - موقف عبد الرحمن من الأمراء التي تخاك له في الداخل والخارج .
- عبد الرحمن بن معاوية وإصلاحاته الداخلية .
- أمراء الأندلس من بني أمية بعد عبد الرحمن بن معاوية .

– سقوط الدولة الأمية في دمشق :

في سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩م تمكن العباسيون من اسقاط النظام الأموي في دمشق وقيام الخلافة العباسية في بغداد واتخاذها حاضرة لها بدلا من دمشق، واضطر آخر الخلفاء الأمويين إلى التوجه نحو نهر الزاب (مروان بن محمد)، ولكنه لم يتمكن من مواجهة العباسيين وفرّ هارباً يتبعه الجيش العباسي في بلاد الشام وفلسطين فمصر حيث لقي حتفه هناك. وبذلك تنتهي الخلافة الأموية في المشرق في ١١ من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ / ٧٤٩م . وحاول العباسيون متابعة أفراد البيت الأموي في كل مكان للقضاء عليه نهائياً. ولكن واحد من الأمويين يدعى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن مناف تمكن من أن ينجو بنفسه ويصل متخفياً إلى مصر ثم شمال أفريقية حتى وصل بلاد المغرب ليقوم فيها ثم ينتقل إلى الأندلس ويقيم دولة .

ويشير بن عذارى أن اتصال دولة بني أمية في المشرق لم ينقطع عنها في المغرب إلى سنة ٤٢٤ هـ / ١٠٤١م. غير أن هذا الرأي غير صحيح ذلك أنه يمكن أن تكون الدولة الأموية في المشرق والمغرب متصلة لو أن يوسف بن عبد الرحمن الفهري إنقاد لعبد الرحمن بن معاوية عند وصوله إلى الأندلس وسلم إليه إمارة الأندلس دون أن ينازعه عليها حتى تراق الدماء بينهما. ولكن الحرب التي قامت بينهما تدل على أن الدولة الأموية في المشرق قد انتهت؛ وأن عبد الرحمن بن معاوية قد استطاع بمجهوده الشاق أن يعيدها في الأندلس بعد ست سنوات من إنتهائها في المشرق .

لذلك نجد أن محمد بن حزم يذكر انتهاء الدولة الأموية في المشرق بمروان بن محمد، ويصفها بأنها كانت دولة عربية لم يتخذ ملوكها قاعدة لأنفسهم وإنما كان يسكن كل أمير في داره وضيعته اللتان كانتا له قبل الخلافة،

وأنهم لم يطلبوا مخاطبة الناس بالعبودية لهم والملك ولا تقبيل الأيد أو الأرض تحت أرجلهم إنما كان غرضهم الطاعة الصحيحة؛ والتولية والعزل في أقاصى بلاد الدنيا، فكانوا يعزلون العمال ويولون غيرهم في السند والهند وفي خراسان وأرمينية وفي العراق واليمن والمغرب الأدنى والأقصى وبلاد السوس وبلاد الأندلس، وبعثوا إليها الجيوش وولوا عليها من ارتضوا من العمال وملكوا أكثر الدنيا فلم يملك أحد من الملوك الدنيا ما ملوكوه من الأرض إلى أن تغلب عليهم بنو العباس في المشرق وانقطع بها ملكهم. فابن حزم يذكر انقطاع ملكهم وهو الرأي الذى أميل إليه^(١).

ولكن كيف انتهت الدولة الأموية في المشرق بسرعة وهى تتصف بهذه الصفات القوية التى يذكرها بن حزم، وأن عصر هذه الدولة يمثل العصر الذهبى فى تاريخ الاسلام قاطبة .

وهنا نجد أنها مع تمتعها بهذه الصفات القوية فى سلطانها فإن هناك أيضاً عوامل فساد قوية استطاعت أن تهدم هذا الصرح القوى المتراكم الأطراف .

فمن تلك الظروف التى قامت فيها الدولة الأموية والآثار الدينية والمعنوية التى أثارته السياسة الأموية فى أنحاء الدولة الإسلامية بالحد من مبدأ الشورى الذى هو من أهم مبادئ وأسس الدين الإسلامى .

يضاف إلى ذلك، الصراع الذى قام بين الأمويين وبين العلويين، وأدى مقتل الحسين بن على وكثير من آل بيته فى كربلاء سنة ٦١ هـ. ثم الحرب التى قامت بين الأمويين وعبدالله بن الزبير استنفذت كثيراً من قوة الدولة وشبابها .

كما كانت لثورات الخوارج المتعددة والمنتشرة فى أنحاء الخلافة فى المشرق والمغرب أكبر الأثر فى ضعف وانهاك الدولة وتشتت قواها .

هذا بالإضافة إلى اضطرام العصبية بين القبائل المغربية ثم شيوع التنافس بين العرب وغيرهم من أبناء البلاد المفتوحة مع عدم الالتزام في غالبية الوقت بتحقيق مبدأ العدالة التي ينشدها الإسلام. كل هذه العوامل تضافرت في ضعف الدولة الأموية ثم انهيارها بسرعة^(٢).

هذا إلى جانب تصارع البيت الأموي نفسه في داخله على السلطة، فقد كانت من العوامل القوية التي شغلت الخلفاء عن مواجهة الخطر العباسي لها.

فقد مكنت كل هذه العوامل السابقة العباسيين من أن يخططوا ويدبروا في كتمان وسريّة تامة مستغلين الأسباب والعوامل السابقة في بعضها أو جميعها، متخذين من بعض الأعوان والأنصار من أمثال أبو مسلم الخراساني الذي اعتبره من وجهة نظرنا صاحب الفضل الأول في قيام الدولة العباسية خاصة في إقليم خراسان، والذي تنكر له العباسيون فيما بعد بل ودبروا أمر قتله بتدبير من أبي جعفر المنصور. وعلى هذا قامت الدولة العباسية على أكتاف الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ.

لهروب عبد الرحمن بن معاوية إلى أفرنجية :

بعد زوال الدولة الأموية على أيدي العباسيين سنة ١٣٢هـ — حاولوا القضاء على آخر خليفة أموي ليقطعوا دابر الأمويين وكان هذا الخليفة هو مروان بن محمد، وبذلك يضمنوا عدم إثارة الشغب ضدهم. فيذكر المؤرخون أنهم — أي العباسيون — أخذوا يقتلون كل من يقع في أيديهم، مما حمل أفراد البيت الأموي على التخفي والهرب^(٣).

وكان ممن تمكن من الفرار والهرب من البيت الأموي عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. ومعظم المؤرخين القدامى والمحدثين يذكرون قصة هروب عبد الرحمن هذا بصورة أسطورية. كما يذكرون نبوءات

تدور حول أنه سيجد ملك بنى أمية في المغرب. وسوف أورد رواية صاحب أخبار مجموعة التي يوردها على لسان عبد الرحمن بن معاوية عن هذا الأمر ثم أعلق عليها بالنسبة لهروبه والنبوة بمستقبله يقول: أخبرني من سمع عبد الرحمن بن معاوية يحدث طائفة من بدو حديث هربه قال: لما أمانا وشاع ذلك ركبنا متنزها فوقهم وأنا غائب فرجعت إلى منزلي فنظرت فيما يصلح أهلي ويصلحني وخرجت حتى صرت في قرية على الفرات ذات شجر وغياض وأنا والله ما أريد إلا المغرب وكنت قد بلغني رواية كان والدي رحمه الله قد هلك في زمن جدي رحمه الله كنت صبياً إذ هلك فأقبلت وأخوتني إلى الرصافة إلى جدي مسلمة بن عبد الملك رحمه الله ولم يمت بعد فنحن وقوف ببابه على دوابنا إذ سأل مسلمة عنا فقيل أيتام معاوية فأغرورقت عيناه بالدمع ثم دعا بنا الإثنين فالإثنين فأقبل يدعونا حتى قدمت إليه فأخذني وقبلني ثم قال لقيم هاته وأنزلني عن دابتي وجعلني عن أمامه وجعل يقبلني ويبكي بكاءً شديداً فلم يدع بعد من كان أصغر من أخواتي وشغل بي فلم يفارقني فأنا أمامه على سرجه حتى خرج جدي فلما رآه قال ما هذا يا أبا سعيد فقال بنى لأبي المغيرة رحمه الله ثم دنا من جدي فقال له تداني الأمر وهو هذا قال أهو؟ قال: أي والله قد عرفت العلامات والأمارات بوجهه وعنقه. قال ثم دعا القيم فدفعته إليه وأنا بن عشر سنين يومئذ أو نحوها فكان جدي رحمه الله يؤثرني ويتعاهدني بالصلة والبعثة التي في كل شهر وكنا بكورة قنشرين بيننا وبينه مسيرة يوم حتى مات مسلمة أبو سعيد قبله لسنين فكانت تلك في نفسي مع أشياء كانت تذكر فإني لجالس في القرية كنا فيها ولم يبلغنا بعد إقبال المسودة (السودة) فكنت في ظلمة البيت وأنا أرمد شديد الرمء ومعى خرقة سوداء أمسح بها قذا عيني والصبى سليمان - أي ابنه - يلعب وهو ابن أربع سنين أو نحوها إذ دخل من باب البيت فترامى في حجرى فدفعته لما كان إلى ثم ترامى وجعل يقول لي ما يقول الصبيبان عند الفزع قال فخرجت فإذا أنا برايات مطلة فلم يرعنى إلا دخول أخى فلان فقال يا أخى رأيت السودة

وكننت لما فعل بى الصبى ما فعل قد خرجت فرأيتهم فلم أدرك شيئاً أكثر من دنائير تناولتها ثم خرجت أنا والصبى أخى وأعلمت أخواتى أم الأصبع وأمه عبد الرحمن بتوجهى وأمرتها أن يلحقنى غلامى بما يصلحنى إن سلمت فخرجت حتى اندست فى موضع ناء عن القرية وأقبلوا فأحاطوا بالقرية ثم بالدار فلم يجدوا أثراً ومضينا حتى لحقنى بدر ثم خرجت حتى آتيت رجلاً على شاطئ الفرات وأمرته أن يبتاع لى دواباً وما يصلحنى فأنا أرقب ذلك إذ خرج عبد له أو مولى فدل علينا العامل فأقبل إلينا فوالله ماراعنا إلا بجلبة الخيل إلينا فى القرية فخرجنا نشدد على أرجلنا وأبصرتنا الخيل فدخلينا بين أجنة على الفرات واستدارت الخيل فخرجنا وقد أحاطت بالأجنة فتتادرننا وسبقناها إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا. ارجعا لا بأس عليكما فسبحت وسبح الغلام أخى فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات فالتفت لأرق وأصيح عليه ليلحقنى فإذا هو والله لما سمع تأمينهم إياه وعجل خاف الغرق فهرب من الغرق إلى الموت فناديتته أقبل يا حبيبى إلىّ فلم يأنن الله بسماعى فمضى ومضيت حتى عبرت الفرات وهم بعضهم بالتجرد ليسبح فى أثرى ثم بدا لهم وأخذوا الصبى فضربت رقبتة وأنا أنظر وهو ابن ثلاث عشرة سنة رحمه الله. ثم مضيت. فهذا حديثه رحمه الله^(٤).

تلك هى القصة التى ذكرتها المصادر القديمة ورددتها المراجع الحديثة للمؤرخين المسلمين والمستشرقين وهم يحرصون على ذلك كل الحرص .

كان هروب عبد الرحمن بن معاوية من الشام إلى المغرب ثم الأندلس أمر واقع ولا شك فيه، ولكن ما نسج حوله من قصة الهرب التى ذكرناها بطلب خيل العباسيين له وأنهم عثروا عليه فألقى بنفسه فى نهر الفرات وسبح حتى عبر إلى الشاطئ الآخر. وأن أخاه كان معه. فعندما سمع الأمان المقدم إليه وعجز عن السباحة عاد إليهم فكان نصيبه القتل على رأى من عبد الرحمن الذى كان قد وصل إلى الضفة الأخرى. فذلك أمر يدعو إلى الريبة والشك فى

للصورة التي نسجتها القصة حول الهرب. لأن حرصهم على القبض عليه يدعوهم إلى أن يؤخروا قتل أخيه أمام عينيه حتى يطمئن إليهم ليقضوا عليه. كما كان من الممكن أن يعبر خلف عبد الرحمن من يريد القبض عليه خاصة وهو عار ولا يحمل سلاحاً. كما أن اختفائه بعد خروجه من النهر أمر صعب عليه يسهل مهمة القبض عليه. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ولم يفكر فيه مما يدعو إلى الشك في حادث وقصة الهرب بهذه الصورة التي يصر المؤرخون عليها. ولذلك نجد ابن قتيبة لا يشير إلى شيء من هذا القبيل وإنما يقول: إن عبد الرحمن ولى ذاهباً وخرج لا يدرى متى خرج فلحق بالمغرب. أى أن خروجه وهروبه كان في سرية وكتمان شديدين، ولم يعلم به أحداً. ويقول ابن عذارى: خرج متخفياً من موضع إلى موضع وهمه الأندلس^(٥).

ومن المثير للدهشة أيضاً؛ أن المؤرخين يصرون على الإشارة إلى قرب زوال الدولة الأموية، والبشارة بأن بعد الرحمن بن معاوية هو محى دولتهم في المغرب. وكان كل شيء يحدث في الدولة الإسلامية يقترب بنبوءة من النبوءات ولولا ذلك ما كان هناك تحرك ذاتي وأنه لولا هذه البراءة ما حرص عبد الرحمن بن معاوية على أن يقوم بما قام به وهو أمر غير مقبول. لأن العزيمة والصبر والحكمة والإصرار وتحدي الصعاب الذي كان يتحلى به عبد الرحمن هو الذي مكنه من الوصول إلى ما وصل إليه من تأسيس دولة أموية بالأندلس. وعلى هذا يجب أن ننقى تاريخنا من تلك الشوائب العالقة به حتى يكون هناك تاريخاً أقرب إلى الصواب منه إلى الأساطير والخرافات^(٦).

على أية حال تمكن عبد الرحمن بن معاوية من أن ينجو من تعقب بنو العباس للبيت الأموي ويصل إلى فلسطين فمصر حيث لحق به مولاه بدر وسالم مولى شقيقته وكانا يحملان مالاً وجواهر أرسلته إليه أخته أم الأصبع وقد توجه بذلك إلى برقة ونزل على أخواله من نقرة وهم من بربر طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى "راح" وكان يحكم أفريقية وقتذاك عبد الرحمن بن حبيب

الفهرى الذى سبق أن تحدثنا عنه فى ولاية إفريقية. وقد ثار الفهرى على حنظلة بن صفوان حتى رحل عن إفريقية وقدم الفهرى طاعته للأمويين ثم العباسيين عند قيام دولتهم وحاول أن يقوم بأفريقية مستقلاً تحت هذه الطاعة الإسمية. ولذلك نراه يتتبع الأمويين الذين لجئوا إلى إفريقية هرباً من العباسيين فقتل بعضهم وهما ولدا الوليد بن يزيد. كما تتبّع بقية الأمويين ليقضى عليهم حتى يأمن خطرهم الذى يحذوه وهو محاولتهم الثورة عليه وأخذ إفريقية منه لأنهم أصحاب ملك، سيعملون على استرجاعه أو إحياءه فى منطقة من مناطق دولتهم المسلوبة^(٧).

ويعود المؤرخون فيذكرون نبوءة أخرى على لسان يهودى له بأن معاوية سوف يملك إفريقية. وهكذا يحاولون أن يجعلوا أحداث التاريخ الإسلامى قائمة على النبوءات وذلك بعيداً كل البعد عن حقيقة التاريخ الإسلامى الذى يربى أبناءه على أن الغيب لا يعرفه إلا الله وحده سبحانه وتعالى، مما يجعلنا نميل إلى الروايات التى تتعلق بالنبوءات، روايات ملفقة ولا أساس لها من الصحة. وربما الذين يقومون بها يحاولون الوصول إلى مآرب يتطلعون إليه فى المستقبل عندما تقوم الدولة الأموية؛ فهم أصحاب أغراض وأطماع شخصية بطبيعة الحال^(٨).

وعلى العموم حاول عبد الرحمن بن معاوية أن يبتعد عن هذا السوالى الذى يتتبع الأمويين فأخذ ينتقل من قبيلة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر. فيذكرون أنه ذهب إلى موضع يقال له "بارى" فى بلاد المغرب، فنزل فى قبيلة مكناسة وقد أصابه حينئذ بعض الضيق. وقيل أنه نزل فى قبيلة "مغيلة" عند شيخ من رؤساء البربر يدعى وأنوس فعملوا على تفتيش منزله ولكن زوجة الشيخ البربرية عملت على إخفائه عنهم بحيلة ما. ولكن ليس بالضرورة الذى يذكرها المؤرخون من أنها خبائه تحت ثيابها لأن ذلك غير ممكن بالنسبة لرجل جاوز العشرين من عمره. وقد أحس عبد الرحمن وأنوس وزوجته بعد أن صار أميراً للأندلس. ويابى المؤرخ "المقرئ" إلا أن يورد طرفة عن الهيئة التى ذكرها

لإخفاء بعد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك آنذاك فيذكر: أن عبد الرحمن قال لتكفأت - أى زوجة الشيخ - مداعيا حين استظلت بظله فى الأندلس بعد ن صار أميراً لقد عذبتى ... فتكفأت على ما كان بى من الخوف ... فكان جوابها له بسرعة. بل ذلك كان والله يا سيدى منك ... فاستظرف جوابها وأغضى من مواجهتها بمثل ذلك وهذا من آفات المزاح^(٩).

ويذكر ان الأثير وابن خلدون والمقرئ أنه عندما اشتد عبد الرحمن عامل أفريقية فى طلبه أتى مكناسة فلقى عندهم شدة، ثم هرب من عندهم فأتى نقرارة وهم أخواله، وقيل أتى قوماً من الزناتيين فأحسنوا قبوله وأطمأن فيهم ثم لحق بمليلة وأخذ فى تدبير المكاتبه إلى الأمويين من أهل الأندلس^(١٠).

تلك هى الأماكن التى تردد عليها عبد الرحمن بن معاوية خلال فترة إقامته فى أفريقية. ويخطئ "توزى" عندما يقول: أنه لاذ حيناً آخر ببلاط بنى رستم ملوك تاهرت لأن الدولة الرستمية لم تكن قد قامت بعد فكيف يلوذ بها.

عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس :

مكث عبد الرحمن بن معاوية يتنقل فى أفريقية خمس سنوات لقى فيها كبير عنت. ولكن عبد الرحمن الفهرى حاكم أفريقية الذى كان يطارده لم يستطع أن يقبض عليه. وقد نزل عبد الرحمن بن معاوية أخيراً عند قوم من زناته على شاطئ البحر قرب سبتة. وكان أثناء إقامته فى أفريقية يتطلع إلى الأندلس ويدرس أحوالها وأخبارها ويرقب فرص العبور إليها .

كانت الأندلس فى ذلك الوقت يسودها الاضطراب بسبب الفتن والعصبيات القبلية بين المضرية واليمنية. ورأى عبد الرحمن بن معاوية هذا أن يستغل الوضع القائم بالأندلس بأن يحذب بعضهم ليؤيدوه حتى يصل إلى تحقيق ما يريد ومن إقامة الدولة الأموية فى الأندلس. فأرسل مولاة بكتاب فى أواخر

سنة ١٣٦هـ/ ٧٥٣ م إلى موالى بنى أمية فى الأندلس فنزل بدر بقرية طوش من ساحل البيرة. وكانت منزل جند الشام ويجتمع فيها موالى بنى أمية. وكانت رياستهم إلى أبى عثمان عبد الله بن عثمان وصهره عبد الله بن خالد فاجتمع بدر بهما وقم إليهما كتاب عبد الرحمن، ويشكو فيه ما إبتلوا به ويعظم عليهم حقه ونزوعه إليهم وما صنع به ابن حبيب ويقومه بأفريقية ويعلمهم أنه إن دخل يوسف لم يأمنه ويعرض أنه إنما يريد الاعتزاز بهم وأن يمنعوه وأن تهياً لهم ما فيه طلب السلطان الأندلسى أن يعلموه^(١١).

وقد نشط موالى الأمويين لهذا الأمر واستشاروا الصمويل زعيم القيسية فى معاونة عبد الرحمن بن معاوية وتأييده. ولكن الصمويل بعد أن استجاب لنصرة عبد الرحمن عاد فأبدى تردداً وفتوراً واقترح أن يتزوج عبد الرحمن من ابنة يوسف وأن ينزل آمناً فى ظله ثم صرفهما. وقال: إن عبد الرحمن من نسل قوم لو بال أحدهم فى هذه الجزيرة لغرقنا فى بوله ولكن ستر الله عليكما وعلى مولاكما.

عمل موالى بنى أمية بعد أن ينشوا من مساعدة مضر وربيعة على دعوة اليمانية لمناصرة عبد الرحمن بن معاوية فوجد اليمانيون الفرصة لأخذ ثأرهم من المضرية الذين انتصروا عليهم فى موقعة "شقندة" وليستردوا مكانتهم التى فقدوها فرحبوا باستقبال الأمير الأموى وأبدوا استعدادهم لمناصرته. وكان من الزعماء اليمانيين الذين استجابوا لذلك أبو الصباح اليحصبى شيخ اليمانية فى غرب الأندلس ومسكنه قرية مورة. وعلقمة بن غياث اللخمى. وأما علاقة الجذامى وزيد بن عمر الجذامى جد بن زياد الشذونية وكانوا رؤساء الشاميين بشذونة ومنهم رؤساء القحطانيين بالبيرة وجيان مثل جد بنى أضحى الهمذاني وجد بنى حسان وبنى عمر الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان كما انضم إليهم الحصين بن الدجين العقيلي للتباعد الذى كان بينه وبين الصمويل بن حاتم، ولم يمل من المضرية إلى عبد الرحمن بن معاوية غيره^(١٢).

عندئذ طلب موالى الأمويين من بدر أن يجتاز إلى عبد الرحمن ليخبره بذلك. ولكن عبد الرحمن أبدى حذره وقال: ليس تطيب نفسي على دخول الأندلس إلا أن يكون معي واحد منهم^(١٣).

عاد بدر إليهم بجواب عبد الرحمن وكانت الأمور مهيئة لقدم عبد الرحمن، حيث أن يوسف الفهري خرج إلى سرقسطة لمحاربة عامر القرشي الذي خرج عليه فابتاع موالى الأمويين مركباً ووجهوا فيه أحد عشر رجلاً مع بدر حيث وصل إلى الشاطئ الأفريقي.

ولقى بدر مولاه وقدم إليه تقريراً سريعاً عن ترحيب أنصاره به في الأندلس من موالى الأمويين وقبائل اليمنيين. كما قدم إليه الأشخاص الذين قدما معه ومنهم تمام بن علقمة الذي قال له عبد الرحمن ما اسمك؟ قال تمام. قال وما كنيته؟ قال أبو غالب. قال : تم أمرنا وغلبنا عدونا واتخذة بعد ذلك حاجباً له .

هَمَّ عبد الرحمن بالدخول إلى المركب، ولكن البربر أقبلت إليهم لتمنعهم من أخذ عبد الرحمن ففرق عليهم تمام بعض المال، ثم اتجهوا إلى الأندلس فنزل عن المنكب في غرة ربيع الأول سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م. وعرف بعد ذلك بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل من ملوك بني أمية إلى بلاد الأندلس^(١٤).

ومن هنا يبدأ عصر جديد في تاريخ الأندلس عرف بعصر الإمارة ويبدأ بتاريخ جديد ونظام سياسى جديد فى الأندلس للمسلمين، حيث أن الكيان الجديد قام دون سابق إنذار، ألا وهو بداية العصر الأموى بالأندلس كبديل للدولة الأموية الكبيرة التى كانت تتخذ من دمشق حاضرة لها، فالآن صارت الحاضرة هى قرطبة فى أقصى الجنوب الغربى لأوربا .

عصر الإمارة

عبد الرحمن الداخل :

توجه عبد الرحمن الداخل (ابن معاوية) إلى الأندلس مع الركب الذى قدم لصحبته حيث أرسلت السفينة إلى المكنب على شاطئ الأندلس وكان فى استقباله أبو عثمان وعبد الله بن خالد اللذان رحبا به واستقبلاه وصحباه إلى الفونتين منزل عبد الله بن خالد ثم توجه إلى مدينة طوش من كورة البيرة منزل أبى عثمان وفيها يكثر موالى بنى أمية الذين أقبلوا إليه يعلنون تأييده ومناصرته وقد أعد للأمير ما يصلحه من المركب، فغلظ أمر ابن معاوية وأقبل الناس من كل مكان إليه وازداد أمره قوة بعد أن أخذ يوسف بن يخت البيعة له من جند الأردن. وأخذها تمام بن علقمة من جند فلسطين وعبد الله بن خالد من جند حمص.

وكانت رئاسة العرب بكورة زية إلى جدار بن عمر القيسى جد بنى عقيل فذهب إليه أبو عثمان وبعد الله بن خالد وأعلماه بقوم عبد الرحمن الداخل فقال لهما: توافونى به مصلى أرجزونة يوم الفطر وترون ما يكون منى إنشاء الله فلما تعافوا وجاء الخطيب، قام إليه جدار فقال له: إخلع يوسف بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، فهو أميرنا وابن أميرنا ثم قال: يا أهل زية ما تقولون؟ فقالوا : نقول ما نقول فخطب وبايعوه عند انقضاء الصلاة. وهكذا ابتدأت بيعة عبد الرحمن الداخل أميرا فى كورة "زية" ثم يوم الفطر سنة ١٣٨هـ ثم أتى عبد الرحمن شذونة فبايعه غياث بن علقمة ثم جاء مورو فبايعه أبو صالح يحيى بن يحيى (١٥).

ويصور بن عذارى بدأ تكوين الجيش المؤيد لعبد الرحمن الداخل بأن تمام بن علقمة قال دخلنا " زية " فى ستمائة فارس فخرجنا منها فى ألفى فارس وخرجنا من أشبيلية إلى قرطبة فى ثلاثة آلاف فارس . وعندما نزل عبدالرحمن

بن معاوية الأندلس كان يوسف بن عبد الرحمن المتغلب على الأندلس قد انتصر على الثائرين عليه في سرقسطة وبدأ يتخلص من خصومه الذين يعارضون بعض تصرفاته حتى تكون الأندلس خالصة له ولولده من بعده ولكنه فوجئ بعبد الرحمن بن معاوية في الأندلس وتأييد موالى الأمويين والقبائل اليمينية له وكان عليه أن يضع الخطط للتخلص منه، وقد شاور السموي بن حاتم في أمره فأشار عليه بأن يتوجه إليه قبل أن يشتد ساعده بكثرة المناصرين له ولكن جيشه الذي كان قد فرغ من التغلب على الثائرين في سرقسطة رفض أن يتابع التقدم نحو عبد الرحمن الداخل مما اضطر يوسف الفهرى إلى أن يذهب إلى قرطبة وينتظر انتهاء فقص الشتاء الذي قد بدأ، ورأى يوسف الفهرى أن يرسل إلى موالى الأمويين يحذرهم ويخوفهم من مناصرة عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) والخروج عليه فأجابوه بأن عبد الرحمن الداخل إنما أقبل إليهم يريد الذي لجده هشام بن عبد الملك وليس فيما يظن الأمير من الخروج عليه وقدموا إليه اعتذارهم ولم يخبروه بحقيقة بيعتهم لعبد الرحمن أميراً عليهم^(٦١).

كما أرسل يوسف إلى عبد الرحمن بن معاوية كتاباً يحذر فيه من أتباعه الذين انضموا إليه وأنهم أهل غدر ونقض للأيمان المؤكدة، ويعرض عليه المال وسعة السلطان والحماية وأنه لا يغدر به. وقد جاء في الكتاب المرسل إلى عبد الرحمن بن معاوية "أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب، وتابلش من تابلش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الختر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كنبتوا الله فيها وكذبونا وبه - جلا وعلا - نستعين عليهم ولقد كانوا معنا في نرى كنف ورفاهية عيش حتى غمضوا ذلك واستبدوا بالأمن خوفاً وجنحوا إلى النقض، والله من ورائهم محيط. فإن كنت تريد المال وسعة الجناب فانا أولى لك ممن لجأت إليه أكتفك وأصل رحمك، أنزلك معي إن أردت وحيث تريد. ثم لك عهد ونمته في ألا أغدر بك ولا أمكن منك ابن عمي صاحب أفريقية ولا غيره"^(٦٢).

وإذا تأمنا هاتين الرسالتين وجدنا أن يوسف يحذر في الرسالة الأولى أتباع عبد الرحمن من الإنسياق خلفه وتأيبده . وفي الرسالة الثانية يحذر عبد الرحمن من الإنسياق خلفهم تأيبدهم - أى اتباعه - له ويخوفه منهم وأنهم سينقضون عهده لأنهم أهل غدر ونقض للإيمان، وأنه - أى يوسف الفهرى - أولى ممن لجأ إليهم - أى أتباع معاوية - . وهو بهذا يحذر بعضهم من بعض ويريد أن يبذر الشقاق والخلاف بينهم، حتى لا يقولوا عليه^(١٨) .

غير أن هذا التحذير لم يفلح، ولم يأبه به عبد الرحمن بن معاوية أو المؤيدين له .. ولم يترددوا فيما عزموا عليه، مما دفع يوسف الفهرى إلى أن يقدم له عرضاً آخر جاء فيه أن يزوجه ابنته ويسكنه فى أى الجهتين شاء من دمشق أو الأردن أو يسكن بينهما ويصير إليه أمر الكورتين، يبعث إليه بكسوتين ومطيتين وخمسمائة دينار، ووجه إليه كاتبه خالد بن يزيد وقال: "أعرف أمره وأى جند عنده وتأمل أخباره وأخبار من معه" فخرج بالليل مع أصحابه وأصبحوا عند ابن معاوية بالمال والكسوة والمطيتين، ووجه أيضاً إلى بدر فرساً ومائة دينار وكسوة فقبل ابن معاوية الهدية وكره التزويج، فتكلم خالد بكلام غليظ لابن معاوية إذ أبى التزويج فأمر به فضم إلى وثاق ورد غيره إلى يوسف ولم يرد عليه جواباً .

ومن هذه الرواية التى يذكرها ابن عذارى نجد أن عبد الرحمن رفض التزوج من ابنة يوسف مما دعا خالد بن يزيد رسول يوسف الفهرى أن يستكلم بكلام غير مقبول أدى إلى إخفاق مهمته . وإن كان صاحب أخبار مجموعة يذكر أن خالد بن يزيد عندما قدم الكتاب إلى عبد الرحمن بن معاوية دفعه عبد الرحمن إلى عثمان وقال: "اقرأ وأجب فيه بما تعلم من رأينا ويذكر أنهم كانوا موافقين علما عرضه يوسف غلا أن أبا عثمان عندما تهيأ ليرد على الخطاب قال له خالد: يا أبا عثمان لتعرفن أبطاك قبل أن تخبر فيه جواباً ، فضرب أبو عثمان بالكتاب وجه خالد بن يزيد وقال له: لا تعرفن لى فيه أبط

ولا أجد فيه جواباً، ثم قال : خنوه ، فأخذ وكيل من ساعته وقالوا: لعبد الرحمن هذا أو الفتح سلطان يوسف كله^(١٩).

وأنتى لأميل إلى رواية ابن عذارى لأنه يذكر قبل ذلك أنه عندما أتاه كتاب يوسف الفهرى بما فيه من المال والمطية وتزويجه ابنته أشار عليه كل من أتاه من العرب الأمويين ألا يقبل ذلك منه حتى يعتزل له عن الملك ويبايعه وإلا حاكمه إلى الله . وقالوا له : إنما يمكر بك ولا يفى لك بشئ لأن وزيره ومالك أمره الصمويل وهو غير مأمون .

وهذا يدل على رفض أنصاره لعروض يوسف وأنهم مصممون على أنه - أى يوسف الفهرى - يتنازل عن الملك لعبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وإلا حاكمه إلى الله . وهم يقصدون بذلك القتال . وهكذا فشلت المحاولات التى أبداهها يوسف لخديعة عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ولم يبق إلا المواجهة فى ميادين القتال التى تحكم بينهم .

موقعة المصارة والإسبلاء على قرطبة :

بدأ كل من الفريقين يستعد للقتال عندما انتهى فصل الشتاء بعد أن فشلت كل محاولات الصلح والاقناع بينهما، وكان عبد الرحمن بن معاوية عندما وصل إلى أشبيلية كان تعداد جنده قد وصل إلى ثلاثة آلاف جندي، وأقبلت عليه المتطوعة من كل حذب وصوب، من المضرية واليمنية وجند الشام، فعظم جنده وبدأ فى تنظيمه وإعداده للمعركة الفاصلة، وكان يتكون من جند فلسطين وجند الأردن وجند حمص، وكلها يمنية. كما انضم إليه من القيسية جماعة على رأسهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدى والحسين بن الرجن؛ ولم يكن لعبد الرحمن لواء بينما كانت الأجناد قد خرجت بألوتها فلما وصلت إلى قرية قلنبيرة بين اقليم قسانة من كورة أشبيلية قال شيوخ الأجناد "امام لا لواء له خطأ فى رأى وعزموا على العقد له - فأقبل أبو الصباح يحيى اليحصبى بقناة

وعمامة وهما لرجل حضرمي (أى من حضرموت) ودعوا رجلا من الأنصار تفاعلوا باسمه وعقدوا اللواء لعبد الرحمن بن معاوية بهذه القرية بين شجرتي زيتون وشهد ذلك أبو الفتح الصدقوري العابد المجاهد، كما شهدته فرق السرقطى. وفى أثناء ذلك كان يوسف الفهرى قد جمع جيشه ومعظمه من القيسية والفهرية ثم صار بحذاء الوادى الكبير لمقابلة عبد الرحمن الداخل فى طشافة فى أول ذى الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م فتناوشا والنهر بينهما وكان ماء النهر زائدا فمنعهما من عبوره وقيل لعبد الرحمن أن عامة من فى قرطبة من موالى بنى أمية وهم يؤيدونه، فرأى أن يسبق يوسف الفهرى إليها وحاول إيهام يوسف بالبقاء، فأوقد ناراً فى معسكره، ثم رحل من جوف الليل وبينه وبين قرطبة خمسة وأربعين ميلاً فلم يسر ميلاً واحداً حتى أتى يوسف من يخبره بأن عبد الرحمن بين معاوية أزمع التوجه إلى قرطبة، فأصبحا كفرسى رهان والنهر بينهما، حتى نزل يوسف الفهرى فى المصارة ونزل عبد الرحمن الداخل ببابش، وكان جند عبد الرحمن فى ضيق من العيش حتى أصبحوا يتقوتون بالفول الأخضر، بينما جند يوسف فى رفاهة من العيش. ومع ذلك فقد انضم إلى عبد الرحمن كل من استطاع اللحاق به من اليمنيين وبنى أمية من أهل مدينة قرطبة (٢٠).

وقد انخفض ماء النهر يوم الخميس ٩ ذى الحجة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥، وهو يوم عرفة؛ فقال عبد الرحمن لجنده: فى أى يوم نحن؟ فقيل له: يوم الخميس، وهو يوم عرفة. فقال: يوم عرفة وغداً الأضحى والجمعة وأمرى مع فهرى أرجو أنها أخت "مرج راهط" (٢١).

ويبدو أن يوسف حاول الصلح وعرضه على عبد الرحمن بن معاوية حقناً لدماء المسلمين، فدعا عبد الرحمن قواد جنده وقال لهم: أنا لم نجئ للمقام دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم وعرض ما سمعتم وراى لرايكم تبع، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلمونى وإن يكن فيكم جنوح إلى

السلم والصلح فأعلموني، فأصفت اليمن كلها بأسرها على الحرب، رأت ذلك أيضاً بنو أمية. وعندما وثق عبد الرحمن من معرفة عزم جيشه على الحرب واطمأن قلبه، تظاهر برغبته في مفاوضة يوسف الفهري وميله إلى الصلح والمصالحة مما جعل يوسف ينخدع بما أبداه عبد الرحمن بن معاوية من رغبة في الصلح فلم يتعرض لجيشه عندما عبر النهر وعسكر بجواره في المصاراة .

كان عبد الرحمن قد نظم جيشه قبل العبور، فجعل على خيل أهل الشام عبد الرحمن بن نعيم الكلبى، وعلى رجالة اليمن بلوثة اللخمى من جند فسطين، وعلى رجالة بنى أمية ومن جاءهم من البربر عاصم بن عاصم بالعربان، وعلى خيل بنى أمية عبد الملك القرشى وعلى خيل من صحبه من البربر ابراهيم بن شجرة الأودى وناول أبا عثمان اللواء ونزل جماعة بنى أمية فحفوا به (٢٢) .

أرسل يوسف الفهري إلى عبد الرحمن بن معاوية رسالة في الصلح عشية الخميس ؛ وبات عبد الرحمن يتظاهر بحرصه على الصلح ، وعبر يوسف الفهري عن رغبته في الصلح بذبح البقر والغنم وإعداد الطعام للمعسكرين مما جعل عسكر يوسف الفهري لا يشك أن الصلح قد تم. وفي الصباح من يوم الجمعة يوم الأضحى أفصح عبدالرحمن بن معاوية عن نيته في الحرب : وأنه لا يقبل المفاوضة إلا على أساس اعتراف يوسف الفهري له بالإمارة باعتباره وريثاً لبنى أمية على الأندلس . وهكذا أفصح عبد الرحمن بن معاوية عن حقيقة مطلبه وما يسعى إلى تحقيقه . وعند ذلك اشتبك الجيشان في قتال عنيف . وكان على خيل يوسف من أهل الشام ومضر عبيد بن على، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة الكنانة وجوش بن الصمويل وعبد الله بن يوسف الفهري ، وعلى خيل غلمانه وصنائه من البربر خالد السورى .

دارت رحى الحرب وكثر القتال ، وكان عبد الرحمن يركب فرساً أشقر وببده قوسه وحوله مواليه ، فقال بعض رجال جيشه : " غلام حدث فما

يؤمننا أن نظير على هذا الفرس . فنهك ، فبلغه ذلك ، فنادى أبو الصباح فأقبل إليه فقال له ، ليس في عسكرينا بغل أوفق من بملك ، وأن هذا الفرس يقلق تحتى فلا أقدر على ما أريد من الرمي من قوس ، فخذ فرسى وهات بملك وأنى أحب أن تكون تحتى دابة تعرف حال الناس فتبادلا الدابتين : واطمأنت قلوب الخائفين واشتد القتال بين الجيشين حتى انتهى بهزيمة يوسف الفهرى هزيمة شنعاء وقتل ولداهما وقتل عبيد الله بن على وكنانة بن كنانة وغيرهما من وجوه القيسية والفهرية ، وفرّ يوسف إلى طليطلة وفرّ الصمويل إلى جيان واستولى عبد الرحمن على عسكر يوسف وأكلوا الطعام الذى كان قد أعده ، ثم دخل قرطبة منتصرا ولم يقاومه أحد ، وحاول حمل جنوده ما استطاع على الاعتدال والقناعة كما عمل على حماية أسر خصومه وحريمهم وأموالهم من السلب والنهب مما حمل بعض اليمنية على الغضب منه ورموه بأنه متعصب لقومه . وقد صلى عبد الرحمن الجمعة بالناس فى المسجد الجامع وخطبهم لأول مرة ووعدهم بالعدل والإحسان وبويع فى الحال بالإمارة ، ثم نزل قصر الإمارة ، وذلك فى يوم الأضحى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥ م . ويعتبر ذلك بداية قيام الدولة الأموية فى الأندلس . وقد دعا عبد الرحمن فى بداية إمارته للمنصور (أبى جعفر) عشرة أشهر ، ثم قطع الخطبة للمنصور وحمله على قطعها عبد الملك بن عمر المروانى الذى قال : " تقطع الخطبة وإلا قلت نفسى ، فقطعها .

ولا شك أن الانتصار فى تلك الموقعة يدل على عبقرية عبد الرحمن بن معاوية ودهائه وحسن تدبيره للأمور ومعرفته أيضا لنفسية رجاله الذين التقى بهم فى الأندلس وتمكن من أن يجذبهم إلى صفه بمشاورته لهم وبعث الطمانينة فى نفوسهم حتى يثقوا به ويعتمدوا عليه . وقد أحكم خطة التمويه فى خداعه ليوسف ، حتى اعتقد الأخير أنه يميل للصلح بينما هو يخطط ويدبر للحرب حتى تمكن من التغلب على يوسف وجيشه مع ما كان يتمتع به

جيش يوسف من تتاسق وتآلف ووفرة في العدة والعتاد والإصرار على تحقيق هدفهم (٢٣).

وإذا كان يوم المصارة فاتحة الانتصار، فقد كان فاتحة الكفاح لعبد الرحمن الداخل حيث كانت الأندلس آنذاك تموج بالفتن والعصبيات . ولم تكن الخصومة قاصرة على المضرية واليمينية ، بل أصبحت كل قبيلة وكل بطن تلتف حول زعامتها ، ومصالحها الخاصة وكانت تلك القوى المتفرقة المستقلة برأيها وهواها تتمسك باستقلالها المحلي، وتأبى الخضوع لأية سلطة عامة . كما كان البربر يحصلون على الاحتفاظ بما انتزعوه خلال الفتنة من النواحي والضياع . وكان هناك ما هو أشد خطراً من ذلك على المسلمين في الأندلس ، وهي المملكة الشمالية للنصارى والتي استطاعت أن تتخطى بسرعة مرحلة الهزيمة والفوضى . وكذلك مملكة الفرنجة التي تمكنته أثناء الفتنة من انتزاع الأراضي الإسلامية فيما وراء البرنية . وقد حاول نصارى الشمال والفرنج الذين يتربصون بالمسلمين في الأندلس ، أن يستغلوا الفرصة والتفكك في صفوف المسلمين . ويتصلوا ببعض الزعماء الخارجيين عن الإمارة لتحقيق مشاريعهم في تمزيق الأندلس وانتزاع أطرافها (٢٤).

وكان على عبد الرحمن الداخل المنتصر في المصارة سنة ١٢٨هـ — ٧٥٥م والذي لم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره أن يواجه هذه الخطوب ويقارعها؛ ف قضى بقية عمره في كفاح مستمر، يخوض المعارك ويقمع الثورات ويسحق الخارجين عليه، وقد صمد لذلك بعزم وثبات وجلد وصبر حتى قبض على مصائر الأندلس بيده، وازدهرت الحياة في ظل الإمارة الأموية، وقد مكنه في ذلك تفرق خصومه إذ انقلب الوضع في الأندلس. فقد توحد المسلمون وتفكك الأعداء وانقلبوا على أنفسهم. لقد التقى عبد الرحمن بخصومه في الميدان فرادى منقسمين على أنفسهم فأخمد ثوراتهم وحطم قواهم حتى قضى عليهم جميعاً؛ وازداد هو حنكة ومنعة وقوة وصلابة .

الصعوبات التي واجهت عبد الرحمن الداخل :

ومع ما توفر لعبد الرحمن بن معاوية من قوة وثبات في بلاد الأندلس، ونجاحه في القضاء على الخصوم من المسلمين والفرنج معاً إلا أنه كانت هناك صعوبات قوية لازالت تقاومه وتحاول اقضاؤه عن السلطة ، ولكنه تمكن من التغلب عليها جميعاً؛ ولعل أول هذه الصعوبات :

أولاً : يوسف الفهري والصمويل والتغلب عليهما : -

لم يكن انتصار عبد الرحمن بن معاوية في معركة المصارة ودخوله قرطبة وبيعة الناس له وقيام الدولة الأموية هناك إيذاناً بأن الأمور قد تمت له تماماً ، وإنما كان عليه أن يتوقع عودة يوسف الفهري وحليفه الصمويل للانتقام منه باعتباره مغتصباً للحكم ، خاصة وأن يوسف كان قد توجه إلى طليطلة وحشد فيها من استطاع من أنصاره ، وساعده في ذلك عامله عليها هشام بن عروة الفهري، كما توجه الصمويل إلى جيان وجمع فيها أنصاره والمؤيدين له ثم اجتمعت القوتان وتوجهت إلى البيرة ، وكانت خطة يوسف والصمويل أن يعملوا على جذب عبد الرحمن بن معاوية من قرطبة لقتالهما في جيان ثم يذهب عبد الرحمن بن يوسف الفهري ليحتل قصر الإمارة في قرطبة (٢٥) .

وعندما علم عبد الرحمن بن معاوية بنزول يوسف الفهري والصمويل في البيرة جمع جنده ، وتوجه إليهما سنة ١٣٩هـ / سنة ٧٥٦م ، بعد أن ترك قوة صغيرة لحماية قرطبة بقيادة أبي عثمان، ولكنه لم يبعد كثيراً حتى هاجم عبد الرحمن بن يوسف الفهري الذي كان مقيماً في ماردة قرطبة واحتل قصر الإمارة وتمكن من القبض على أبي عثمان نائب عبد الرحمن في قرطبة وكبله بالأغلال. وصل ماحل بقرطبة إلى عبد الرحمن بن معاوية فعاد مسرعاً إلى قرطبة ففر ابن يوسف الفهري إلى أبيه ومعه أبو عثمان. عند ذلك عين عبد الرحمن على قرطبة عامر بن علي، وكانت له صولة وسيادة عند اليمانية ثم عاد

لمواجهة يوسف الفهرى والصمويل بالبيرة وحاصرهما فيها فلما شعرا بعدم قدرتهما على الصمود فى وجه عبد الرحمن -فاوضاه فى الصلح أن يعترفا بإمارته ولا ينازعا فيها على أن يؤمنهما فى النفس والمال والأهل وأن يؤمن حلفاءهما وأعوانهما ويسمح لهما بسكن قرطبة تحت رعايته ورقابته فقبل عبد الرحمن هذه الشروط على أن يقدم يوسف الفهرى ولداه عبد الرحمن ومحمد أبا الأسود رهينة لديه يعتقلهما فى قصر قرطبة حبساً جميلاً - أى اعتقالاً سياسياً - حتى تطمئن النفوس وتستقر الأمور، وأن يفرج عبد الرحمن بن معاوية عن خالد بن زيد فى مقابل أن يفرج يوسف عن أبى عثمان . وتم عقد الصلح بين الفريقين سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ م ، وقفل يوسف الفهرى والصمويل مع عبد الرحمن إلى قرطبة ، وانفض جندهما ، ونزل يوسف بشرقى قرطبة فى قصر الحر الثقى ونزل الصمويل بداره بالربض. وعمل عبدالرحمن الداخل على إكرامهما وتقدير مكانتهما. وأقام يوسف والصمويل على أحسن حال يختلفان إلى عبد الرحمن ويحضرهما رأى مرة بعد مرة، ودخل يوسف الفهرى فى عسكر الأمير كأحد رجاله فأنزله على ماله وأطلق له عياله^(٢٦).

وكان سلوك عبد الرحمن الداخل مع يوسف والصمويل وعفوه عنهما وتسامحه معهما ومحاويلته إزاحة الأحقاد من النفوس أثر فى حب أهل الأندلس له ، وإقبال كثير من المشاركة عليه وأقبل من المشرق سنة ٤١٠ هـ / ٧٥٧ م من بنى أمية ومواليهم فاستقبلهم الأمير استقبالا حسنا وأكرمهم وأحسن وفادتهم وأسند إلى كثير منهم بعض المناصب والولايات.

مضى عام حاول فيه أنصار يوسف الفهرى السابقون حمله على الثورة على عبد الرحمن الذى أزال عنهم ما كانوا يتمتعن به من رفعة ومنزلة وما زالوا به يغرونه بالثورة على عبد الرحمن حتى كاتب الناس . فأما أهل الأجناد قالوا : لا والله ما نرجع إلى الحرب بعد السلم ، وكره الصمويل وقيس ذلك وقالوا حسبنا قد قضينا الذمام ولا والله لا نخلعه. فلما يئس منهم ، كاتب أهل

البلد وأهل ماردة ، فأجابوه وكتبوا إليه بدعوه إلى أنفسهم فهرب إليهم سنة ١٤١هـ / ٧٥٨ ناكثاً لعهد ، ناقضاً للأيمان بعد توكيدها ، فاجتمع إليه الناس وبلغ جمعهم عشرين ألفاً . ولما علم عبد الرحمن بهربه اتبه الخيل وقبض على ابنته ، واعتقل الصمويل فاحتج أنه لا ينبغي له ولوانه أن يذهب لهرب معه ، ولكن عبد الرحمن لم يقبل عذره وسجنه^(٢٧) .

تقدم يوسف بجيشه نحو أشبيلية وحاصرها وكان واليها عبد الملك بن عمر المرواني الذي طلب من ابنه والي "مبور نجلته". وكان عبد الرحمن يستعد لملاقاة يوسف، ففك يوسف الحصار عن أشبيلية ليتوجه إلى عبد الرحمن ووصل إلى مرو ثم أبيه في أشبيلية وكثر جمعهما فزحفا خلف يوسف الفهري الذي رأى أن يتخلص منهما أولاً، حتى لا يقع بين جيشيهما وبين جيش عبد الرحمن. ودارت الحرب بين يوسف وبين عبد الملك وبدأت الحرب بالمبارزة فقتل مبارز يوسف. ثم حمل عبد الملك ومن معه حملة رجل واحد فانهزم يوسف الفهري من ساعته وتفرق من معه وسار يوسف إلى طليطلة ليحتمي بها عند بن عروة وإلى طليطلة، فأدركه عبدالله بن عمر الأنصاري قبل طليطلة بأربعة أميال فقتله وأراح الناس من شره وحملت رأسه إلى عبد الرحمن بن معاوية فأمر بقتل بن يوسف عبد الرحمن المعتقل لديه. كما خنق الصمويل في سجنه وبذلك تخلص عبد الرحمن بن يوسف والصمويل؛ وهي أولى العقوبات في سبيل استقرار إمارته وحكمه. واستئنفت الأمور له واستوتقت . وأمضى عبد الرحمن به عقبة على ولاية أربونة وما اتصل بها إلى طرطوشة. وولى طليطلة رجلاً من ولد سعد بن عبادة الأنصاري كان ساكناً بها .

ثانياً : ثوار العرب والبر والأقارب :

لم تستقر الأمور لعبد الرحمن بن معاوية بعد القضاء على يوسف والصمويل وإنما قامت عليه خلال عهده ، ثورات متعددة هي : ثورة رزق بن النعمان الغساني، ثورة هشام بن عروة الفهري بطليطلة ، ثورة عبد الغافر

اليمانى بأشبيلية ، وثورة العلاء بن مغيث اليحصبي بباجة ، وثورة سعيد اليحصبي المعروف بالمطري بلبله ، وثورة الصباح بأشبيلية ، وثورة الفاطمي بماردة ، وثورة حيوة بن ملامس في أشبيلية ، وثورة أهل بيته عليه ، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري بتمير ، وثورة الرماحس بن عبد العزيز الكناتي في الجزيرة وثورة سليمان بن يقظان الأعرابي وإلى برشلونه ، وثورة الحسين بن يحيى في سرقسطة ، وثورة محمد يوسف الفهري في طليطلة ، وثورة قاسم عبد الرحمن الفهري^(٢٨) .

وكل هذه الثورات والمؤامرات ضد عبد الرحمن بن معاوية تدل على حالة الفوضى المنتشرة في أنحاء بلاد الأندلس ومدى التنافس بين القبائل المختلفة ، والأحقاد المتأصلة بين زعماء تلك القبائل وحكام المدن والثغور تؤكد على بقاء العصبية القبلية بين العرب . وأن نزعة الانفصال كانت تهدد وحدة الأندلس ، مما أتاح لأعداء المسلمين في الأندلس خاصة الممالك المسيحية في الشمال - كما نكرم من قبل - أن ستولى وتسترد بعض المدن الشمالية وتهدد أمن المسلمين . وسهل التدخل الخارجي سواء من جانب الفرنج أو العباسيين . ولولا يقظة وحكمة عبد الرحمن الداخل وسرعة مجابهة هذه الثورات والقضاء عليها ، والعمل على تقوية الدولة ووحدتها لتفتت الأندلس وسقط لقمة سائغة في يد أعدائه ، وسنرى أن هذا الجهد والكفاح الدائب الذي قام به عبد الرحمن الداخل قد جمع شتات القبائل ووحد فيما بينهما ، وجعل بداية حكمه وعهده في الأندلس بداية عهد جديد سار عليه أبناؤه من بعده لتشييد صرح الدولة الأموية الإسلامية في الأندلس^(٢٩) .

ولا نريد هنا أن نتتبع الثورات واحدة بعد الأخرى ، ولكن سنعرض بعض أهم هذه الثورات من حيث أسبابها ونتائجها :

ففي طليطلة مثلاً : ثار هشام بن عروة الفهري وهو قيسى من أتباع يوسف الفهري ، فسار إليه عبد الرحمن وشدد عليه الحصار حتى اضطر إلى

طلب الصلح ، وأخذ ابنه رهينة فقبل عبدالرحمن إذعانه ورجع عنه ، فعاد هشام إلى نقض فغزاه الأمير في السنة الثانية وشدّد عليه الحصار ، ودعاه إلى الرجوع فلم يزعن له ، فلما يئس منه أمر بابنه الرهينة فضربت عنقه ، وقذف الرأس بالمنجنيق ورجع عنه لانشقاقه بثوره العلاء بن مغيث اليحصبي وبعد أن قضى عليها بعث مولاة بدرأ وتعام بن علقمة سنة ١٤٧هـ / ٧٦٤م في جيش كثيف في طليطلة حتى ملّ أهل المدينة بالحصار وكاتبوا تماماً وبدرأ وسألوهما الأمان على أن يسلموا لهما ابن عروة وهشام بن حمزة بن عبيد الله بن عمر بن الخطاب - وحيوة بن الوليد التجيبي ، وكانوا يداً واحدة ، فتم ذلك وحملوا إلى قرطبة . وفي الطريق حلفت رؤوسهم ولحاهم وألبسوا جبا صوفياً ، وحملوا على الحمر ودخلوا قرطبة على هذه الحال وأمر عبد الرحمن بقتلهم وكتب إلى البلدان بفتح طليطلة .

وفي سنة ١٤٦هـ / ٧٦٣م ثار العلاء ابن مغيث اليحصبي بباجة ، وكان من وجهاتها وله بها رئاسة ، وكان الخليفة العباسي أو جعفر المنصور بعث إليه بسجل ولواء وقال له : إن كان فيك محل مناهضة عبد الرحمن بن معاوية وإلا فابعث إليك بمن يعينك وبذلك استطاع العلاء بن مغيث اليحصبي أن يسبغ لوناً من الشرعية لثورته ضد عبد الرحمن (الداخل) بن معاوية ، فدعا العلاء إلى طاعة أبي جعفر المنصور ونشر الأعلام السود فتبعه خلق كثير وتطلب أكثر أهل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن بن معاوية ولاسيما الفهرية واليمانية وجند مصر وانضم إليه أمية بن قطن وأصحابه ، وأقبل إليه غياث بن علقمة اللخمي من شنونة ممدداً لهم (٣٠) .

وأمام هذه الثورة ضد عبد الرحمن بن معاوية خرج الأخير في جميع قواته وبعث بدرأ مولاة ببعض القوات إلى شنونة فحاصرها فأذعن غياث لطب الصلح . وسار عبد الرحمن إلى قرمونة فتحصن بها ومعه ثقات مواليه وخاصته ، فصار إليه العلاء بمجموعة وهاجم قرمونة مراداً وحاصره بها

قريباً من شهرين ، فلما طال مقامهم إنخزل عن العلاء أكثر من كان معه ووهنت روح قواته المعنوية . وأدرك عبد الرحمن ذلك ، وكان في سبعمائة من أشداء الرجال ومشاهير الأبطال فأمر بنار فأوقدت عند الباب المعروف بباب أشبيلية ثم أمر بأجفان سيوفهم فطرحت فيها ثم قال لهم : " أخرجوا معي لهذه الجموع خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع " وتقدم الصفوف وخلفه رجاله فانقضوا على جيش العلاء ابن مغيث فمزقوه شر ممزق وقتل العلاء مع ستة آلاف من أتباعه . وأمر عبد الرحمن بحز رأس العلاء ورؤوس أشراف أصحابه ووضعت فيها صكوك بأسمائهم وحمل بعضها إلى القيروان فطرح في الليل في الأسواق . وحمل البعض الآخر إلى مكة مع بعض التجار الثقة وفيه رأس العلاء ومع السجل واللواء الذي أرسله إليه المنصور فوضعه أمام سراق المنصور الذي كان يحج هذا العام سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م . فلما نظر إليه المنصور قال : " إنا لله عرضنا بهذا السكين للقتيل الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان " (٣١).

وبهذه الشجاعة النادرة التي أبدأها عبد الرحمن وأنصاره استطاع أن يقضى على هذه الثورة الخطيرة التي كان يدعمها الخليفة العباسي معنوياً وتضفى عليها الصبغة الشرعية وجمعت كثيراً من خصوم عبد الرحمن تحت لواء واحد .

- أما الثورة الثالثة فكانت في عام ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م من قبل البربر في شمال شرقى الأندلس، وكان زعيمها داعية بربرى خطير يدعى شقنا بن عبد الواحد من بربر مكناسة وكان فقيها يعلم الصبيان؛ وزعم أنه من ولد الحسن بن علي رضي الله عنه، وكانت أمه تسمى فاطمة، فادعى أنه فاطمي وتسمى بعبدة الله بن محمد فذاعت دعوته بن البربر في تلك المنطقة وكانوا أكثرية، وكانوا على استعداد لحمل السلاح إذا ما دعاهم على ذلك أحد من بنى جنسهم باستطاع بهم أن يستولى على بنت برية، وجعلها مركزه العام ثم تستولى على ماردة

وقورية ومدلين فعظم خطره وهزم الكتائب التي أرسلها إليه حاكم طليطلة. فزاد ذلك في سلطانه، فسر إلى عبد الرحمن بن معاوية بنفسه واقتحم منطقة الثورة ونشبت بينه وبين البربر وقائع عديدة وامتنع الثائر بالجيال ، فرجع عبد الرحمن عن مطارحته إلى قرطبة وأرسل مولاة بدرأ ليتابع القتال مع الثائر البربري فاستمر الفاطمي منتعاً بحصنه في الجبال لا يريد لقاء الجيش المهاجم .

وقد فشلت الحملات المتتالية في القضاء على الثائر البربري في تلك المنطقة الوعرة فعاد عبد الرحمن سنة ١٥٥هـ / ٧٧٢ م بجيش إلى شنت بريسة وقدم عليه هلال المديوني كبير البربر في شرق الأندلس فكتب له عهداً على قومه وأقره على موضعه وعهد إليه بولاية الأنحاء التي غيب عليها الفاطمي وفوض إليه أمراً في استخلاصها منه وكان لذلك أثره في بث الخلاف بين البربر ، فأنفض عن الفاطمي كثير من أنصاره واضطر أن ينسحب شنت بريسة ليعتصم بالجيال في الشمال مرة أخرى كانت مشاكل عبد الرحمن تدفعه إلى ترك هذا الثائر والعودة إلى قرطبة للبت في أمر دولته مما جعل هذه الثورة تظل مشتتة قرابة عشر سنوات ، كما كان للأسلوب الذي تبعه الفاطمي من تجنب المعارك والفرار إلى قمم الجبال إذا شعر بالخطر من عوامل بقائها كذلك ، لم يتمكن عبد الرحمن بن معاوية في القضاء على ثورة البربر إلا بمؤامرة دبرها له إثنان من أصحابه بمساعدة الزعيم البربري الآخر هلال المديوني فقتلاه وأخذوا رأسه وحملوها إلى عبد الرحمن في قرطبة. وبذلك ضعفت جموعه وخبت ثورته بعد أن مكث عشر سنوات تحمل الدمار وتسفك الدماء في شرق الأندلس وتهدد سطاتن عبد الرحمن ، وحقت الخيانة في لحظة واحدة مالم تحققه الحملات والبحوث المتعاقبة في أعوام طويلة. وكان مصرع الفاطمي وانتهاء ثورته في سنة ١٦٠هـ / ٧٧٨م (٣٢) .

لم تتوقف الثورات والانقلابات ضد عبد الرحمن بن معاوية رغم ما أثبتته الرجل من مكانة ودراية كبيرة وحنكة سياسية أرهبت العديد من خصومه

حتى أن أى لقاء كان بين عبد الرحمن بن معاوية وأى من خصومه كنا نرى قيام الخصم بعرض الصلح على عبد الرحمن طالباً الأمن والأمان له ومن معه من جند . وقد أكد عبد الرحمن الداخل أيضاً أنه كان صاحب مروءة وصادق فى عهوده ووعوده مع الخصم . ومع هذا استمرت الثورات والاضطرابات ضد عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) .

فبينما كان عبد الرحمن يواجه هذه الثورات المتلاحقة التى يقوم بها الثوار بالداخل ويقضى عليها واحدة تلو الأخرى ويثبت دعائم إمارته ويقوى أركانها إذاً ببعض الثوار يتحكم الحقد فيهم ويملأ السخط نفوسهم فلا يهتم إلا بتحقيق أهوائهم ومصالحهم الشخصية فيتصلون بقوى خارجية من أجل القضاء على الإمارة الأموية .

فقد استعان عبد الرحمن بن حبيب الفهرى المعروف بالصقلبي - لطوله وزرقته وشقوته - بالبربر فى أفريقية وعبر إلى تدمير وثار فيها ودعا للعباسيين وكاتب سليمان بن يقطان الكلبى (الأعرابى) وكان ببرشلونة ودعا إلى الدخول فى أمر فأجابه : بأنه لا يدع عونه ولكن ذلك لم يرق للفهرى وتوجه لغزوه . ولكن الأعرابى تمكن من هزيمته فعاد الفهرى إلى تدمير ، وواصل الثورة فيها فخرج إليه الأمير عبد الرحمن واشتد فى قتاله فلجأ إلى الجبال بها فبسط عبد الرحمن سلطانه فى كورة وتدمير وتقدم إلى كورة بلنسية بعد أن أحرق المراكب بساحل البحر حتى لا يمكنه من الهروب ودس عبد الرحمن على الصلبي شكاراً البربرى فتمكن من إغتيال ابن حبيب الصلبي وحمل رأسه إلى عبد الرحمن الداخل وبذلك انهارت دعوته وثورته فى سنة ١٦٢ ، ١٦٣ هـ / ٧٨٠ ، ٧٨١ م (٣٣) .

كذلك كانت هناك ثورة قام بها سليمان بن يقطان الكلبى الأعرابى حاكم برشلونة، والحسين بن يحيى بن سعيد بن عبادة الأنصارى والى سرقسطة

وتحالفوا على قتال عبد الرحمن الداخل وخلعه . فأرسل إليهم عبد الرحمن جيشاً بقيادة ثعلبة ابن عبيد الخزامي فهزمه سليمان أسر قائد الجيش واتسعت الثورة في الشمال . ولكن سليمان لم يطمئن إلى هذا النصر خوفاً من عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ورأى الاستعانة بملك الفرنج شارلمان فأرسل إليه يستقدمه إلى شمال الأندلس واعداء إياه بتسليم برشلونه وسرقسطة إليه وبعث إليه بالقائد المأسور ثعلبة بن عبيد . اغتتم شارلمان الفرصة فعبر جبال البرانس بجيش كبير واستولوا على نبلونه من البشنكنس وكان يهفوا إلى أن يسيطروا على شمال الأندلس . وقد استقبله سليمان وسار معه إلى سرقسطة وهما يعتقدان أنها ستفتح أبوابها أمام شارلمان . ولكن حاكمها الحسين بن يحيى الأنصاري خشي عاقبة مخالفة الأفرنج كما أن أهل سرقسطة صمموا على الصمود والقتال وقدموا الشهداء دفاعاً عن مدينتهم مما جعل شارلمان يفكر في العودة بعد عجزه عن الاستيلاء على سرقسطة وقد شك في نية سليمان وموقفه فقبض عليه .

وفي أثناء عودته تعرضت مؤخرة جيشه لهجمات المسلمين بقيادة ابني سليمان والبشنكنس في جبال البرنية فخلصوا الأسرى منهم ، كما فتكوا بمؤخرة الجيش وقتلوا كثيراً من كبار القواد .

عاد سليمان إلى سرقسطة، ولكن الحسين الأنصاري قتله بعد فترة. وهذا الأنصاري ظل ثائراً على عبد الرحمن الداخل وقد خرج الأخير في جيش كبير وحاصره حصاراً شديداً ممن دفع الحسن إلى طلب الصلح وأرسل ابنه رهينة فقبل عبد الرحمن منه ذلك وفك الحصار عن سرقسطة ولكنه عاد وغدر بعده فعاد الأمير إلى حصاره ونصب على المدينة ستة وثلاثين منجنيقاً من كل جانب وضاق أهلها بالحصار فاتصلوا بعبد الرحمن وسلموا إليه الحسين بن يحيى الثائر وقتله وانتهت بذلك ثورته واضطرابه (٣٤).

وإذا كان بعض المؤرخين قد عرضوا أسباباً للتحالف بين العباسيين والفرنج للتخلص من عبد الرحمن الداخل فإننا لا نميل إلى الأخذ بها، إذ لا

يحتمل أن يحمل العداء بين العباسيين والأمويين إلى قيام العباسيين بالتحالف مع الفرنج ضد الأمويين في الأندلس لسبب بسيط وهو أن تحالف العباسيين مع الفرنج لا يعنى بأى حال عودة الأندلس إلى حوزة العباسيين فى حالة القضاء على عبد الرحمن الداخل .

حكم التاريخ فى عبد الرحمن الداخل :

بعد عمر قارب الستين عاماً توفى عبد الرحمن بن معاوية الأموى يوم الثلاثاء لست بقين من ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ / ٧٩٠م بعد أن حكم الأندلس ثلاثة وثلاثين عاماً قضاها فى حركة دائبة أقام فيها الإمارة الأموية فى الأندلس وأرسى دعائمها وحافظ عليها ضد الخارجين عليها حتى ثبت أركانها وعلا بنيانها وعاونه وأيده خلال رحلة بناء إمارته أنصاره من موالى بنى أمية واليمانية وبعض القيسيين وأهل البلاد الأصليين الذين استشعروا بالأمن والأمان فى عهده .

وكان عبد الرحمن راجح الحلم واسع العلم ثاقب الفهم كثير الحزم نافذ العز برئياً من العجز سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه متصل الحركة لا يخلد إلى راحة ولا يسكن إلى دعة ولا يكل الأمور إلى غيره ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه ، شجاعاً مغواراً بعيد الغور شديد الحذر قليل الطمأنينة بليغاً مفوهاً شاعراً محسناً سمحاً سخياً طلق اللسان .

ولا شك أن هذه الصفات الحميدة التى وصف بها ابن حبان عبد الرحمن الداخل قد استمدتها من سلوك عبد الرحمن وتصرفاته أثناء إمارته وتغلبه على المصاعب والأهوال خلال فترة حياته حتى حقق ما يصبوا إليه من إمارة قوية واسعة . وقد حملت صفات عبد الرحمن وأفعاله أبا جعفر المنصور (الخليفة العباسى) على وصفه بأنه "صقر قریش وهذا الوصف يجب أن نعرف أنه جاء من أند أعداء عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

فقد قال أبو جعفر المنصور يوماً لبعض جلسائه .أخبروني: من صقر قريش ، من الملوك ، قالوا ذاك أمير المؤمنين ، الذى راض الملوك وسكن الزلازل وأباد الأعداء وحسم الأواء ! قال : ما قلتم شيئاً : قالوا : فمعاوية ؟ .

قال : لا : قالوا : فعبد الملك بن مروان ؟ قال : ما قلتم شيئاً .

قالوا: يا أمير المؤمنين، فمن هو؟ قال: صقر قريش: عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلداً أعجيباً منفرداً بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد ودون الدواوين، وأقام ملكاً عظيماً بعد انقطاعه، بحسن تدبيره وشدة شكيمة . إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ونزلا له صعبه وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها وأمير المؤمنين عترته واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه مؤيد برأيه مستصحب لعزمه وطد الخلافة بالأندلس وافتتح الثغور ، وقتل المارقين وأذل الجبارين النافرين .

وهى - كما ذكرنا - شهامة من خصم قوى ، بل خليفة المسلمين آنذاك ، قارن فيها أبو جعفر بينه هو ومعاوية وعبد الملك وبين عبد الرحمن ، وحكم لعبد الرحمن بأنه الجدير بلقب صقر قريش لما اتصف به من صفات وقام به من أعمال (٢٥) .

وقد عمل عبد الرحمن الداخل على تغيير مفهوم الحكم بحيث يكون الإنقياد والخضوع للدولة وليس للعصبية أو القبلية وقد بذل فى سبيل ذلك جهداً كبيراً منذ دخوله قرطبة منتصراً. كما عمل على تنظيم الجهاز الحكومى فأنشأ منصب الحاجب وأسنده إلى تمام بن علقمة ثم ولاها يوسف بن بخت ، ثم عبد الكريم بن مهران ثم عبد الحميد بن مغيث ثم منصور فتاه الذى ظل فيها حتى وفاته . وكان يختص بمشورته ومهاونته فى شئون الحكم أربعة يطلق عليهم ابن عذارى لقب " وزراء " وهم : عبدالله بن عثمان ، وعبدالله بن خالد ، يوسف بن بخت، وحسان بن مالك . وقد تولى قيادة عسكره مولاة ، بدر ، وتمام بن

علقة، وعبد الملك المرواني ، وثعلبة بن عبد الحميد وغيرهم . وقد كان عبد الرحمن يتولى بنفسه قيادة الجيش في معظم الوقائع والحروب التي قامت بينه وبين خصومه. كما أسند الولاية على المدن والأقاليم والثغور إلى من يثق فيهم من مؤيديه وذوي رحمه الوافدين عليه. وسار على سياسة الاعتدال والمهادنة بالنسبة للنصارى (المستعربين) وعين رئيساً عاماً لهم باسم القمص (القمس) يقيم إلى جواره في قرطبة ويستشير في كثير من الأمور .

كذلك اهتم عبدالرحمن بن معاوية بالجيش وحشد له المتطوعة والمرتزة من كل حذب وصوب. وقد بلغت قواته نحو مائة ألف مقاتل عدا حرسه الخاص من الموالى والبربر والرقيق ويبلغ أربعين ألفاً. واهتم في أواخر عهده بالقوات البحرية فأنشأ عدة قواعد لبناء السفن في طركونة وطرطوشة، وقرطاجنة وأشبيلية وغيرها .

كما وجه عبد الرحمن الداخل عناية كبيرة لنشر العدل بين الرعية وفرض الخصومات بينها، ولقد القضاة في عهد يحيى بن يحيى التيجبي، ومعاوية بن صالح، وعبد الرحمن بن طريف، وعمر بن ثراجيل، والمصعب بن عمران، وكان له قائد خامس في سوانغه يسمى جدار بن مسلمة بن عمرو المرحجي .

رمع كثرة الأعباء التي ألقيت على كاهل عبد الرحمن بن معاوية لم يغفل الناحية العمرانية ، فاهتم بقرطبة عاصمة إمارته فحصنها بسور وجملها وأنشأ في شمالها قصراً ضخماً تحيط به الحدائق وسمى تلك الناحية بالرصافة مخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام في الشام. وقد جملها عبد الرحمن مقاماً ومنتزهاً للإمارة .

كما أنشأ في قرطبة وبقية المدن مساجد كثيرة، وفي سنة ١٧٠هـ . ٧٨٧م بدأ بإنشاء المسجد الأموي الجامع بقرطبة وكان موضعه كنيسة قوطية قديمة، وجلب إليه الأعمدة الفخمة والرخام المنقوش بالذهب واللازورد.

وقد توفي عبد الرحمن الداخل قبل اتمامه فأتته ابنه هشام وزاد فيه ولاة بنى أمية من بعده ، حتى صار أعظم مساجد الأندلس ؛ وقد أنفق عليه عبد الرحمن في عهده مائة ألف دينار. كذلك أنشأ عبد الرحمن في قرطبة داراً للسكة تضرب فيها النقود حسب ما كانت تضرب في دمشق أيام بنى أمية وزناً ونقشاً .

وحسبى فيما يتعلق بهذا الأمير الفذ أن أورد ما ذكره ابن حيان عنه: بأنه دون الدواوين، ورفع الأواوين، وفرض الأعطية وعقد الألوية، وجند الأجناد، ورفع العماد، ووثق الأوتاد، فأقام للملك آتته. وأخذ للسلطان عدته، فاعترف له بذلك أكابر الملوك والخلفاء، وحذروا جانبه، وتحاملوا حوزته، ولم يلبث أن دانت له البلاد واستقل له الأثر فيها. وقول أبي جعفر المنصور عنه بأنه "صقر قريش" أو فتى قريش الأحوزى الفذ في جميع شئونه، وعدمه لأهله ونسبه وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقه همته ومضاء عزيمته، حتى قنف في لجج المهالك لإبتاء مجده فاقتم جزيرة ضخمة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، وإستمال قلوب رعيته بقضية سياسية حتى إنقاد له عصيهم ونزل له أبيهم فاستولى فيها على أريكته ملكاً على قطيعته، قاهراً لأعدائه، حامياً لدماره، مانعاً لحوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه أن ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه .

وكان عبد الرحمن الداخل جم التواضع ، يقصد للعامة ويسمع منهم وينظر بنفسه فيما بينهم ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلماته إليه دون مشقة . وكان من عادته أن يأكل معه من أصحابه من أدرك وقت طعامه خاصة طلاب الحوائج .

أمراء الأندلس من بني أمية بعد عبد الرحمن الداخل :

أولاً : هشام بن عبد الرحمن :

تولى إمارة الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الداخل ، ابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م) بعهد من أبيه . وكان لعبد الرحمن الداخل أحد عشر ولداً ، فأثر هشام عليهم بولاية العهد لإقتناعه بأنه الجدير بولاية العهد من بين أبنائه . ويتفق على إسناد العهد إليه ابن الأثير وابن خلدون والمقرئ . وكان هشام حين وفاة أبيه مقيماً بماردة مقر ولايته ، وكان أخوه عبد الله المعروف بالبلنسي حاضراً بقرطبة لدى والده ، وكان أكبر إخوته سليمان بمدينة طليطلة والياً عليها . فلما توفي عبد الرحمن جدد عبد الله البيعة لأخيه هشام بعد أن صلى على والده ، وكتب إلى أخيه هشام يعرفه بموت والده والبيعة له ، فتوجه هشام إلى قرطبة فدخلها بعد ستة أيام ، وتولى مقاليد الإمارة وبايعه الخاصة والعامة (٣٦) .

بينما لابن عذارى رأى آخر في ولاية هشام بعد أبيه إمارة الأندلس ، فهو ينكر - أي ابن عذارى - في قوله : وقيل أن عبد الرحمن بن معاوية لما حضرته الوفاة وابنه هشام بماردة وابنه الآخر سليمان بطليطلة ، وكل ابنه عبد الله المعروف بالبلنسي وقال له : " من سبق إليك من أخويك فارم له بالخاتم والأمر ، فإن سبق هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه . وإن سبق إليك سليمان فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له " . وهذا الرأي يناقش للرأي السابق من تفضيل هشام على سائر أبناء عبد الرحمن . وهو ما نميل إليه لأن عبد الرحمن بن معاوية كان لا يمكن أن يترك أمر الإمارة يتحكم فيها من سبق إلى قرطبة . ثم أن عبد الرحمن لا يترك أمر الإمارة فارغاً فيحدث ذلك فتنة بين الأبناء والرعية .

الصعاب التي واجهت هشام بن عبد الرحمن الداخل :

رغم حرص عبد الرحمن الداخل على عدم ترك شئون الإمارة شاغراً بعد وفاته وحدد لها ابنه هشام منعاً للفتنة بين أبنائه. إلا أن أخيه سليمان الأكبر منه وأمير طليطلة ثار عليه ودعا لنفسه فيها وفيما جاورها ، ثم لحق به أخوه عبدالله البلنسى فى طليطلة : ولكن سليمان خرج مستخفياً إلى قرطبة ليتولى الأمور فيها ، غير أنه لم ينجح ذلك أن هشام أرسل إليه ابنه عبد الملك فى جيش لمطاردته ، ففر إلى ماردة فطارده عامل هشام فلجأ إلى تدمير (مرسية) . وبعد حصار دام شهرين لطليطلة ، عاد هشام إلى قرطبة ، وشعر عبد الله بفشل الثورة فقدم إلى قرطبة وإعتذر لأخيه هشام فعفى عنه وأكرم مثواه . وأرسل هشام جيشاً إلى تدمير بقيادة ابنه معاوية لتعقب أخيه سليمان وضيق عليه الخناق حتى طلب الأمان فأمه ، على أن يعبر بأهله وولده إلى بلاد المغرب وأعطاه ستين ألف دينار مصالحة على تركه أبيه عبد الرحمن ، ورافقه إلى المغرب أخوه عبدالله ، وأقام بعدوة المغرب ، وانتهت بذلك ثورة الأخوين سنة ١٧٤ هـ / ٧٩٠ م .

غير أن هشام واجب ثورة أخرى من قبل سعيد بن الحسين الأنصارى بطرطوشة، وكان قد إلتجأ إليها حين قتل أبوه ، وإلتفت حوله اليمينية ، وأخرج عامل هشام يوسف العيسى فعارضه موسى من المضربية داعياً لهشام حتى تمكن منه وقتله . كما ثار عليه مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة وكثر جمعه فاستولى على سرقسطة ووشقة ، فبعث إليه هشام جيش على رأسه عبيد الله بن عثمان وضيق الحصار على سرقسطة حتى شاق أهلها نزعاً بالحصار ، فحرد مطروح فى بعض الأيام تصيداً فاغتاله أصحابه عمرو بن يوسف وابن صلتان وجزّ رأسه وقدماه إلى بن عثمان الذى تقدم إلى سرقسطة فدخلها وبعث الرأس إلى هشام سنة ١٧٥ هـ / ٧٩١ م . وانتهت بذلك الثورة فى الشمال .

وهناك ثورة أخرى قام بها البربر في منطقة رندة المعروفة باقليم تاكرنا سنة ١٧٨هـ / ٧٩١ م ، حيث خلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد فدعاهم هشام إلى الطاعة فلم يمتثلوا فسير إليهم جيشاً كبيراً بقيادة عبد القادر بن إبان مولى معاوية بن أبي سفيان فشنت جموع البربر وقتل كثير منهم وضرب ديارهم حتى صارت بلقعا سبع سنين ، فاستقرت الأمور الداخلية في البلاد .

هشام بن عبد الرحمن وحروبه في الخارج :

كانته الثورات الداخلية التي قامت في الأندلس أيام عبد الرحمن وهشام دفاعاً عن الدولة والإمارات المسيحية في الشمال لكي يغيروا على حدود الأندلس ويقتطعوا منها الأجزاء . كما كان لبعض هذه الدول أصابع في تحريك بعض هذه الثورات وتشجيعها على مواصلة الفتنة . لذلك كان على هشام بن عبد الرحمن الداخل ، بعد أن استقرت أموره الداخلية ، أن يتوجه بجيوشه إلى تلك الدول التي تعمل على إثارة الفتنة الداخلية وإضعاف قوة المسلمين (٣٧) .

ففي سنة ١٧٥هـ / ٧٨٨ م سير هشام إلى الشمال جيشاً كبيراً بقيادة عبيد الله بن عثمان فوصل إلى إلبة والقلاع حيث اصطدم بالنصارى فهزمهم وشنت شملهم وقتل منهم خلق كثير . كما سير في نفس العام جيشاً آخر بقيادة يوسف بن بخت متوجه إلى جليقية حيث التقى بملكها برمود الكبير ملك إستورس حيث دارت معركة ضارية انتصر فيها المسلمون وقتلوا وغنموا منهم الكثير (٣٨) .

أما في عام ١٧٧هـ / ٧٩٣ م أعد هشام جيشاً كبيراً بقيادة حاجبه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث فتوجه إلى الشمال فوصل إلى جرندة وكان بها حامية الفرنج فقتل رجالها وهدم أسوارها وأبراجها وفتحها ثم استولى على عدد من المعاقل والحصون ونفذ إلى سبتمانيا وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامي القديم فاستولى عليها وبقي الجيش شهوراً يجوس خلال بلادهم يخرب الحصون ويحرق ويغنم . وفر العدو من أمامه ، ثم عاد الجيش إلى قرطبة

ظافراً محملاً بالغنائم التي بلغت خمس السبي فيها خمسة وأربعون ألفاً من الذهب ، وتعد هذه الغزوة من أشهر مغازي المسلمين في بلاد الأندلس حيث أرغم أسرى النصارى على حمل وجر أحجار من سور أربونة حتى قرطبة وقد بنى منها جزء من جامع قرطبة تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.

أما في عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م ، أرسل هشام جيشاً ضخماً إلى جليقية بقيادة كريم بن عبد الواحد بن مغيث فتوغل في جليقية حتى بلغ أسترقة وكان الفونس ملك جليقية قد استعد للقاء المسلمين بالصعود إلى الجبال ووضع كمائن ضخمة واستعان بحلفائه من البوشكنس ، وحرص على أن يؤخذوا المسلمين على غرة منهم ، ولكن قائد المسلمين أدرك خطة العدو فقدم قائده فرج بن كنانة في أربعة آلاف فارس بقيادة غندمارة فانتصر المسلمون عليهم وأسروا قائدهم ، ثم تتبعوا ملكهم حتى وصل إلى عاصمة ملكه، فتتبعه فرج بن كنانة في عشرة آلاف فارس ، فلما قرب منه انهزم وأسلم جميع عدته ونخائره فغنمها المسلمون ثم عادوا إلى قرطبة بعد أن مزقت قوى الجلافة وساد الأمن بذلك في الولايات الشمالية (٣٩) .

إصلاحات هشام بن عبد الرحمن الداخل :

لم تكن الثورات والحروب والمعارك الداخلية والخارجية عائقاً في سبيل قيام هشام بإصلاحات داخلية في الأندلس .

ففي عهده تمكن من القضاء على الفتن والثورات الداخلية فساد الأمن والاستقرار في ربوع الأندلس ، وحوى حدود الدولة ورفع راية الجهاد ووجه الحملات المتتالية إلى الأعداء في الشمال فارتفعت راية الإسلام عزيزة قوية ومهابة . ولم يستشهد في عهد هشام أحداً من جنده في شئ من ثغوره أو جيوشه إلا نادراً .

وقد اهتم هشام بالعمارة فآتم مسجد قرطبة الجامع الذي كان قد بدأ بناءه والده عبد الرحمن . كما أنشأ عدد من المساجد الأخرى وزين قرطبة بعدد من

الأبنية والحدائق الضخمة، كما قام بتجديد قنطرة قرطبة وأنفق في بنائها أموالاً عظيمة واشرف على بنائها بنفسه. كذلك في عهده جعلت اللغة العربية لغة التدريس ومعاهد النصارى واليهود. وكان لذلك أثر عميق في التقريب بين أصحاب المذاهب المختلفة وبث روح التفاهم والوئام بينهما ولا سيما بين المسلمين والنصارى مما جعل كثيراً من النصارى يدخلون في دين الإسلام بعد أن وقفوا على أصوله وتفاصيله وقربت مسائل الخلاف بينهم وبين الفاتحين^(٤٠).

كذلك عمل هشام على بث العدل ونشره في ربوع البلاد متحريراً الحكم بالسنة والكتاب فقبض الزكاة من طرقها ووقعها في حقها، لم يأخذ في الله لومة لائم، ولا تعلق به ظلم. وكان يبعث إلى الكور قوماً عدولاً يسألون الناس عن سير العمل حتى ينتشر العدل. ومما يدل على انتشار العدل في عهده أنه كان لبعض رجال هشام خصومة في دار عند القاضي مصعب بن عمران فسجل عليه القاضي فيها وأخرجه منها فنهض الرجل إلى هشام وقال له: إن الرجل سجل على في دارى التى كنت أسكنها وأخرجنى منها. فقال له هشام: وماذا تريد منى؟ والله لو سجل على القاضي في مقعدى هذا لخرجت عنه انقياداً منه للحق^(٤١).

وفى عهده أيضاً ذاع مذهب الإمام مالك الذى كان معاصراً له. وكان هشام كثير الإحلال لمالك ومذهبه فانتشر مذهب مالك في الأندلس، وكانوا قبل ذلك يعملون بمذهب الأوزاعى إمام أهل الشام. وقد قرّب الفقهاء ورجال السدين وأسند إليهم كثيراً من المناصب. وكان صاحب شرطته عبد الغفار بن أبى عبيدة. ووزراءه ثمانية، وكتّابه إثنان: فطيس بن عيسى وخطاب بن زيد. وقاضيه المصعب بن عمران.

وتوفى هشام في صفر سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦ م، وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام^(٤٢) وكان متصفاً بالرأى والشجاعة والعدل وحب أهل الخير والصلاح والشدة على الأعداء والرغبة في الجهاد.

ثانياً : الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية :

تولى بعد هشام بن عبد الرحمن إبنه الحكم بعهد منه فى صفر سنة (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) وكان عمره آنذاك ست وعشرون سنة ، وهو ثالث أمراء بنى أمية بالأندلس ، وقد عمل على حماية الدولة ونشر الأمن فيها ، وحارب الثوار فى الداخل وتصدى للمهاجمين من الخارج بجيش قوى أعده لذلك ، وحرص على العدل والإنصاف بين الرعية حتى أذغنت له الأندلس كلها بالطاعة ولم يختلف عليه فيها مختلف .

موقف الحكم بن هشام من المعارضين له :

لم يسلم الحكم بن هشام فى فترة حكمه التى امتدت قرابة سنة وعشرون عاماً من ثورات بعض الحاقدين والناقمين على حكم بنى أمية فى الأندلس . وكانت أولى هذه الثورات التى واجهها الحكم عقب توليه الإمارة ثورة أعمامه سليمان وعبيد الله اللذين كانا قد نفيا إلى المغرب فى عهد أبيه هشام بن عبد الرحمن وعقب تولى الحكم الإمارة، عبر عبد الله البحر من المغرب إلى الأندلس قاصداً الثغر الأعلى الذى يضم أهله كراهية للحكم الأمير الجديد ، فنزل سرقسطة عند بهلول بن مرزوق الناصر على الأمير الحكم بن هشام سنة ١٨١ هـ / ٧٩٧ م ، ولكنه لم يجد هناك من يؤيده لمبايعته وعزل الحكم، فعبر جبال البرنية إلى بلاد الافرنج - أى بهلول - قاصداً شارلمان. أما أخيه سليمان -أى أخو عبد الله - فقد عبر إلى الأندلس سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، واستطاع أن يجمع جيشاً ليهاجم به قرطبة . ولكن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن تمكن من التغلب على عمه سليمان فعاود سليمان القتال والتقى مع الحكم فى طنجة فهزم سليمان . ولكنه مع ذلك عاود القتال للمرة الثالثة جمع جيشاً من البربر سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م وتوجه إلى استجه فسار إليه الحكم ، ودارت بينهم حروب شديدة لعدة أيام ثم انهزم سليمان مرة أخرى .

ثم عاود القتال مرة أخرى فهزم كذلك . وفي سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م حشد سليمان جيشاً من شرق الأندلس واستولى به على جيان ثم البيرة وانضم إليه جماعة من سكانها فقصده الحكم بجيشه وقد تغلب في نهاية الأمر على عمه سليمان الذي فرّ من المعركة بعد أن خلف وراءه عدداً كبيراً من أنصاره. وبعث الحكم بن هشام في أثره أصبغ بن عبد الله بن وانوس فلحقه جهة ماردة وقبض عليه وأتى به إلى الحكم فأمر بقتله سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م وطيف برأسه في قرطبة ثم أمر الحكم بدفن عمه سليمان في مدافن الأسرة في قرطبة . أما عبد الله بن عبد الرحمن الذي كان قد توجه إلى شارلمان ، فقد عاد من بلاد الفرنجة متوجهاً إلى بلنسية حيث أيده أهلها فأقام بها شبه مستقل بعد أن عفا عنه الحكم بن هشام وصالحه سنة ١٨٦ هـ / ٨٠٣ م على أن يقيم بقية حياته في بلنسية وتجري عليه أرزاقه ، وقد ظل بها حتى عرف بعبد الله البلنسى. وبعث عبد الله إلى الحكم بن هشام بابنه عبيد الله فزوجه الحكم أخته وولاه قيادة جيوشه ، فعرف بصاحب الصوائف . وتخلص الحكم بن هشام بذلك من أولى الثورات المعارضة لحكمه والتي أثارها الأحقاد العائلية للسيطرة على الحكم من قبل عمه سليمان وعبد الله .

ما كاد ينتهي الحكم بن هشام من القضاء على ثورة أعمامه حتى قامت ضده ثورة أخرى في ماردة بقيادة أصبغ بن عبد الله أثارها نار الفتنة التي أوقعت بين الحكم والأصبغ، مما دفع الأخير للجوء والتحصن في ماردة معتمداً على التفاف البربر من حوله ، ولكن الحكم بن هشام حاصره ، واستمر الحكم يحاصر الأصبغ في ماردة مدة سبع سنين بسبب فتنة أخرى كانت قد قامت في قرطبة ضد الحكم . ولكن جماعة من النفاة والإخلاص تدخلوا بين الحكم والأصبغ حتى استجاب لهم الحكم بن هشام وفك الحصار عن الأصبغ بعد أن أمنه على نفسه ثم عاد إلى قرطبة^(١٣).

غير أن مكنم الخطر الدائم والمستمر على حكم الأمويين في قرطبة كان يأتيهم دائماً من طليطلة، مركز الثوار الدائم ضد الأمويين ذلك أن المولدين في طليطلة كانوا دائمي الثورة ضد الأمويين. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى عدة أسباب، منها أنها - أي طليطلة كانت دار ملك القوط الغربيين (الوندال) مما يدعوهم إلى التمرد والخروج المستمر؛ كذلك ماكانت تتمتع به المدينة من حصانة وكثرة أهلها الذين يعتزون بثروتهم ويتطلعون دائماً إلى عودة مدينتهم إليهم خاصة النصارى منهم. ولذلك في سنة ١٩١هـ/٨٠٨م ثار فيها عبده بن حميد، وتمكن عمرو بن يوسف حاكم البيرة وهو من المولدين من القضاء عليه بطريق الغيلة بعد وقائع عدة خاضها ضده فسكنت الثورة فيها، ولكن إلى حين مما دعا الحكم أعمال الحيلة في الظفر بهم، واستعان بعمرس بن يوسف من أهل وشقة الذي ظهر في الثغر الأعلى وأعلن انقيادة للحكم وتأبيده له، وبألف في إكرامه وأطلعه على عزمه بالإيقاع بأهل طليطلة فواطأه على التدبير عليهم فولاه طليطلة وكتب إلى أهلها يقول: "إني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم ولتطمئن قلوبكم إليه، وأعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليينا ولتعرفوا جميل رأينا فيكم" ودخل عمروس طليطلة وتظاهر لأهلها ببغضه لبني أمية فاستمال الأهل بها إلى جانبه. وأنشأ بموافقتهم قلعة حصينة في ظاهر طليطلة لإيواء الجند والموظفين فيها بعيداً عن أهل المدينة، وحرصاً على راحتهم، ثم سير الحكم جيشاً بقيادة ولده عبد الرحمن بن الحكم لقتال نصارى الشمال في الظاهر ثم عرج هذا الجيش أثناء العودة على طليطلة والتقى وعمرس بالقلعة وقرروا دخول المدينة معاً بعد إخداعهم بإقامة وليمة لهم - أي لأهل وكبراء المدينة، وكان كلما دخل فوج من باب لتناول طعامهم ضرب أعناقهم عند باب آخر وألقيت جثثهم في حفر كبيرة أعدت لذلك، وأصوات الطبل والمزامير تحول دون سماع استغاثتهم؟! فلما تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحداً، فقال أين الناس، فقيل أنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الباب الآخر، فقال ما

لقينى منهم أحد وعلم بالمكيدة ، فأعلم الناس هلاك أصحابهم فنجى من بقى منهم . وهلك فى تلك المذبحة التى عرفت "بواقعة الحفرة " سنة ١٩١هـ / ٨٠٨م. عدد كبير من وجهاء طليطلة وأعيانها يقدره بن عذارى بسبعمائة وابن القوطية وابن الأثير بخمسة آلاف ، وكانت طعنة قوية للمدينة الثائرة دائماً ، قضت على زعمائها وأضعفت شأنها فحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم الأموى خاصة أيام الحكم وولده عبد الرحمن^(٤٤).

لم تتوقف الثورات ضد الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية وكانت الثورة الثالثة أيضاً هى أشدها وأقواها وعرفت بثورة الربض ، والتى كادت تطيح بالحكم بن هشام ، اشترك فيها رجال الدين إلى جانب الأعيان ، معترضين على شدة بأس الحكم بن هشام وفساد إدارته ، حتى أن رجال الدين رموه على المنابر بالفسوق والخروج على أحكام الدين ، فاتفقوا على خلعه والمبايعة لمحمد بن القاسم القرشى المروانى ، ولكنه افشى سرهم للحكم بن هشام، مما دفع الحكم إلى إلقاء القبض على المتآمرين والذين بلغ عددهم اثنين وسبعين وقد أمر بصلبهم على شاطئ النهر تجاه القصر فارتاع الناس لذلك^(٤٥).

تكررت الثورة فى الربض مرة أخرى بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً وكانت أخطر من سابقتها ، وكان ذلك فى رمضان سنة ٢٠٢هـ / ٨٢١ م . ويشير ابن الأثير هنا إلى أن أسباب تلك الثورة الربضية يرجع إلى سلوك الحكم بن هشام المشين، ذلك أنه قيل أن الحكم بن هشام لجأ فى أيامه الأخيرة إلى الميل لحياة الدعة والترف والمجون فصار يغط فى اللهو والصيد والشرب ، حتى أن الغوغاء والعوام من الناس كانوا ينادونه " بالمخمور " فطالبوا بإنقضاء الأذان والصلاة ، ووصلت الأمور غى أن بعضهم شافهه بالقول ، وصفقوا عليه . كذلك كان من أسباب الثورة الربضية الثانية تشدد الحكم بن هشام فى جمع ضريبة العشر على المواد الغذائية كل عام دون إعلان مسبق أو محدد.

ولكن ابن عذارى يشير إلى اختلاف الروايات في ثورة الربض فيقول: "إن ذلك النهج كان أصله الأشر والبطر، إذ لم تكن ثم ضرورة من إجحاف في مال، ولا انتهاك لحرمة، ولا تعسف في ملكه، والحال تدل على صحة ذلك: فإنه لم يكن على الناس وظائف ولا مغارم ولا سُخر ولا شئ يكون سبباً في خروجهم على السلطان، بل كان ذلك أشراً وبطراً وملاً للعافية، وطبعاً جافياً، وعقلاً غيبياً، وسعيّاً في هلاك أنفسهم. أعاذنا الله من الضلال والخذلان وأسباب البور والخسران (٤٦) .

وإن دل هذا على شئ إنما يدل على انتقاص العامة والغوغاء من سلطة الأمير، والغض من مكانته ، حتى أننا يمكن أن نطلق على ثورة الربض هذه بـ " ثورة العامة " مما دفع الحكم بن هشام إلى تحصين قرطبة وعمارة أسوارها وبربط الخيل على بابه (أى حراستها) واستكثر من الممالك، ورتب جمعاً لا يفارقون باب قصره بالسلاح فزاد ذلك من حقد أهل قرطبة وبغضهم له .

وتحكي بعض الروايات (٤٧) أن أسباباً أخرى أدت إلى ثورة أهل الأرباض، تقول: إن أحد المماليك الخاصة بالحاكم بن هشام ذهب إلى حداد ليصقل سيفه، فمأطله الحداد وتشاجرا فقتل المملوك الحداد، فثار أهل العامة والغوغاء والدهماء من الناس واجتمع أهل الأرباض بالسلاح. وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبي في الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة "شقندة" وزحف الثوار إلى قصر الإمارة من كل ناحية، واجتمع الجند وتبعهم كثير من المتطوعين ، فالتقوا مع الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن ينالوا من بلاد المسلمين شيئاً ودارت بينهم حروب شديدة ثبتت الله فيها أقدام المسلمين وأنزل نصره عليهم ، فانهزم الفرنج وكثر القتل فيهم والأسر ، واستولوا على أموالهم وعتادهم ، وعاد المسلمون ظافرين غانمين .

وفى أثناء انشغال الحكم بن هشام بالقضاء على ثورة ماردة تحرك ملك صقلية " الفونس الثانى " بحملات متوالية على أراضى المسلمين فى الأندلس ، وعاث فيها سلباً ونهباً وقتلاً . وكانت حملاته موجهة إلى الثغر الأندلسى بين نهري دويرة والتاجة . وعانى المسلمون فى هذه الأنحاء من غزوات النصارى المتتالية وصاحت امرأة فى وادى الحجارة تقول : " واغوثاه ياحك قد ضيعتنا وأسلمتنا واشتغلت عنا حتى استأسد العدو علينا " (٤٨) .

ربما وصل إستغاثه هذه المرأة أسماع الحكم بن هشام مما دفعه لأن يحشد جنوده وسار بنفسه إلى أراضى جليقية سنة ١٩٦هـ / ٨١٣ م وأوغل فى بلادهم وافتتح الحصون وهدم المنازل وخرب البلاد ونهبها وقتل الرجال وسبى الحريم وقصد أهل الناحية التى كانت المرأة المستغيثة فيه . وقدم لهم الكثير من الغنائم التى استولى عليها . وقال للمرأة وسكان تلك الناحية : هل أغاثكم الحكم بن هشام ؟ فقالوا : شفا والله الصدور ونكى فى العدو وما غفل عنا إذ بلغه أمرنا فأغاثه الله وأعز نصره .

وفى سنة ١٩٩هـ / ٨١٧ م ارسل الحكم جيشاً إلى برشلونة فى الثغر الأعلى بقيادة عمه عبد الله البلبسى وكان الفرنج قد استولوا عليه ، فدارت بينهم للمعارك انتصر فيها المسلمون وقتلوا منهم عدداً كبيراً .

على أن آخر غزوة قام بها المسلمون فى الشمال فى عهد الحكم بن هشام سنة ٢٠٠هـ / ٨١٦ م . إذ أرسل الحكم حاجبه عبد الكريم بن مغيث إلى جليقية فى جيش ضخم ، فتوغل فيها وأهلك معائشها ومرافقها وحطم زروعها وهدم منازلها وحصونها انتقاماً لما أنزلوه بالمسلمين . وقد تجمع الجلائقة وحلفاؤهم البشكنس ونزلت بعدوة نهر أرون وصار النهر حاجزاً بينهم وبين المسلمين فلما أصبح الصبح حتى نهض عبد الكريم بمن معه إلى مخاض الوادى ونهض أعداء الله إليهم فقاتلوه على كل مخاضة منها فجالدهم

المسلمون عليها مجالدة الصابرين المحتسبين ، واقتحم أعداء الله النهر إليهم فاقْتتلوا على مخاضة . ثم حمل المسلمون عليهم حملة رجل واحد ، فأدخلوهم في المضايق ، وأدخلوهم على غير طريق فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح والغرق في المياه فقتل من العدو عدد كبير اليعد ولايحصي ، ومات أكثرهم اتردى ، وداس بعضهم بعضاً ، وأسر المسلمون من ملوكهم وقمامصتهم ، وعاد الفرنج يلزمون جانب النهر يمنعون المسلمون من جوازه ، ومكثوا على ذلك ثلاثة عشر يوماً يقتتلون كل يوم ، ثم كثرت الأمطار وهطلت فزاد النهر مياهه وتعذر جوازه فعاد عبد الكريم بالجيش ظافراً إلى قرطبة سابع ذى الحجة ٢٠٠هـ / ٨١٩م .

الإصلاحات الداخلية في عهد الحكم بن هشام الأموي بالأندلس :

على الرغم من تعدد الثورات الداخلية والانقلابات التي قامت ضد الحكم بن هشام في الأندلس ، وكذلك ما كان يحاك بين العناصر الداخلية والفرنج بالخارج ضده طوال فترة حكمه تقريباً ، إلا أن ذلك لم يقف حائلاً في قيام الحكم بن هشام بالعديد من الإصلاحات الداخلية والتي من أهمها : الجيش : نقول أن الحكم كان أول من جند بالأندلس الأجناد المرتزقة وجمع الأسلحة والعتاد . واستكثر من الحشم والحواشي وارتبط الخيول على بابيه ، واتخذ المماليك وكان يسميهم الخرس لعجمتهم (لكونهم أعاجم) وبلغت عدتهم خمسة آلاف ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وكان له عيون يطالعونه أمور الناس ، وكان يقرب العلماء والفقهاء والصالحين . وهو الذي وطأ الحكم لعقبة بالأندلس . ولا شك أن ذلك يدل على اهتمامه بالجيش وشئون رعيته وحمايتها ومعرفة أحوالها حتى يمكن قضاء مطالبها ونشر الأمن في ربوعها^(١٩) .

ومن الناحية الاجتماعية : نجد أنه اهتم بنشر العدل وسيادة الإنصاف بين الرعية ، وكان يقول : " ما تحلى الخلفاء بمثل العدل " وكان يسلط قضاته وحكامه على نفسه فضلاً عن ولده وخاصته وسنذكر حائثتين تدل على واقعية

هذه الصفات . فقد ذكر صاحب أخبار مجموعة : أن رجلاً من أهل كورة جيان إغتصب بعض عمال الحكم جارية له ، فلما عزل العامل قدم الجارية إلى الحكم بن هشام ، فما صارت عنده واتصل بالرجل المنصوب حال القاضي في أحكامه وإستخراج الحقوق للرعية من يد الحكم بن هشام وخاصته وأهلهم ، فأتى الرجل إلى القاضي وهو مصعب بن عمران وشرح له خبره ، فدعاه إلى إقامة البينة فشهد له من قبل علمه على المعرفة بما قال به وتظلم منه ، وعلى معرفة عين الجارية فأوجببت السنة أن تحضر الجارية . فاستأذن القاضي للدخول على الحكم بن هشام فلما صار عنده قال : أيها الأمير إنه لا يتم عدل في العامة دون إقامته في الخاصة وحكى أمر الجارية وخبره في إخراجها وإيرازها للسنة أو عزله عن القضاء فقال : أو خير من ذلك تباع من صاحبها بأنفس ثمنها وأبلغ ما يسأله فيها . فقال : إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق في مظلمة؛ فما صاروا بفنائك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله فلعل قائلًا أن يقول : باع ما لم يملك ببيع متفسر على نفسه ولا بد من إيراز الجارية أو تصير أمرك إلى من أحببت .

فلما رأى عزمه أمر بإخراجها من قصره وكانت قد وقعت من نفسه موقعاً، فشهد على عينها وقضى بها لصالحها. ثم قال له: "إياك وبيعها إلا في بلدك لتقوى بذلك الرعية على طلباتهم. وبيعهم على إستخراج حقوقهم" (٥١).

هذه الحادثة وقعت مع الحكم بن هشام ونفذ القاضي حكمه عليه، وكان القاضي صريحاً في أن يقيم العدل أو يعتزل القضاء واستجاب الحكم بن هشام لما حكم به القاضي .

أما الحادثة الثانية فيذكرها صاحب أخبار مجموعة أيضاً فيقول: "كان عباس بن عبد الله بن مروان القرشي من الخاصة بالأمير الحكم بن هشام والمنزلة عنده بحيث لم يدانيه أحد في زمانه. فقام عليه رجل في ضيعة كانت له

تحت يده فأثبتتها عند محمد بن بشير القاضي. فلما علم القرشي أن القاضي عزم على أن يوجه الحكم عليه عاز بالأمير الحكم بن هشام وإشتكى إليه ما ناله من القاضي وسأله صرفه إلى غيره ، فقال له الحكم : إن كان حقاً ما تقول فإمض بنفسك إليه في داره وهو غير قاعد للحكم فإن أخلاك نفسه وأدخلك عليه فقد صدقناك وعزلناه. فقال : أفعل ، فوكل به الأمير الحكم بن هشام بعض فتيانـه ليمتحن ما يكون من القاضي . فخرج القرشي والأزقة تغض بموكبه حتى أتى باب القاضي فقرر الباب فخرجت إليه عجوز فأعلمها بنفسه وأمرها أن تستأذن له عليه. فلما علم به نهر العجوز وقال لها : قولي له إن كانت له حاجة فتكن في المسجد مع طلاب الحوائج حتى أخرج إليك ، فليس إلى ادخالك من سبيل، فتردد عليه وألحف؛ فلم يأذن له. فرجع الفتى إلى الحكم بن هشام فأعلمه بما كان من القاضي فطار به سروراً^(٥٢) .

هاتان الحادثتان تؤكدان على حرص الحكم بن هشام على سيادة العدل بين الرعية، وأن الحاكم والمحكوم أمام العدل سواء، لا فض لأحد على الآخر أمام كتاب الله وسنة نبيه .

وما نسوق الحادثتين للتسلية ، ولكن لتوثيق ما نقول في العدل في عهد الحكم بن هشام ومدى تفعيله عملياً .

وعندما وقعت المجاعة الشديدة في الأنـدلس سنة ١٩٩ هـ / ٨١٨م وعانى المسلمون منها ضروب الحرمان والبؤس ومات كثير من الناس جهداً . بادر الحكم بن هشام إلى تخفيف ويلاتها عنهم ففرق عليهم الأموال الكثيرة حتى انكشفت غمتها وعادت الحياة إلى سيرتها الأولى .

وكان يتولى الحجابة للحكم بن هشام ، عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ووزراؤه وقواده خمسة ؛ إسحاق بن المنذر ، والعباسي بن عبد الله ، وعبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، وفطيس بن سليمان، وسعيد بن حسان،

وكتابه ثلاثة: فطيس وخطاب بن زيد، وحجاج بن العقيلي، وقضاته: مصعب بن عمران، ومحمد بن بشير. والفرنج بن كنانة، وبشر بن قطن، وعبيد الله بن موسى، ومحمد بن تليد، وحامد بن محمد بن يحيى (٥٣).

نهاب الحكم بن هشام :

وفى سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢م اشتد مرض الحكم بن هشام فأخذ البيعة لابنه عبد الرحمن ، ثم للمغيرة من بعده . وكان ذلك فى الحادى والعشرين من ذى الحجة سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٢م ، حيث توفى الحكم بن هشام يوم الخميس ٢٦ ذى الحجة من نفس العام وعمره اثنتان وخمسون سنة، وصلى عليه ابنه عبد الرحمن ودفن فى مقبرة القصر المعروف بالروضة : بعد حياة حافلة بالكفاح المستمر دعم به دولته ووطد أركانها فى الداخل والخارج على السواء .

ثالثاً : عبد الرحمن بن الحكم بن هشام فى الأندلس :

هو رابع أمراء بنى أمية فى الأندلس ، وقد ولد فى طليطلة سنة ١٧٦هـ / ٧٩١م عندما كان والده والياً عليها ، ويسمى بعبد الرحمن الثانى وعبد الرحمن الأوسط، والأول هو جده عبد الرحمن بن معاوية مؤسس الحكم والدولة الأموية بالأندلس، والثالث هو عبد الرحمن الناصر الذى سنتحدث عنه مستقبلاً فى الفصل القادم ، حيث يقيم الخلافة الأموية بالأندلس.

على أية حال ، تولى عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) الإمارة بعد وفاة والده أواخر ذى الحجة (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢م). بعهد من والده. وقد عنى به والده وتربيته والاهتمام بإعداده للإضطلاع بالمهمة التى ستلقى على كاهله من بعد وفاة أبيه : فكان يسند إليه أعمال الحكم المختلفة ، وينيبه عنه أثناء غيابه أو مرضه . وقد أكسبه ذلك خبرة بشئون الحكم والإدارة ، فأحسن اختيار الرجال لمعاونته من الوزراء والولاة والقادة والقضاة. وقد استمر فى الحكم قرابة اثنين وثلاثين عاماً حافظ فيها على الدولة الإسلامية فى

الأندلس ، وقضى على الثورات والفتن الداخلية وتم فى عهده كثير من الإصلاحات والمنشآت ، وانتشر الأمن وساد الرخاء ، وازدهرت الحياة ، ونمت الحضارة بثتى مظاهرها المادية والمعنوية هناك (٥٤) .

عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) وإخماد الثورات والفتن :

من الغريب أننا نلاحظ فى تلك الإمارة الأموية بالأندلس أن الثورة الأولى مع بداية ولاية كل أمير تكون من البيت الحاكم نفسه . وذلك ليس إلا حرص القائمين بالثورة من البيت الأموى إلا الإستيلاء على السلطة ، خاصة الأعمام الذين يعتقدون أنهم أحق بالإمارة من هؤلاء الأبناء الصغار (من وجهة نظرهم) وأن الحكم لا يجب أن يقتصر على البيت الحاكم فقط ، بل يجب أن يتداول بين الأهل والأقارب .

وعلى هذا نجد - كالعادة - الثورة الأولى هنا ضد عبد الرحمن بن الحكم (الثانى) أو الأوسط . كانت من قبل عم أبيه عبد الله البلنسى، الذى كان قائماً على تدمير (مرسية) وإلقت حوله جمع أراد التوجه به إلى قرطبة فتجهز له عبدالرحمن بن الحكم واستعد لملاقاته: فلما بلغ ذلك عبد الله البلنسى خاف وضعفت نفسه، فرجع إلى بلنسية، ومات أثر ذلك، ونقل عبد الرحمن الثانى أولاده وأهله إليه بقرطبة؛ وخلصت الإمارة بالأندلس لولد هشام بن عبدالرحمن.

وتستمر الثورات والإضطرابات من داخل البيت العربى ضد الأمراء الأمويين فى الأندلس ، ومن ذلك فى عام ٢٠٧هـ / ٨٢٣ فتنة بين القبائل المضرية واليمنية بسبب قتل يمانى لمضرى أخذ ورقة دالية من جنان اليمنى فاستفحل الشر بينهما ، وكانت بينهم موقعة بلورقة تعرف بيوم المصارة قتل منهم فيها ثلاثة آلاف رجل. فوجه إليهم عبد الرحمن ابن الحكم (الثانى أو الأوسط) قائده يحيى بن عبد الله بن خلف فى جيش . فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى تفرقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة والاقتيال . وقد

تزعم اليمانية أبو الشماخ واستمرت الفتنة سبع سنين. وكانت الدائرة تدور على اليمانية والقنلى منهم حتى فنى من المسلمين خلق كثير، ولم تهدأ الفتنة إلا فى ٢١٣هـ / ٨٢٩م. عندما أرسل الأمير قائده أمية بن معاوية بن هشام فتغلب عليهم وخضع أبو الشماخ وغيره من الزعماء وطلبوا الأمان وعادوا إلى الطاعة وصار أبو الشماخ من ولاية الأمير عبد الرحمن الثانى وثقاته وقد أمر الأمير بهدم آلة حاضرة تدمير التى انبعثت منها إلى الفتنة، وصارت مرسية (تدمير) مقراً لوالى تدمير (٥٥).

وفى سنة ٢١٣هـ / ٨٢٣ م ، ثار أهل ماردة على عاملهم وقتلوه - بقيادة محمود ابن عبد الجبار البربرى وسليمان بين مرتين من المولدين - وعاثوا فى الأرض فساداً فسير إليهم عبد الرحمن جيشاً فحصرهم فأفسد زرعهم وأشجارهم ، فعادوا إلى الطاعة وأخذت منهم رهائن لضمان طاعتهم وخرب سور المدينة كي لا يعودوا إلى المعصية أبداً. ثم طلب عبد الرحمن الثانى - الأوسط - أن تنقل حجارة السور إلى النهر حتى لا يطمع أهلها فى عمارة السور مرة ثانية . فما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان ، وأسروا العامل عليهم وجددوا بناء السور وأتقنوه . فسار إليهم عبد الرحمن الثانى بجيوشه سنة ٢١٤هـ / ٨٢٤م ومعه رهائن أهلها فافتك العامل ومن معه فى الأسر برهائنهم ، ثم حاصرهم فامتنعوا عليه فرجع عنهم ثم تابع إرسال الجيوش إليهم حتى كانت سنة ٢٢٠هـ / ٨٣١ م فسار إليهم عبد الرحمن وشدد الحصار عليهم ودارت بينهم حرب انتصر فيها عبد الرحمن وافتتح "ماردة" وقتل كثير من الثائرين وتمكن محمود بن عبد الجبار وبعض الثائرين معه من الفرار فتعقبه جنود عبد الرحمن الثانى (الأوسط) ولكنه دخل جليقية واستولى على حصن فيها ومكث فيها خمسة أعوام ثم حصرهم ملك الجلائقة الفونسو ، وافتتح الحصن ، وقتل محموداً وجميع أصحابه سنة ٣٢٥ هـ / ٨٣٦ م .

وفي سنة ٢١٤هـ / ٨٢٥م . قامت ثورة في طليطلة في الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن الثاني مشغولاً بثورة ماردة. وكانت ثورة طليطلة بقيادة هاشم الضراب الذي كان في طليطلة عندما أوقع الحكم بن هشام بأهلها وأخذ هشاماً إلى قرطبة من بين الرهائن فعمل حداً وعرف بالضراب . ثم رحل من قرطبة إلى طليطلة فاجتمع عليه أهل الشر والفساد وأثاروا فيهم روح الثورة، فكثرت جمعه واشتدت شوكته وصار يغير بهم على العرب والبربر وانتصر عليهم في عدة وقائع مما دفع عبد الرحمن الثاني إلى إرسال قائده محمد بن رستم عامل الثغر الأدنى بجيش دارت بينهما عدة وقائع غير حاسمة مما أدى إلى تغلب هاشم على جانب من الثغر وعلى عدة مواضع ، وفي سنة ٢١٦هـ / ٨٢٧م بعث عبد الرحمن الثاني جيشاً كثيفاً إلى عامله بالثغر محمد بن رستم فزحف إلى الثوار والنقي بهم بالقرب من سمسطا ودارت بينهما معركة استمرت عدة أيام هزم الثوار فيها وقتل هاشم الضراب وكثير من أنصاره أهل الشر وباعثي الفتنة^(٥٦) .

وقد استمر أهل طليطلة خارجين على الأمير عبد الرحمن الثاني غير مذعنين لطاعته فارسل إليهم سنة ٢١٩هـ / ٨٣٠م جيشاً بقيادة أخيه الحكم فحاصر طليطلة وقطع زرعها وأتلف ثمارها. ولكن المدينة صمدت ولم تدعن له بالطاعة فرحل عنها وترك بعض الجند في قلعة رباح بقيادة ميسرة الفتى المعروف بفتى أبي أيوب ، فلما بعد الجيش خرج جمع كثير من أهل طليطلة لعلهم يجدون فرصة وغلة ميسرة فيتغلبوا عليه ، وعلم ميسرة بالخبر فجعل لهم كمائن ف مواضع عدة . وعندما وصل أهل طليطلة إلى القلعة للغارة عليها خرجت عليهم الكمائن ووضع فيهم السيف فقتل كثير منهم وفر الباقون إلى طليطلة فاعتصموا بها . وفي العام الثاني - أي ٢٣٠هـ / ٨٣١م - خرج عبد الرحمن بجيش إلى طليطلة فصمدت المدينة في وجهه فترك جنداً في قلعة رباح للبقاء على ثورة ماردة^(٥٧) .

وفى سنة ٢٣١ هـ / ٨٣٢ م خرج جماعة من طليطلة إلى قلعة رباح وانضموا إلى جيش عبد الرحمن الثانى واجتمعوا على حصار طليطلة وشدوا عليها الحصار وقطعوا عنها مرافقها حتى ضاق أهلها ونفذ صبرهم ؛ فسير إليهم عبد الرحمن الثانى حملة أخرى سنة ٢٣٢ هـ / ٨٣٣ م بقيادة أخيه الوليد ابن الحكم فواصل الحصار الشديد حولها حتى بلغ الجهد بأهلها كل مبلغ وضعفوا عن القتال فهاجم المدينة واقتحم أسوارها وتم فتحها يوم السبت ٨ من رجب سنة ٢٣٢ هـ / ٨٣٣ م وقام الوليد لتجديد القصر الذى كان بناه عمرو بن الحارث بن هشام على باب الجسر واقام بها إلى آخر شعبان سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٤ م . حتى استقرت بها الأمور وعاد أهلها إلى الهدوء والطاعة .

وفى أواخر عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) قامت فى قرطبة فتنة لم تشر إليها المراجع العربية ، وإنما أشار إليها دوزى وسيد أمير على وغيرهما . وذلك أن المجتمع فى قرطبة كان يتكون من المسلمين من العرب والبربر والمسلمين الأسبان الذين يعرفون بالمولدين ؛ أو الذين نشأوا من تزواج الرجال المسلمين بالنساء الأسبانيات ويكون أبناؤهم مسلمين . ثم من المستعربين وهم الأسبان الذين ظلوا على دينهم ولكنهم تكلموا العربية وتفقوا بها ، وبعضهم بلغ فيها شأواً بعيداً دفع المتعصبين وخاصة من القساوسة إلى حمل الشباب إلى كراهية الثقافة العربية ، ثم تحول ذلك إلى حملهم على مهاجمة الإسلام والطعن فيه والطعن فى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك حيث يسمح للمسيحيين بإقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة . كما يشغل بعضهم مناصب عليا مدنية كانت أو عسكرية وغيرها من الوظائف الإدارية .

وقد بدأت الفتنة بجوار دار بين قسيس فى قرطبة يسمى برفيتكو مع بعض المسلمين حول فضائل محمد وعلى وحديث المناقشة فتحولت إلى جدال عنيف أدت إلى طعن القسيس فى الإسلام ورسوله فقبض عليه وحوكم حسب

القانون الإسلامى وحكم عليه بالإعدام واستغل ذلك بعض القساوسة المتعصبين وخاصة أيولوخيو وأتباعه الذين قاموا بدعايات ضد الإسلام والمسلمين مما جعل بعض الشباب والشابات إلى الطعن فى الإسلام ونبيه ؛ بل إقتحم بعضهم المساجد وجاهر أمام المسلمين ذلك مما أدى إلى إعدام كثير منهم لإصراره على الطعن أمام القاضى وعدم رجوعه عن الطعن فى الإسلام والنبي .

وقد أخذت هذه الموجة فى الإنتشار مما حمل المعتدلين من المسيحيين أن يعلنوا استنكارهم للحركة التى تزعمها أيولوخيو وعمل عبد الرحمن الثانى على التصدى لها . فعقد مجلساً من القساوسة من جميع أرجاء الإمارة وأصدر الأساقفة قراراً بتحريم المجاهرة بسب النبي محمد، وأن قذى بنى الإسلام محمداً حباً للقتل ونيل الشهادة هو مخالف لروح الإنجيل .

وقد اعتقلت الحكومة أيولوخيو وأتباعه من زعماء الحركة وأودعتهم السجن، ولكن ذلك لم يحل دون استمرار الفتنة إلى أن توفى الأمير عبد الرحمن ثم أفرج عن أيولوخيو وعين أسقفاً لمدينة طليطلة فهدأت الفتنة قليلاً ، ولكنه عاد إلى قرطبة ليواصل فتنته . وعند ذلك أمر الخليفة عبد الرحمن الثانى ابنه محمد بالقبض على أيولوخيو وقتله. وبهذا أخذت الفتنة تضعف شيئاً فشيئاً حتى زالت من تلقاء نفسها (٥٨) .

الحروب الخارجية فى عهد عبد الرحمن الثانى (الأوسط) :

إذا كان من واجب المسلمين أن يؤمنوا الناس فى ولايتهم وينشروا العدل بينهم من خلال جبهة داخلية قوية تستطيع أن تثبت الاستقرار والأمن فى ربوع البلاد، فإن الأكثر أهمية والذين يعينهم على ذلك، هو تأمين حدودهم الخارجية وذلك من خلال بناء جيش قوى يحمى حدود البلاد ويرد كيد الغاصبين المعتدين أو المتربصين بالبلاد، هذا إلى جانب قيام المسلمين بالغزوات فى البلاد المجاورة على غرار ما كان يقوم به النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قبل.

ففى منطقة ألبة والقلاع الحصينة سير عبد الرحمن الثانى (الأوسط) جيشاً سنة ٢٠٨هـ / ٨١٩ م بقيادة عبد الكريم بن عبدالواحد بن مغيث تمكن من التوغل فيها وحاصروا عدة من الحصون وفتحوا بعضها وصالحهم بعضها على الجزية وإطلاق أسرى المسلمين وقد غنموا غنائم كثيرة . وأظهروا هيبة المسلمين فى تلك المناطق (٥٩) .

وفى سنة ٢٢٤ هـ / ٨٣٤م أرسل عبد الرحمن جيشاً إلى تلك المناطق سالفة الذكر بقيادة عبدالله البلنسى فخرج إليه العدو والتقى الفريقان ودارت بينهما معارك عنيفة انتصر فيها المسلمون بعد أن قتلوا وأسروا أعداداً كبيرة . وقد خرج رونريق ملك الفرنجة (الجلالقة) فى عسكره . وأغار على مدينة سالم فسار إليه موسى بن فرتون على رأس قوات ضخمة وقاتله وهزمه ، ثم توجه فرتون إلى الحصن الذى بناه أهل ألبة بالثغر نكاية للمسلمين فافتتحه وهدمه . كما أرسل عبدالرحمن الثانى أيضاً جيشاً سنة ٢٣٩هـ / ٨٤٢م بقيادة ابنه محمد إلى ينبلونه وهزم الأعداء وقتل صاحبها جروسية وهو من أكبر ملوك النصارى (٦٠) .

أما فى منطقة الشمال فقد اهتم بها عبد الرحمن الثانى لما كانت تشكل من خطورة على المسلمين نظراً لطبيعتها الوعرة وإلتفاف النصارى حول أنفسهم ضد المسلمين . فى سنة ٢٢٦هـ / ٨٢٧م أرسل عبد الرحمن الثانى جيشاً بقيادة عبيد الله البلنسى الذى تمكن من هزيمتهم فى مكان بين أربونة وشرطانية . وواصل عبد الرحمن تأمين البلاد أيضاً فى برشلونة فعاث فى نواحيها واجتاز الدروب التى تسمى البرت إلى بلاد الفرنجة وقتل وأسر من تصدى له ، واصر مدينتها العظمى " جرنده " وعاث فى نواحيها ثم قفل سالماً (٦١) .

أما فى منطقة جليقية فقد سار عبد الرحمن على رأس جيش كبير سنة ٢٢٥هـ / ٨٢٦م، وفتح حصونها وعاث فى أرضها يقتل ويسلب ويغنم، وطال

مقامه في هذه الغزوة ثم عاد إلى قرطبة . وفي العام التالي أرسل عبد الرحمن الثاني (الأوسط) ابنه مطرف على رأس جيش ومعه القائد عبد الواحد بن زيد الاسكندراني وتمكن الجيش من بسط وهيبة المسلمين في جليقية . ثم عاد عبد الرحمن وأرسل جيشاً للمرة الثالثة جعل على رأسه ابنه محمد سنة ٢٣١هـ / ٨٣٢م ، وأعملوا السيف في رقاب الأعداء وأسروا منهم الكثير ووصلوا مدينة ليون الفرنسية فحاصروها ورموها بالمنجنيق فتركها أهلها وخرجوا هاربين إلى الجبال، فغنم المسلمون منهم ما أمكنهم حمله ثم هدموا سورها وعادوا سالمين بعد أن حفظوا هيئة المسلمين في تلك المناطق (٦٢) .

وكان اهتمام عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بالبحرية لا يقل عن اهتمامه بالقوت البرية، وذلك أن طبيعة بلاد الأندلس والبلدان المجاورة لها يغلب عليها كثرة الوديان والخلجان إلى جانب البحار والمحيطات. لذا كان عليه أن يستعين بالأسطول الإسلامي إلى جانب القوات البرية في بعض غزواته مثال ذلك: أنه في عام ٢٢٤هـ / ٨٣٥م أرسل عبد الرحمن الثاني قوة بحرية كبيرة إلى جزيرة ميورقة وهما أكبر الجزائر الشرقية (جزر البليار) لغزوها والنكاية بسكانها لجهرهم بنقضهم العهد وإضرارهم بالسفن الإسلامية التي تعبر من عليهم، وتمكن المسلمون من إخضاعهم وفتح أكثر جزائرها وأسر زرايهم والإستيلاء على أموالهم. وقد بعث أهلها إلى الأمير عبد الرحمن الثاني في العام التالي (٢٢٥هـ) يطلبون الأمان ودفع الجزية، فأجابهم الأمير في كتاب يقول فيه: "أما بعد فقد بلغنا كتابكم ، تذكرون فيه أمركم وإغارة المسلمين للذين وجهناهم إليكم لجهادكم وأصابتم ما أصابوا منكم من زرايكم وأموالكم، والمبلغ الذي بلغوه منكم وما أشفيتم عليه من الهلاك ، وسألتم التدارك لأمركم وقبول الجزية منكم وتجديد عهدكم على الملازمة للطاعة والنصيحة للمسلمين ، والكف عن مكرهم ، والوفاء بما تحملونه عن أنفسكم ، ورجونا أن يكون ما عوقبتم به صلاحكم ، وقمعكم عن العود إلى مثل الذي كنتم عليه ، وقد أعطيناكم عهد الله ونمته" .

وكانت آخر غزوات وغارات عبد الرحمن الثاني (الأوسط) كان انتقاماً للمسلمين من "النورمان" أي الفايكنج - الذين أغاروا على الأندلس وهددوها سنة ٢٣٠هـ / ٨٣٠م هؤلاء النورمان وطنهم الأصلي هي بلاد اسكتلندا وربما الدانيمارك وشواطئ ألمانيا الشمالية . لذا عرفوا بالنورمانيين - أي أهل الشمال - ويطلق عليهم مؤرخوا المسلمين "المجوس" (٦٣) .

على أية حال ، كانت غارات النورمان على أشبونة في الأندلس سنة ٢٣١هـ / ٨٣٢م عندما تقدم هؤلاء بأسطول مكون من ثمانين قطعة بحرية وهاجموا أشبونة ، فتصدى لهم المسلمون بقيادة وهب الله بن حزم ، وقامت بينهم معارك بحرية ضارية استمرت ثلاثة عشر يوماً ، توجه النورمان بعدها إلى قادس ثم إلى شنونة ثم عبروا النهر الكبير إلى أشبيلية ونزلوا على اثني عشر فرسخاً ، فتصدى لهم المسلمون وقاتلوهم قتالاً عظيماً ، غير أن النصر كان في نهاية الأمر للنورمان على أهل أشبيلية . فما علم عبد الرحمن الثاني بهذه الغارة النورمانية بعث بقوات من الخيل على عجل لإنقاذ أهل أشبيلية بقيادة عبد الله بن كليب ومحمد بن رستم وغيرهما تحت قيادة حاجبه عيسى بن شهيد ، وكتب إلى عمال الكور في استنفار الناس فحلوا بقرطبة وقادهم إلى القتال "نصر الفتى" وكان النورمان قد تلقوا مدداً في سفن جديدة قدمت عليهم ، ودارت بين الفريقين معارك ضارية تفوق فيها النورمان للمرة الثانية. بيد أنه عندما تجمعت القوات الإسلامية التي أرسلها عبد الرحمن الثاني إليهم دافعواهم ، ونصبوا المنجنقات عليهم ، فانهزم النورمان وقتل منهم نحو مائة وخمسين رجلاً ، وأصيب لهم أربعة مراكب بما فيها ، فأمر ابن رستم باحراقها بجميع من فيها ، ثم كانت الموقعة القاصمة في ٢٥ من صفر سنة ٢٣٠هـ / ٨٣٢م في طليطلة وتمكن المسلمون من هزيمة النورمان ، وقتلوا منهم ألفاً وأسروا أكثر من أربعمئة ، وأحرقوا لهم ثلاثين سفينة ، وكان قائدهم بين القتلى، وقتل الأسرى أمام أعينهم وعلقوا في جذوع النخيل ، وأقلعت سفن

النورمان منسحبة تجر أزيال الخزي والمسلمون فمن ورائهم يطاردونهم ويفتدون أسرى المسلمين منهم بمختلف السلع ، وحاول النورمان الإغارة على بعض المدن الأندلسية أثناء انسحابهم فأغاروا على باجة ، ثم وصلوا إلى لشبونة حيث غادروا شواطئ الأندلس مع باقى سفنهم بعد أن مكثوا ما يقرب من شهر ونصف تقريباً . اشاعوا خلالها الذعر والفرع بين المسلمين ، وعانى المسلمين منهم عناءاً شديداً . وطمان الأمير عبد الرحمن الثانى المدن الإسلامية فى المغرب والأندلس بانكشاف الغمة وحرر للمجوس الملاحين وأوضح فى كتابه الأدوار البطوية التى قام بها المسلمون فى وجه المجوس (النورمان) والذى كان من بين قتلاهم أميرهم ومائتين من رؤوس أكابر النورمان القتلى ، وفرح بذلك الصنهاجيين فى طنجة .

على أن غزوة النورمان للمدن الإسلامية فى الأندلس لم تمر مرور الكرام على المسلمين ، إذ كان لابد من أن يعتبر المسلمون ويتجهوا إلى ضرورة بناء أسطول إسلامى قوى لمواجهة مثل هذه الغارات البحرية التى لولا جهاد المسلمين وشجاعتهم واستبسالهم فى القتال لكان للنورمان ما أرادوا خاصة وأنهم كانوا يمتلكون أسطولا قويا.

مثل هذه الغزوة النورمانية قد دفعت المسلمين إلى ضرورة الإهتمام بالأسطول والتحصينات البحرية ، فأنشأ عبد الرحمن الثانى حول أشبيلية سوراً ضخماً وأنشأ بها دار صناعة واهتم بإقامة السفن الحربية ، وحشد لها المقاتلة المدربين من سائر أنحاء الأندلس حتى نمت الأسطول الأندلسى وعظمت قواته البحرية .

إصلاحات عبد الرحمن الثانى فى الأندلس :

لم يشغل إخماد عبد الرحمن الثانى للثورات الداخلية والفتن والقلق ، والتهديدات الخارجية عن قيامه بإصلاح أمور البلاد والعباد . فقد قام بالعديد

من الإصلاحات الإدارية والمعمارية وفي مجال الصناعة والزراعة . فهو أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر وإيداء آرائهم فيما يعرض عليهم من أعمال . ورفع من شأن الوظائف العامة وأحاطها بالهيبة والمسئولية وجعل أحكام السوق منصفاً مستقلاً - وزارة التموين حالياً - عن ولاية المدينة. وقد زادت أموال الجباية في عهده فبلغت ألف ألف دينار في السنة، وأنشأ داراً لسلك النقود في قرطبة وجعلها أندلسية مستقلة بقيم وأوزان جديدة (٦٤).

كذلك أهتم عبد الرحمن الثاني (الأوسط) بالناحية المعمارية فأنشأ القصور والمنتزهات، وجلب إليها المياه من الجبال وجعل لقصره حوضاً يجتمع فيه ماء المطر ، وأقام الجسور وعبد الطرق وبنى كثيراً من المساجد الجامعة في أنحاء الأندلس وزاد في جامع قرطبة الذي كان قد بدأه جده عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) - أقول زاد في جامع قرطبة رواقين . هو أول من جلب للماء العذب إلى قرطبة وأدخله إليها ، وجعل له حوضاً كبيراً يتردد عليه الناس ليشربوا منه . وأقام دار صناعة في أشبيلية وأنشأ المراكب لتكوين أسطول بحري لحماية سواحل الأندلس وأمدّه بالآلات والنفط ، كما كان له خمسة آلاف مملوك من الموالى . والصقالبة ثلاثة آلاف كانوا قوماً نوى خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم فأسرفوا في الاعتداد بأنفسهم ، فما من رجل منهم تغضبته الدولة في شئ إلا ويثور في ناحيته ويسبب المتاعب والقلق ، كما سنرى في نهاية عصر الاستقرار هذا .

رابعاً : الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني (الأوسط) :

تولى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الإمارة في الأندلس بعهد من والده - كعادة الأمراء الأمويين من قبل - في ٤ ربيع الثاني سنة ٢٣٨ هـ / ٢٤ سبتمبر سنة ٨٥٢ م - ٢١ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م . أى ما يقرب من أربعة وثلاثين عاماً تقريباً .

ولم يكن محمد بن عبد الرحمن هو الابن الأكبر لعبد الرحمن الأوسط ولكنه كان أصلحهم للإمارة حسبما رأى والده ورجال مملكته . وقد رشحه أبيه لولاية العهد ، وطلب من رجال الدولة تأييده والإلتفاف من حوله.

كان محمد بن عبد الرحمن الأوسط قد جاوز الثلاثين من عمره عند توليه إمارة الأندلس، وكان رزينا هادئاً بعيد النظر حتى أن بعض المؤرخين يصفه بالجمود العاطفى. الذى كان عليه جده الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل).

عندما تولى محمد بن عبد الرحمن الإمارة، كان حاجب الدولة ساعته "عيسى بن شهيد" فأقره على عمله، وكان لعيسى فضل كبير عليه، وكان كذلك آخر وزراء أبيه، وقد زاد فى تنظيم الإدارة (الوزارة) فرتب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء متخصصين، أشبه بوزراء اليوم، إذ تولى كل وزير فرع من فروع الإدارة. وبعد أن توفى عيسى بن شهيد تلى الحجابة عيسى بن الحسن، وكان وزيراً جليلاً رغم رثاءة هيئته، ثم خلفه "هشام بن عبد العزيز" وكان رجلاً أروع طائشاً شديد الأنانية. وقد كان له أسوأ الأثر على الدولة وعلى الأمير محمد؛ بل أن رعونته كانت سبباً فى قيام كثير من الثورات والاضطرابات التى انتهت إلى عصر الفتنة الأولى التى سنعرض لها بعد ذلك .

لقد واجهت الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ثورات واضطرابات داخلية كثيرة ومتعددة. فى طليطلة، ثار بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال بناحياتهم ، وثارت جماعات أخرى فى الغرب فى إقليم " ماردة " وأن منهم يقرأ حوليات الأندلس أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، يدرك أن جميع النواحي ثارت على الإدارة المركزية، وكما أسلفنا يرجع ذلك كله إلى طبيعة بلاد الأندلس المتقطعة بين جبال وأنهار ومضاب وسهول ، يشجع المتمردين على ديمومة الخروج على النظام القائم . فطبيعة البلاد الجبلية تشجع

الطامحين على الاستمرار في العصيان. ثم إن الناس الذين نشأوا في هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام بسهولة للحكومة المركزية. وخاصة الزعماء الذين كانوا أشبه في حياتهم بنظم الإقطاع. ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية لا تتوقف، بل كانت دائمة في الأندلس. ولا ريب في أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً دائماً لحماية وحدة بلاده سائراً على نهج أبيه وأجداده من قبل في الاستعداد الدائم لقمع الثورات والضرب بيد من حديد على أيدي المتمردين والعصاة.

لقد عانى الأمير محمد من أهل طليطلة عناء شديداً، لأن ما فعله معهم جده الحكم بن هشام، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموي. ولكن الأمير محمد انتهج سياسة جديدة في تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها.

ولذلك كان الحرب سجالات بين أهل طليطلة وجيش قرطبة، واستطاعت قوات الإمارة في قرطبة أن تحرز نصراً كبيراً عند وادي "سنيط" في الجزء الجنوبي من كورة طليطلة سنة ٢٤٠هـ / ٨٥٤م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها في يد الأمير محمد، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقواته الإمارة في قرطبة سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م، خارج طليطلة نفسها. وعلى هذا ساد الهدوء والسكينة البلاد (٦٥).

وأقام محمد في طليطلة ينظر في أمورها، فتبين له أنه لابد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والإستحكامات يمتد بحذاء جبل "الشارات" حتى يصل إلى وادي "أبره" فتقوم هذه الحصون بإيقاف أي تقدم للنصارى جنوباً، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهادنة النصارى أو محالفتهم. وكانت هذه أول مراكزه "جريط" أي (مريد اليوم)

فى شمال شرق طليطلة . ثم طلمنكة وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم " سرقسطة " وقد سمي هذا الخط كله بـ " وادى الحجارة " أى بوادى الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ؛ وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط الذى عرف بالثغر الأوسط. أما الثغر الشرقى فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادى "ابره" وعاصمته سرقسطة. وكان هناك ثغر أننى فى الغرب ، وهو امتداد الثغرين الأعلى والأوسط وأهم مراكزه قورية وشنترين ثم "الأشبونة" أى لشبونة وهى قاعدته فى المحيط وكانت هذه المناطق الثغرية للثلاث مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكورة أو الكور . وكانت لها معاملة مالية خاصة، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التى كانت تجبى بها فى بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحي ينفقون أموالاً كثيرة فى الدفاع عن أراضيهم . ثم أنهم كانوا فى الغالب من المسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة فى بلاد الإسلام ، وفى الأندلس خاصة بأن يقد إلى هذه الأقاليم المطوعين والعباد والزهاد والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام التماساً للشواب وتقرباً إلى الله^(٦١) .

على أن خطر النورمان قد عاد من جديد يهدد شواطئ الأندلس، وكان المسلمون قد استعدوا لهم من جديد ببناء الأساطيل - حسبما أوردنا من قبل - فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا المسلمين ما أصابوه من قبل، فلم يجروا على اقتحام الأشبونة أو اشبيلية، فانقضوا على بلد صغيرة هى "باجة" فى البرتغال الحالية. وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة. وبعد ذلك تحولت غزوات وغارات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل، وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقى لشبه الجزيرة، ويثبت تماماً عن القدرة على القيام بعمل كبير فى الأندلس الإسلامية، فاتجهت إلى أسبانيا النصرانية وتمكنت من

الدخول بسفنها في نهر الأبرو، ووصلت إلى "بنبلونة" عاصمة نبرة (نافار) ونهبها نهباً نريعاً وأسرت ملكها "غرسيه" ولم يطلقوا سراحه إلا لقاء فدية كبيرة.

فكانت تلك آخر محاولة قام بها النورمان ضد الأندلس بعد أن تبينوا أن شواطئه محروسه وأساطيله معدة ورجاله منتبهون ، ولم يعد أحد (يسمع) عن خطر المجوس (النورمان) على الأندلس بعد سنة ٢٤٥هـ / ٨٥٩م .

يضاف إلى ذلك قيام حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة "نافار" و "ليون" وقد كانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحياناً "موسى بن قسى" صاحب الثغر الأعلى أي سرقسطة . وكان آل قسى في الأصل أسرة نصرانية أسبانية، اعتنقت الإسلام ودخلت في طاعة المسلمين. ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلي في كل منطقة الثغر الأعلى (سرقسطة) . ويبدو أن هذا الاستقلال المحلي كان أمراً تحتمه الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة أسمية، وفي أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أي حال لم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . ويرجع الاستقرار في هذا الثغر الشمالي إلى آل قسى الأسبانية الأصل وكذلك بنو هاشم الطويل . فقد كانا هذين البيتين يمتاز رجالهما بالبأس والتمرس في القتال فكانوا محاربين أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصراني إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك أيضاً إلى خلافات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة . ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهلهم . وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر - أول خليفة أموي بالأندلس - عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التي تحولت إلى خلافة .. ويرجع إلى هذه البيوت الاقطاعية الفضل في تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية في ذلك الاقليم . فإنه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قرطبة . وكان من أكثر بلاد الأندلس عروبة وإسلاماً.

وقد انتصر الأمير محمد على مملكتين " نبره واشتريس " فى كل حروبه معها بفضل قائدته أمثال : " عيسى بن الحسن ، وعباس القرشى ثم أبناء الأمير محمد بن عبد الرحمن والحكم والمنذر ، وكانوا قادة موهوبين . وقد تمكنت الإمارة القرطبية فى القضاء على أطماع " أردونيو الأول " ملك اشتريس وليون حتى توفى سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦م وخلفه أخيه " الفونسو الثالث " الملقب بالكبير ، وهو من أعظم ملوك أسبانيا النصرانية . وفى أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافساً خطراً للإمارة القرطبية (٦٧) .

ولم يمنع الأمير محمداً من إيقاف مملكة ليون عند حدها إلا كثرة الثورات عليه فى بلاده. ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لواجبها، بل سببها يرجع إلى اتساع دولة بنى أمية والطبيعة الوعرة للبلاد، ثم قلة العرب وسط العناصر والجموع الأخرى من المستعربين والمولدين. وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال. وربما كان أفضل السياسات هو أن تسير الحكومة على نفس النظام - أى حكومة قرطبة - والذي كانت تسير عليه ممالك أوربا النصرانية فى ذلك العصر وهو الاعتراف بأمراء الإقطاع فى نواحهم فى مقابل خضوعهم الرسمى والإذعان والطاعة للدولة، وأداء مبلغ من المال محدد، وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل بهذا الوضع. ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب فى الشرق الجنوبى والغرب كان عقبة فى سبيل اقرار نظام كهذا. فقد كان للعرب فى الكور المجندة خاصة ، امتيازات كثيرة . فإذا قبلت الدولة نظام الإقطاع فقد أولئك العرب الذين يسكنون أصحاب الإقطاعيات الأموال التى كانوا يجبرونها من الناس بحسب نظام الكور المجندة . ولم يكن هذا فى صالحهم لأنهم كانوا يميلون إلى الفوضى أولاً ، ثم أنهم كانوا بعيدين جداً عن ادراك فكرة الدولة وفضائل

الخضوع للنظام .ومن الغريب أن أولئك العرب الذين استقروا في نواحي تدمير "مرسية" العربية . وكذلك في نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ؛ ظلوا مجتمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال الفروسية ونظم الشعر والحرب فيما بين بعضهم البعض ، مما كان يخرب القرى ويؤذى المحاصيل الزراعية ؛ وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعنيه مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة.

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من "كور ماردة" و"بطليوس" و "الأشبونة" وبقية ما يعرف اليوم بالبرتغال، لخطر من نوع آخر. فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم وأصولهم الأسبانية. وأرض الغرب هذه كانت مغازات (أى أرض قاحلة) وأراضى جبلية يصعب على الإمارة في قرطبة السيطرة عليها سيطرة كاملة. وكانت الدولة تلجأ إلى العنف والعنف يولد العنف، ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم المسلم من المولدين من أصل جليقى يسمى "عبدالرحمن بن مروان الجليقى" وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشئ من الاستقلال فى ناحيتهم. وبدلاً من الموافقة نجد الأمير محمد يخرج فى جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم فى قرطبة على مقربة منه وتحت نظره ليطمئن على ولائهم^(٦٨) .

ولكن الأمير "هاشم بن عبد العزيز" أساء التصرف مع عبد الرحمن بن مروان الجليقى وأهانته ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس .وعبثاً حاولت الإمارة فى قرطبة إخضاعه دون جدوى فتحالف مع ملك ليون، وأرسل محمد لحربه سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٦م ابنه "المنذر" ومعه الوزير "هاشم بن

عبد العزيز" . وكان هاشم هذا رجلاً طائشاً عاجزاً عن مواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقي وحليفه "سعدون السرنباتي". وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش إمارة قرطبة في شوال سنة ٢٦٢هـ / يونيو سنة ٨٧٦م، ووقوع هشام بن عبد العزيز في أسر السرنباتي فأسلمه لعبد الرحمن الجليقي، وقد اقتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار. وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقي على أقراره على بطليوس ونواحيها ويكون من رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التي نتجت عن إصرار الحكومة المركزية في قرطبة على بسط سلطانها وسيادتها المباشرة على النواحي. ورفضها للسماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحي نراه في ثورة "عمر بن حفصون" في ولاية "رية" الجنوبية وهي ما يسمى الآن بمحافظة " مالقه " .

ويذهب مؤرخو أسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الأسبان في التخلص من سطان العرب ،وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الأسباني العام؛ وذلك خطأ من كل ناحية . فعمر بن حفصون أندلسي المولد والنشأة وعاش معظم حياته مسلماً . وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي . ووجود جماعات كبيرة من العرب في كور " تدمير والمرية وغرناطة" وسوء تصرف العرب مع المزارعين وأهل القرى في تلك النواحي، ومعظمهم مولدون ومستعربون وهو لم ينزع قط على الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأي طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأموية بالإنس هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً في أيام عمر بن حفصون . ولكنه كان مفيداً فيما بعد . لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن كثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر إلى تلافيها .

والسبب المباشر لهذه الثورة وقيامها يرجع إلى تشدد عامل " رية " في جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقي فهو أن أهل هذه النواحي الجبلية لم يظفروا قط بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية : فامتألت نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى، وأصبحوا خطباً يابساً لنيران أية ثورة تقوم ^(٦٩) .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم في سنة ٢٥٦هـ / ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفى نيرانها بالقوة فلم يفلح . وهنا ظهر عمر بن حفصون وأخذ يتزعم مطالب الناس أمام الحكومة المركزية وهو من أصل أسباني مسيحي ، إذ أن جده " الفونسو القسى " وجدده الرابع هو الذى اعتنق الاسلام ، فنشأ هو فى " رية " رجلاً عنيفاً متمرداً . فجمع طائفة من الأشرار ونزل فى مكان منيع بجبل " بيستر " شمال شرق جبال " رنده " واعتصم فى ذلك الجبل وأخذ يناوئ قوات إمارة قرطبة الأموية، وهنا أرسل الأمير محمد وزيره هاشم بن عبدالعزيز، وكان قد أخلى سبيله من الأسر فاستطاع إجبار عمر بن حفصون على النزول من حصنه فى الجبل وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ، وفعلاً اشترك بن حفصون فى حملات قام بها فى الشمال . ولكنه كان متمرداً بطبعه . ثم أن هاشماً بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى العصيان سنة ٢٧١هـ / ٨٨٤م .

وسار المنذر بن محمد لمقاتلته، وضيق عليه، فلما كان على وشك الاستيلاء على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه محمد بن عبد الرحمن، فارتد المنذر إلى قرطبة فى ٢٩ صفر ٢٧٣هـ / أوائل أغسطس سنة ٨٨٦م، فتنفس مخنق عمر بن حفصون بعد أن كان أمره يتبدد.

غير أنه لا يجب أن نمر على ثورة بن حفصون على وجه الخصوص إلا أن نشير إلى توضيح الأسباب التى اختلفت فى قيامها عن الثورات الأخرى ضد الأمراء الأمويين فى الأندلس .

فإذا كانت كافة الثورات التي عرضنا لها ضد نظام الأمايرة في قرطبة قامت رغبة في استرداد مناطقهم أو حقداً على الأمير ذاك أو تلك أو اعتقاداً بضرورة التخلص من الحكم الإسلامي والعودة إلى النصرانية .. الخ . فإن ثورة عمر بن حفصون قد اختلفت عن هذا كله .

فإذا استطرنا تاريخ حركة عمر بن حفصون نقول : أن الأمير المنذر بن محمد عندما خلف أباه في الإمارة ، وكان فارساً وقائداً قادراً ، سار لمحاربة بن حفصون . وكان هذا قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل مدينة " رية " بأكملها ، وأخذ يتكلم في ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم وما أشبه اليوم بالبارحة فنحن في مصر وسائر بلاد المسلمين محتاجين إلى مثل هذه الثورة للتخلص من الظلم والفساد والضرائب التي أبهظت كاهل الناس .

على أية حال ذهب فئة من المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان أتباعه . وكان رجلاً تربى في ظلاله الإسلام ، فهو سائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ليس لأجله ، ولكن لنشر العدل ورفع الظلم الذي استبد بالناس ، ولكنه أيضاً يقصد الإرتداد بأسبانيا إلى النصرانية ، فهو في ثورته لم يحاول الاتصال بنصارى الشمال بل كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يولييه حكم البلاد التي دخلت في طاعته ، وكتب بنى رستم أهل " تاهرت " في المغرب ، وكذلك كتب إلى " بنى الأغلب " في المغرب أيضاً يطلب مساعدتهم . ولو أنه لقي من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

غير أن المنذر أصر على القضاء على عمر بن حفصون وإخماد ثورته بالقوة ؛ فسار إليه وحاصره في الجبل الذي اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين وذلك في صفر ٢٧٥هـ / يونيو ٨٨٨م فخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله بن محمد:

كان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد فقد كان بارعاً في حبك المؤامرات، ولم يكن واسع الذكاء، ولا بعيد النظر، ولكنه كان يمتاز بالثبات.

لم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة بن حفصون . فامتد أذاه إلى كل نواحي جنوب الأندلس . وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وترعهم رجال من أمثال سوار بن حمدون القيسي ، وسعيد بن جودي ، ومحمد بن أضحي الهمذاني، في كورة غرناطة. كذلك ثار عرب أشبيلية بقيادة كريب بن خلدون ، وإبراهيم ابن حجاج " وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين ؛ ولم يبق في طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

على أن الفضل في حماية إمارة قرطبة الأموية يرجع إلى ذلك العسكري والجندي الموهوب " أبو العباس أحمد بن أبي عبده " الذي استمر ثلاثين سنة في ميادين القتال تمارس فيها على فنون الحرب ومداراة العدو ، مدافعاً عن الجماعة ووحدة بلاد الأندلس . ويفضل هذا القائد ، وابن أخ له هو " عبد الله محمد بن أبي عبده " استطاع الأمير عبد الله أن يوقع الهزيمة القاسية بعمر بن حفصون في ٢ صفر سنة ٢٧٨هـ / ٨٩١ م . واستولى بعدها على حصن "يلي" وهو من أحصن معاقل بن حفصون قرب مدينة "تبرة". وقد كانت هذه المعركة هي الخطوة الأولى نحو القضاء على ثورة عمر بن حفصون ، هذا الأخير الذي ظل يطارد جند الإمارة ، ولكنهم أي جيش الإمارة القرطبية تمكن من محاصرته في معقله الأكبر ، وهو "بيشتر" غير أن الحصار لم يفلح في القضاء عليه ، حتى توفي الأمير عبد الله بن محمد في أول ربيع سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ، وكانت ثورة عمر بن حفصون قد وهنت ، وتمهد الطريق لتسليمهم للإدارة القرطبية. والفضل في ذلك يرجع إلى الأمير عبد الله

الذى استطاع رغم وجود النقص الكبير فى أخلاقه أن يجتاز بالأمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله فى حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا فى كل ناحية وازدادت جرأتهم على الإمارة. وتسمى هذه الفترة فى تاريخ الأندلس الإسلامية بفترة الفتنة الأولى " وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الأوسط (مؤسس الخلافة الأموية) وتعددت مراحلها وأدوارها. ففي دورها الأول : كانت ثورة من بعض أهل النواحي على ما سموه ظلم الإدارة القرطبية واجحافها فى جباية الأموال . وليس ذلك بصحيح . وترتبط هذه الدعوة بأسماء ، عبد الرحمن بن مروان الجليقي فى المغرب وعمر بن حفصون فى الجنوب .

وعندما طالت الحرب وأحس العرب فى نواحي تدمير وغرناطة وأشبيلية بضعف الإمارة، بادروا هم الآخرون بالثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها. وقال شعراؤهم شعراً يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم. واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فنجم من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون، ودارت الحرب بين بنحفصون والعرب، وكان النصر عليهم لابن حفصون حتى وقع فى أسر قائدهم "سوار بن حمدون" واشتدت الفتنة بين بنى حجاج وبنى خلدون فى أشبيلية واشتعلت الأندلس كلها نارا كما يقول بن عذارى، وهذا هو الدور الثانى للفتنة. وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة. وقد ذكرنا اثنين من قواده، ونضيف إليهما هنا "جعد بن عبد الغافر" الذى استشهد فى حربه مع بنى حجاج؛ ولكنه حطم قواهم : واستمر الأمير على ذلك حتى استولى رجاله عبد الله على حصن "بلى" فانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيئته وتخلى الناس عنه، واعتصم بمعقله الحصين فى بيشتر حتى توفى عبد الله كما أسلفنا سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م .

ومن حسن الحظ أن الذي خلفه كان " عبدالرحمن بن محمد بن عبدالله
وكان الأمير عبدالله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة، وذلك قبل مولد عبد
الرحمن بأسابيع قليلة، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إذ عطف على
حفيدة. ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه في القصر واشرف على
تربيته وقدمه على سائر أبنائه. ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله
يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه. وكان هو من
جانبه شاباً نكياً بعيد النظر، فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة
وجده للبخل العنيف. فأحبه الناس ووسطوه في حاجتهم فنشأ محبوباً من
الجميع مقرباً إلى جده. فلما توفي الجد، أجمع أهل القصر على مبايعته. ولم
يختلف عليه أحد لأن أحوال الإدارة كانت من سوء بحيث لم يكن فيها مطمع
لأحد. وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو الناصر أمير
قرطبة دون صعوبة في ٣٠٠هـ / ٩١٢ م. وبدأ في تاريخ الأندلس،
العصر الذهبي للأمويين والمسمين بها وهو عصر الإزدهار الأكبر. وكانت
للخلافة الأموية لأول مرة في تاريخ الأندلس الإسلامية^(٧٠).

هوامش الفصل الثاني :

- (١) مجهول المؤلف ، أخبار مجموعة، ص ١٦ - ١٨.
- (2) Cam. Medivel History, Vol. 3, p. 309.
- (3) Diehl Marcials , le Monde Orientole , p. 390.
- وراجع أيضاً: سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥١٧.
- (٤) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٧١ وما بعدها، وراجع: ابن التوطية، إفتتاح الأندلس، ص ٤٥ - ٤٧.
- (5) Dozy , Spanish Islam , pp. 185- 190.
- وراجع سعيد عاشور، المرجع السابق ، ج ١، ص ٥١٨.
- (٦) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، انظر: "مراحل الفتح العربى فى بلاد الأندلس".
- (٧) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين فى الأندلس ، ص ٢٢٠ وراجع: أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، نفس الصفحات.
- (٨) على أدهم ، صقر قريش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ ، ص ٣٥ - ٣٧.
- (٩) المقرئ ، نفح للطيب ، المجلد الثالث ، ص ٢٣٠ وما بعدها . وانظر ، ابن الخطيب، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، المجلد الأول تحقيق ، محمد عبد الله عنان ، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ٢٣٤ وما بعدها .
- (١٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ١٩١ - ١٩٣ .

(١١) ابن الكردبوس ؛ تاريخ الأندلس ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٧١ م ص ٧٥ وما بعدها .

(١٢) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، "عصر الإمارة" وراجع؛ عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥١٨-٥١٩ .

(13) Alfonso El Sabio, Primera Cranica gernal de Espana, Tomo, II, Publicado Por Ramon Menendez Pidal, Madrid, 1955, pp. 530- 531.

(١٤) على أدهم ، المرجع السابق ، ص ٨٤ : ١١٣ .

(15) Dozy, Apanish Islam ,pp. 187 - 192.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١٨ .

(١٦) لين بول ، العرب فى أسبانيا ، ص ٤٥ - ٤٧ ، وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ .

(١٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٤٢ ، وراجع العبادى ، المرجع السابق ، (عصر الإمارة فى الأندلس) .

(18) Dozy . Op. Cit, pp. 191 - 193. and See; Watts, Spain, pp.27- 29.

(١٩) ابن عذارى ، المصدر السابق ، نفس الصفحات .

(٢٠) لين بول ، العرب فى أسبانيا، ص ٥٧ - ٦١ .

وراجع ، العبادى ، المرجع السابق ، (عصر الإمارة) .

(٢١) ليفنى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمى ، راجعه الدكتور لطفى عبد البديع ، طبعة نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٩٩ وما بعدها .

- (٢٢) عبد الرحمن على الحجي، تاريخ الأندلس، ص ٦٥ - ٧٠.
وراجع سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥١٨ .
- (٢٣) ابن عذارى ، البيان المقرب ، ج ٣ ، ص ١٢١-١٢٣ . وراجع :
Dozy , Op. Cit , p. 195.
- (24) Cam . Med. History, vol , 3 , pp.297- 299.
- (٢٥) لين بول ، العرب في أسبانيا ، ص ٥٩ - ٦٠ ، وراجع : سعيد عبد
الفتاح، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥١٨
- (26) Muci Miranda, A, Histoire Musu- lmana de Valencia,
tomo, II, 2- 3.
- (27) Muici, Op. Cit. cite, tomo, I, P. 175 .
وراجع عاشور، المرجع السابق ، ص ٥١٨ - ٥١٩ .
- (٢٨) عن ثورات البربر في المغرب. والأندلس أنظر: ابن القوطية، تاريخ
افتتاح الأندلس، ص ١٥ - ١٦. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح
الأندلس، تحقيق ابراهيم الأبياري، دارالكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨١م،
ص ٣٦ - ٤٠، ٤٢ - ٤٥، وانظر: ابن عذارى، البيان المغرب، ج ١،
ص ٥٤ - ٥٦، والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وأثارهم في
الأندلس ، ص ١٥٣ - ١٦٢ .
- (٢٩) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ - ١٦٣ .
- (٣٠) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ص ٥٤ - ٥٦ .
- (٣١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ١٥ - ١٦ .
- (٣٢) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٤٢ - ٤٥ .
- (٣٣) المصدر السابق ، نفس الصفحات؛ وراجع أيضا :

- ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ، عام ١٩٨٥ ، ص ٢٨٩ .
- (٣٤) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٥٣-١٦٣ .
- وندوة التاريخ الوسيط ، مجلدان ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .
- (٣٥) على أدهم ، صقر قريش ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٥ م . اقرأ الكتاب .
- (٣٦) ابن الفرضى ، تاريخ علماء الأندلس ، الدار المصرية للتأليف ، والترجمة ١٩٦٦ م ، ص ٧٤ - ٧٥ .
- (37) Mahuud Makki, Ensayo Sobre los Aportaciones Orientales en España Musulmana, en Revista del Instituto de Estudios Islámicos in Madrid , vol. IX- X Madrid, 1961, pp.129 - 154.
- (٣٨) ابن فرجون ، الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب ، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور ، الجزء الأول ، مكتبة التراث ، القاهرة ١٩٧٢ م ، ص ٧٥ - ٨١ .
- (٣٩) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٤٣ - ٤٥ .
- (٤٠) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٨٠٥ - ٨٠٦ .
- (٤١) المقرئ ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، المجلد الثانى ، بيروت ، ص ٤٥ - ٤٧ .
- (٤٢) ابن الفرضى ، المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٥ .
- (٤٣) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق محمود على مكي ، ص ٤٠ .
- (٤٤) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس . (عصر الإمارة وما قام فيها من ثورات فى عهد الحكم بن هشام) .

- (٤٥) نفسه ، نفس المرجع والصفحات .
- (٤٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٧ - ٤١٩ ، وانظر :
ابن الخطيب. أعمال الأعلام ، القسم الأندلسي ، ص ٢٠٣ .
- (٤٧) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي، راجعه الدكتور لطفي عبد البديع، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٩٥٦ .
- (48) Muici Miranda, Op. Cit. tomo ,II, pp. 2- 4 .
- (٤٩) ابن الفرض، علماء الأندلس، ص ١٨١ وما بعدها، وراجع: الحميدى،
جنوة المقتبس، ص ٢٠٥ - ٢٠٧ .
- (٥٠) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، ص ٧٥ - ٧٦ .
وما بعدها .
- (٥١) مؤلف مجهول ، المصدر السابق ، ص ٩٧ - ١٠٦ .
- (٥٢) ابن عذارى البيان المغرب ، ج ١ ، ص ٤٣ وانظر :
ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ص ٣٨ ، ٥١ .
- (٥٣) لطفي عبد السميع ، الإسلام في أسبانيا، ص ٧٣ وما بعدها .
- (٥٤) ابن الفرضي ، علماء الأندلس ، ج ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٥٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الأندلسي ، ص ١٠٣ .
- (٥٦) الخشني ، قضاة قرطبة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦م
ص ١٤-١٩ .
- (57) Levi – provencal; Histoire de L' Espagne musulmane,
tom,3, Paris, 1953, pp. 117 – 119 .

(٥٨) أخبار مجموعة في فتح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتب المصرية. القاهرة ١٩٨١، ص ١١٨-١١٩. وانظر: ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٤٦-٤٨.

(٥٩) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الجزء الأندلسي ص ١٥ وانظر: محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط ٤، القاهرة ١٩٩٦م، ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٦٠) للسيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ وما بعدها .

(٦١) أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، ص ١٣٨، ١٤١ وما بعدها.

(٦٢) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٤ - ٤١٩ .

وراجع، ابن الخطيب، المصدر السابق، القسم الأندلسي، ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٦٣) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢ - ٣٥ .

(٦٤) ابن بسام، الزخيرة في تحسين أهل الجزيرة (الزخيرة في محاسن أهل الجزيرة) القسم الثالث، المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس ١٩٨١. وراجع: ابن عذاري المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١ وما بعدها.

(65) Menedez Pidal, Chronical of the Cid, pp. 140 - 141.

(66) Ibid. tome, II, PP. 442 - 443 .

(٦٧) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٤٠ - ٢٤٥ .

(٦٨) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣ وما بعدها .

وراجع: الطاهر أحمد مكي، ملحمة السيد، ترجمة وتقديم ط/١ دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠، ص ١٢٨ .

(٦٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٣، ص ١٤٤، وراجع ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٢٩١ وما بعدها.

(٧٠) ابن الأبار، الحلة، ج ٢، ص ٢٧٧ وما بعدها .

الفصل الثالث

عصر الخلافة الأموية في الأندلس

- عبد الرحمن الناصر وتأسيس الخلافة الأموية .
- عبد الرحمن الثالث (الناصر) ومواجهته المتمردين .
- علاقة عبد الرحمن الناصر بملوك فشتالة وبنبولة .
- علاقة الناصر بالدولة الفاطمية في المغرب .
- موقف عبد الرحمن الناصر من الأقارب في قرطبة .
- إنشاء مدينة الزهراء بالأندلس وتوسيع المسجد بها .
- خلافة الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م
- سياسة الحكم المستنصر في الأندلس .
- موقف الأندلس من خلافت المغرب .
- هشام المطوّر ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م .
- مصر الأندلس تحت رحمة الأوصياء بعد هشام .
- محمد بن أبي عامر والسلطان .
- محمد بن أبي عامر وإنشاء جيشاً خاصاً من المرزقة .
- غزوات محمد بن أبي عامر .
- محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور .
- المنصور ونقل الخلافة إلى البيت العامري .

عبد الناصر (الثالث) (٩١٢ / ٩٦١ م) :

بدأ عبد الرحمن الناصر حكمه في ربيع الأول سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م. وكان يبلغ من العمر عندئذ الثانية والعشرين، وقد اتفق الجميع على البيعة له بنفس راضية مع صغر سنه ، ومع وجود الكثيرين من أعمامه الذين كان من الممكن أن يتنافسوا على الحكم ويسببوا له المتاعب مع بداية عهده ، غير أن عبد الرحمن الثالث (الناصر) عرف كيف يكسب محبة الناس جميعاً له ويلتفون حوله، لما كان يقوم به من الوساطة للناس عند جده عبدالله ، الذي اشتهر بالعنف والبخل حتى نفر منه الناس ولم يبق قريباً منه إلا حفيده عبد الرحمن هذا ، الذي كان وسيطاً بينه وبين أهل الدولة والأمراء، فكسب بذلك محبتهم وولاءهم^(١).

وهكذا أصبح عبد الرحمن بن محمد عبد الله الذي عرف فيما بعد باسم عبد الرحمن الثالث أو الناصر أمير للأندلس في أكتوبر سنة ٩١٢ م . وكان الواجب والتبعة الملقاة على عاتقه عسيرة وثقيلة . فقد رأينا ما تعرضت له الإمارة القرطبية من ثورات متتالية ومتشعبة في أرجاء الأندلس من الأهل والأقارب . والأعداء ، حتى أصبح منصب الأمير منصباً لا يحسد عليه صاحبه . وقيل أن الذي جعل أعمام عبد الرحمن الثالث (الناصر) ينصرفون عن مناوئته ومنافسته هو شعورهم بأن منصب الأمير في الأندلس ، كان محملاً بالأثقال والمتاعب والأخطار والمسئوليات وأنه لا خير فيه ؛ ولهذا فقد تركوه دون اعتراض لهذا الشاب .

ولكن عبد الرحمن الثالث (الناصر) أثبت أن الإنسان يستطيع بالذكاء والحكمة والإصرار وحسن الخلق والتدبير أن يعيد بناء دولة أو يقيم أودها. وهنا ينبغي علينا أن لا ننسى فضل الأمير عبد الله فيما سيصل إليه حفيده ؛ فهو صاحب الفضل في تحطيم قوى النائرين وخاصة عمر بن حفصون ولولا ثبات الأمير عبدالله وإصراره على التمسك بحقوق الإمارة ومطالبته كل حكام

النواحى بما ذلك الثائرين بالطاعة وكذلك تدبيره أمور الدولة بالقليل من المال الذى كان يصل إليه . لولا ذلك ما استطاع عبد الرحمن أن يعيد الوحدة إلى البلاد ويجمع قوادها ، ويسير بهذا فى طريق القوة والأزدهار .

كذلك علينا أن نذكر فضل المخلصين من رجال البيوت الموازية والتعاون المستمر والأخلاص الثابت . فمكنوا لها من الثبات وسط العواصف والسحب القاتمة . ولاننسى هنا فضل القائد أبى العباس أحمد بن أبى عبده الذى قضى أكثر من ثلاثين سنة - كما ذكرنا آنفاً - فى ميادين القتال مكافحاً عن الإمارة . وإليه يرجع الفضل فى كسب نصر يوليو سنة ٩١٢م على " عمر بن حفصون " الذى كسر ظهره ومهد الطريق للقضاء عليه (٢) .

أحوال الأندلس عند ولايت عبد الرحمن الناصر :

رأينا كيف نشبت ثورة عمر بن حفصون وتفاقم أمرها حتى أشاعت الفوضى فى جنوب الأندلس كله ، فخرجت معظم نواحيه عن طاعة قرطبة ، وكيف تمكن الأمير عبد الله من الصمود لذلك الرجل والحاق الهزيمة الكبيرة به عند " يلى " . ولكن ذلك النصر كان لا بد أن تتبعه سياسة عارمة مع عمر بن حفصون حتى لا يستعيد قوته وينشر أذاه على الإمارة فى قرطبة كما كان الحال عليه من قبل .

وبعد وفاة الأمير عبد الله ، حاول الثائر عمر بن حفصون أن يعيد صلاته بأمثاله من الثائرين ؛ ولكن عبد الرحمن الثالث (الناصر) تنبه لذلك ، وعرف أن أول ما ينبغى القيام به هو مواصلة الكفاح مع هذا الثائر وأنصاره ومن تبعوه فى طريق الفتنة .

وكان أول ما قام به عبد الرحمن الناصر ، هو إرسال جيش إلى قلعة كركى " Caracuel " فى جبال المعدن " Siera Morena " شمالى قرطبة لمواجهة ثائر آخر كان قد أراد أن يحذو حذو عمر بن حفصون ، وهو " الفتح

بن زنون". وكان قد ثار بنواحي "سنتبرية Santaver". وكان يقود الجيش القائد عباس بن عبد العزيز القرشي. وعند "كركي" لقي الفاتح بن زنون وأنزل به هزيمة قاصمة واضطر إلى اللجوء إلى قلعة إقليش. وكذلك هزم في تلك الحملة رئيس من رؤساء الثائرين هو "محمد بن أربولش" فكان هذا النصر الذي لقيته جيوش عبد الرحمن الثالث (الناصر) في صدر حكمه أثر بعيد في إخافة الثائرين عليه^(٣).

وفي جمادى الأولى سنة ٣٠٠هـ / ٩١٣ م سير عبد الرحمن جيشاً قوياً يقوده القائد بدر بن أحمد ، فاسترجع مدينة "استجه" التي كان عمر بن حفصون قد ضمها إليه ، وبعد دخول بدر بن أحمد ذلك البلد هدم أسوارها حتى سواها بالأرض وهدم القنطرة التي كانت تؤدي إليها على نهر "شنيل" فانقطع رجاء أهلها في الثورة^(٤).

وبعد ذلك بقليل وجه عبد الرحمن الناصر جيشاً كبيراً إلى عمر بن حفصون وقد درب الجيش شهراً طويلاً، فلم يدع شيئاً يلزم للجيوس إلا اهتم به، وتخبر فرسانه واحداً واحداً وخرج من قرطبة في شعبان سنة ٣٠٠هـ / ٩١٣ م، وتوجه الجيش وعلى رأسه عبد الرحمن نحو "أبذة" حيث انضم إليه أحد القواد المخلصين للإمارة واتجه الجيش إلى "مرطش" ثم قصر "مالقة" وعسكر في قلب المنطقة التي ظن ابن حفصون أنها مغلقة، وهنا رغب أنصاره من أمثال "سعيد بن هذيل المولد صاحب حصن "مونتلون" في الاستسلام للناصر فأجيب إلى ما طلب ووفى له بأمانته؛ ثم لحق به ثائر آخر هو "عبد الله بن النالية" فحصل على الأمان. وكذلك فعل بن عطاف الأزرق الثائر بحصن "قبيشة" على نهر يسمى وادي بني عبد الله Guadalén، فدعاه عبد الرحمن إلى الدخول في طاعته ففعل ومنحه عبد الرحمن الأمان، ثم استولى عبد الرحمن على وادي "أش" Guadix ووقع على يده في ذلك نفر من حلفاء عمر بن حفصون ممن كانوا ثائرين في

ولاية غرناطة. ومن هناك وصل عبد الرحمن بجيوشه إلى ساحل البحر عند "شلوبنية". وعاد بعد ذلك إلى قرطبة، وفي طريقه إليها استولى على بلدين ثائرين هما "سنت أستبان San Esteban و "بنة فراط Pena Forats " ثم عاد إلى عاصمته في عيد الأضحى سنة ٣٠٠هـ / يونيو ٩١٣ يونيو ٩١٣م بعد أن ألقى الرعب في قلوب الثائرين، واستولى فيما يقول المؤرخون على سبعين حصناً من حصونهم^(٥).

وفي العام التالي ٣٠١ هـ / ٩١٤ م ، سارع عبد الرحمن الناصر إلى جبال "رندة" وفيها المعقل الرئيسي لابن حفصون في "بيبستر - Bobastro" وفي طريقه استولى على عدد من الحصون المؤدية إلى ذلك الحصن ، ووصل عبد الرحمن إلى الجزيرة الخضراء وأعاد لطاعته وهو في الطريق كل من "شنونة" ومورورثم اتجه نحو "قرمونة"^(٦).

وكانت نية عبد الرحمن هذه المرة منعقدة على كسر شوكة بني الحجاج بن خلدون، الذين كانوا قد استبدوا بأمر أشبيلية وأقاليمها، وكانوا يعاونون ابن حفصون على تماديه في الفساد .

وكان عبد الرحمن الناصر يرمى إلى حرمان ابن حفصون من خلفائه حتى يستسلم من نفسه دون حرب، وأرسل عبد الرحمن الناصر قائده "القاسم بن الوليد" نحو أشبيلية فخاف "أحمد بن مسلمة قائد بني الحجاج" من مغبة التمدادى في الضلال فأبدى رغبته في الاستسلام وأرسل عبد الرحمن قائده "بدر بن أحمد" فدخل البلد في جمادى الأولى سنة ٣٠١هـ / ديسمبر ٩١٤م، وحاول محمد بن إبراهيم بن حجاج، زعيم بني حجاج أن يحصل لبيته على شروط قبل أن يوادع عبد الرحمن . ولكن هذا أفهمه أنه لا يقبل إلا الاستسلام دون شروط . وبالفعل تم ذلك، ونزل زعيم بني حجاج على عهد عبد الرحمن الناصر. وهكذا عاد غرب الأندلس إلى الطاعة بعد طول خروج .

وأثناء عودة عبد الرحمن الناصر حاصر قلعة "قرمونة" وكان فيها ثائر من أنصار عمر بن حفصون يدعى "حبيب بن عمر بن سوار" وترك رجاله يحاصرون البلد وعاد إلى قرطبة، ولم يلبث حبيب أن استسلم وأخذ إلى قرطبة عهد أمان^(٧).

وكان عبد الرحمن الناصر يقوم بكل هذه الأعمال ، وفي ذهنه القضاء على رأس الفتنة كلها ، وهو عمر بن حفصون ، فأرسل جيوشه فاحتلت "جيان" التي كان أصحابها يدفعون الإتاوة لابن حفصون . وكذلك أرسل قوة إلى "البيرة" فأعادتها إلى الطاعة ، وكان الخناق يضيق حول بن حفصون شيئاً فشيئاً ، وظن أواخر أيامه أنه إذا ارتد إلى النصرانية كَسَبَ ولاء المستعربين في الأندلس ، وكانوا كثيرين جداً ، وكانوا غير راضين عن الإمارة التي تركتهم فريسة لعدوان ابن حفصون ومن شابهه من الثائرين من العرب في إقليم "البيرة" وهي غرناطة ، ولكن هذا الارتداد أضر بابن حفصون ولم ينفعه في شيء فقد انصرف عنه الكثيرين من رجال المسلمين والنصارى، بل أن ابناً واحداً من أبنائه وابنته، فعلا فعل أبيهما في التنصر وظل الأبناء الأخرى على الإسلام. وفي أثناء ذلك واليأس يحيط برأس هذا الثائر العنيد، نزل به الموت في قلعة "بيشتر" ودفن في كنيستها في ربيع الأول سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م بعد أن قاد أخطر ثورة تعرضت لها إمارة قرطبة الأموية في الأندلس بعد أن استمرت قرابة أو نحو ٣٠ سنة، وفي أثناءها تقلب الرجل من ناحية الأجناس الأخرى، حتى يقال أنه خطب لبنى الأغلب أصحاب القيروان ، وحاول الاتصال ببني رستم أصحاب تاهرت فلم يوفق معهم في شيء^(٨).

وكان لموت بن حفصون رجة فرح كوبرى في أرجاء الأندلس خاصة أمراء بنى أمية، إذ أجهدهم هذا المتمرد الثائر ، بينما استفاد منه أمثاله الثائرين الذين رأوا أنه ليس من المفيد الاستمرار في مواجهة الأمويين ، بل الأفضل لهم الدخول في طاعة إمارة قرطبة الأموية مقابل عهد بالأمان والإكرام ، فأمنهم

عبد الرحمن الناصر على هذا . وبذلك انتهت أطول وأخطر ثورة ضد النظام الأموي بالأندلس على يد عبد الرحمن الناصر سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م .

غير أنه بعد وفاة عمر بن حفصون ، خلفه ابنه جعفر "الذي كان قد تنصّر مثله هو وأخته "أرجنتينا" في حين أن أبناءه الثلاثة الباقين ، وهم " سليمان و"عبد الرحمن" و "حفص" ظلوا على الإسلام . وتولى جعفر مقاومة عبد الرحمن الثالث ، فلم يمهله هذا ، سار نحوه في ذي الحجة سنة ٣٠٦ هـ / مايو ٩١٩ م . وقد احتفل في إعداد هذه الحملة وإحتشد على طريقته التي سار عليها ، وإحتل عبد الرحمن بلدة شنونة ومنها اتجه إلى جبال " رندة " . كما استولى وهو في الطريق على حصن منيع قرب " بليدة " . وكان جعفر قد وضع هناك حامية تنبّه للخطر . وفي أواخر ذي الحجة سنة ٣٠٦ هـ / أوائل يونيو ٩١٩ م استولى عبد الرحمن على الحصون الصغيرة المحيطة بالحصن الكبير " بيشستر " ثم ترك حاملة تشدد الحصار على الجبل وعاد إلى قرطبة . وطلب جعفر بن عمر بن حفصون هدية وأرسل رهائن لضماناً لوفائه . وبعد قليل استسلم حفص وأخذ إلى قرطبة وحاول أخوه جعفر أن يواصل المقاومة ، ولكن جعفر قتل في جمادى الآخرة سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م في أكتوبر ، وحاول أخوه سليمان قيادة الثورة ، ولكن أمرها كان قد وهن ؛ وتمكن رجال عبد الرحمن من الإستيلاء على معظم الحصون النائية في كورتي "رندة والبيرة" . وأخيراً وفي سنة ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م سار عبد الرحمن بنفسه واستولى على بيشتر وحول كنيستها إلى مسجد^(٩) .

وهكذا انتهت ثورة ابن حفصون وأبنائه التي أقلقّت بال الأمراء الأمويين في الأندلس منذ قيام إمارتهم في قرطبة .

وفي أثناء الصراع السالف بين عبد الرحمن الناصر والثائرين من أبناء بني حفص ، كان قد استشهد قائد عبد الرحمن الناصر الشهير أبا العباس أحمد بن

أبى عبده. فى قلعة تسمى "مونت روميو" فيما بين المريسة وغرناطة. وهكذا انتهت حياة ذلك القائد الهمام يرجع إليه الفضل فى إنقاذ الإمارة الأندلسية من الإنهيار، خاصة وأنه كان مخلصاً وفيماً لقضية وحدة الأندلس .

وقد أنفق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك سنوات فى تهدئة الأوضاع جنوبى الأندلس والقضاء على التأثيرين فيه حتى عادت البلاد فى حوض الوادى الكبير وجنوبيه إلى طاعة الإمارة، وقد اجتهد عبد الرحمن فى إصلاح ما أفسده الثائرون فأعاد تنظيم البلاد وأكثر من بناء المساجد، وعم السلام البلاد بفضل حكمة ودقة وجهد عبد الرحمن الناصر المتواصل .

عبد الرحمن الناصر وإخماد الثورات فى غرب الأندلس :

بعد تخلص عبدالرحمن الناصر من ثورة بنى حفصون عام ٩٢١/٣٠٩م وإقرار الأوضاع فى جنوبى الأندلس، كان عليه أن يتابع هذه الحركات الخارجة على النظام المركزى فى قرطبة أينما حلّوا، فتوجه بعد أربع سنوات من التاريخ السابق نحو غرب الأندلس حيث قامت هناك بعض حركات التمرد والعصيان لعل أبرزها تلك التى وقعت فى غرب الأندلس وفى إقليم طليطلة . ذلك أن غرب الأندلس خاصة فى نواحي "ماردة وبطليوس" كان قد قام فيها عدد كبير من الثوار أكبرهم رجل من المستعمرين يعرف باسم "عبدالرحمن بن مروان الجليقى" وكان أول أمره من ضبط جيش الإمارة ثم خلع طاعتها وتحصن فى "ماردة". وانضم إليها عدد من المتمردين والخارجين على القانون، وقوى أمره ومد يده وحالف ملوك قشتالة واستولى على بطليوس وأفسد الغرب الأندلسى كله. لقد استفاد عبد الرحمن الناصر فى قتاله مع عمر بن حفصون وأبنائه ولذلك كرر نفس التجربة مع هذا الثائر عبد الرحمن بن مروان الجليقى وكان أمره أصعب لأنه كان على صلة بأهل طليطلة، ولم تكن طاعتهم خالصة للإمارة، وكذلك كان يستعين بملوك قشتالة. ولو أضفنا إلى ذلك؛

الأندلس الإسلامية سياسياً وحضارياً

أن الثغر الأعلى الأندلسى وهو حوض نهر الإبرو وقواعده الكبرى مثل " سرقسطة و طليطلة وشقة " ظلت فى طاعة الإمارة القرطبية . ولكن زعمائها كانوا يتصرفون بحسب ما تمليه عليهم مصالحهم ، فهم تارة مع الإمارة وتارة أخرى عليها^(١٠).

وقد وجّه عبد الرحمن الناصر أول الأمر كل قواه نحو بطليوس للقضاء على ثورة عبد الرحمن بن مروان الجليقى . وظل يتابع الحملات عليه . وفى أثناء ذلك ، استولت قوات عبد الرحمن الناصر على معظم حصون الثائرين الموالين للجليقى ، حتى طاع كل الغرب الأندلسى مثل " شلب واكتونية شنتمرية الغرب " لعبد الرحمن ثم اتجه بعد ذلك إلى عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحاصره حصاراً طويلاً حتى ألقى بيد الطاعة . وما كاد عبد الرحمن يعود إلى قرطبة فى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م حتى استسلمت بطليوس وكل ما كان تابعاً للجليقى وأهل بيته وكبار أنصاره لقرطبة على الأمان والتوسعة والتكرمة . وهناك اندرجوا فى زمرة السكان وانتهى بذلك حركات التمرد والعصيان فى غرب الأندلس . وطال أمر طليطلة التى طال أمر خروجها على الطاعة والتحالف مع ملوك قشتالة واستنادها إلى التأييد لبنى قسى الثائرين فى لاردة " وبعض نواحي الثغر الأعلى . وكان بنو قسى أسيرة بشنكسية الأصل جدما " فرتون " فدخل فى الإسلام وتركهم المسلمون فى ضياعهم وأقطاعاتهم فى الشمال . وصارت رياستهم فى آخر الأمر لبنى قسى ، وهم أحفاد فرطون . وقد تولى رياستهم فى عهد عبد الرحمن زعيمان قويان هما : المطرف بن لب بن موسى القسوى ، وابن عمه ، محمد بن اسماعيل بن موسى . أما طليطلة فقد تولى زعامتها رجل من رجالها يسمى : " لب بن " طريشة " وكان حليفاً لملوك قشتالة^(١١) .

وفى سنة ٣٠٨هـ / ٩٢٠م شرع عبد الرحمن فى معالجة أمر الشمال الثائر . فقاد الحملة الكبيرة التى تسمى فى النصوص باسم " غزوة موبش "

اتجه أول الأمر إلى قرطبة فسارع " لب بن طريشة " وبذل الطاعة لعبد الرحمن ، ولكنها كانت طاعة على دخن . وبعد وفاة لب بن طريشة تولى زعامة طليطلة " ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث " (١٢) .

وكانت ثعلبة قائداً خبيثاً واسع الحيلة . فبدأ عبد الرحمن يحاول اقناعه بالدخول في الطاعة . فرد رداً خشناً . ولم يجد عبد الرحمن الناصر إلا اللجوء إلى القوة . فأرسل في سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م جيشاً يقوده الوزير "سعيد بن المنذر" فحاصر طليطلة ولحق به عبد الرحمن نفسه فعسكر قرب حصن "مروة" على بعد ٣٠ كيلومتر من طليطلة . ومن هناك أنذر ثائراً من أنصار ثعلبة يدعى "مطرف بن عبد الرحمن حبيب" وهناك ترك الحامية وعاد إلى قرطبة بعد أن استسلم له أصحاب حصن "الأفين وقنالش" وبدأ حصار طليطلة فاستعان أهلها بملك ليون المدعو "راميدو الثاني" الذي تطلق عليه المراجع العربية اسم "انمير" وحاول ذلك الملك مساعدة طليطلة فلم يستطع ، واشتد الحصار حولها حتى عاد عبد الرحمن مرة أخرى على رأس جيش كبير في رجب ٣٢٠هـ / ٩٣٢م في يوليو . وعندما ضرب فساطيطه حولها أرسل إليه أهلها يطلبون المؤن إذ كانت مؤنهم قد نفذت وعرضوا التسليم . وفي شعبان سنة ٣٢٠هـ / أغسطس سنة ٩٣٢م دخل عبد الرحمن الناصر القوطية ، وخضعت له كل بلاد طليطلة . وبهذه المناسبة أقيم أعداراً (أي ختان الصبيان) عاماً احتفالاً بهذه المناسبة . وكان الأعدار على نفقة الأمير شكراً لله (١٣) .

وهكذا نرى كيف استطاع هذا الرجل الفذ عبد الرحمن بن محمد بعد اثنتي وثلاثين سنة من الجهد والكفاح إعادة الوحدة إلى بلاد الأندلس ، ولم يصل إلى ذلك عن طريق القوة وحدها بل عن طريق ما كان يتمتع به من سمات قوى وروح عالية رفيعة . كذلك كان الناس ما كان ليستسلموا له إلا لأنهم كانوا يعلمون أنهم يستسلمون لرجل وفى ، يعرف حقوقهم ويحترم كلمته معهم ، ويعرفون أنه لا سبيل إلى الحياة معه إلا بالدخول في طاعته والإستئمان له (١٤) .

بقى بعد ذلك الثغر الأعلى للأندلس؛ وقد أشرنا إلى حال بنى قسى فى طليطلة ونواحيها. ونضيف إلى ذلك سرقسطة، كان قد استبد بها بيت التيجيين، وهم أسرة التيجيين طال بها العهد فى الإستبداد بذلك الثغر، أما " وشقة " فقد استبد بها بنو محمد الطويل . وكان جميعاً عصابة واحدة يتحدثون سوية على الإمارة القرطبية ، وإن كان الخلاف بينهم شديداً ثم أنهم كانوا جميعاً يستعينون بملوك النصارى المجاورين لهم إذا دعت الضرورة إلى ذلك^(١٥) .

فأما بنو قيس أصحاب تطيلة، فكان آخر الثائرين منهم على عبد الرحمن وضده، ما يدعى " محمد بن لب بن قسى " وقد قتل ذلك الرجل فى أول إمارة عبدالرحمن الثالث (الناصر) سنة ٣٠٣هـ / ٩١٦م . وتولى بعده أخوه "المطرف" وكانت له أخت تدعى "أراكة" تزوجت من ابن الفونسو الثالث ملك "أشتودياس" . وكان يسمى فرويل الثانى الذى سيتولى العرش فى ليون بعد "أرنبو الثانى" الذى سنتحدث عنه . إنما ذكرنا ذلك لندلل على علاقات وصلة القرابة والمصاهرة بين أولئك الزعماء المسلمين ومن جاورهم من النصارى خاصة ملوكهم . وبعد مقتل محمد بن لب بن قسى اضطربت أمر طليطلة زمناً طويلاً، حتى استسلم أهلها للأمير عبد الرحمن سنة ٣١٢هـ / ٩٢٤م .

وكذلك دخلت وشقة وأصحابها من بنى محمد الطويل فى ولاء الأمير، وبقى أمر سرقسطة، ولكن قبل أن قصد إليها عبدالرحمن وجد الفرصة مناسبة للقضاء على "الفتح بن زنون" . الثائر فى حسن "إقليش" والذى كان يسيطر على كورة "شنترية". وقد توفى هذا الرجل فى سنة ٣٠٢هـ / ٩١٥-٩١٦م . وحاول ابنه يحيى أن يسير فى طريق الثورة، حتى إذا كانت سنة ٣٢١هـ / ٩٣٣م أرسل عبد الرحمن الناصر جيشاً بقيادة الوزير "عبد الحميد بن بسيل" . لكى يستنزل يحيى بن الفتح بن زنون، فعرض التنازل وانضم إلى جيش الإمارة، بوصار فى قواد عبد الرحمن . أما أخوة مطرف الذى كان قد استبد بناحية "إيذة" لحق بأخيه ودخل فى طاعة الأمير . وقد حدث بعد ذلك أن وقع أسيراً

فى يد "شانشو جروسىة" صاأب" بنبلونة . وعاد إلى صفوف الأمير حتى استشهد فى موقعة "الخنق" التى سنتكلم عنها سنة ٣٣٣هـ / ٩٤٥م . وكان عبد الرحمن قد أقامه حاكما على كورة وادى الحجارة^(١٦) .

وفى سرقسطة حاول صاحبها "أبو يحيى محمد" الملقب بـ "الأنقر عبد الرحمن التيجى" الخروج على طاعة الناصر ثم عاد فدخل، وخلفه ابنه "هاشم التيجى" فأقامه عبد الرحمن عاملاً على سرقسطة نظراً لما لمس فيه من الإخلاص والكفاية ، ما يجعله يثق فيه . وقد طال حكم بيته فى سرقسطة حتى عرفوا ببني هاشم. وفى سنة ٣١٨هـ / ٩٣٠م توفى أبو يحيى محمد الأنقر، وتولى أمر سرقسطة "محمد بن هاشم" الذى تمرد على الأمير عبد الرحمن الناصر ، وانضم إلى "راميرو الثانى" ملك ليون^(١٧).

عبد الرحمن الثالث (الناصر) وعلاقته بملوك فستال ونبلونة :

لكى نفهم علاقات عبد الرحمن الثالث (الناصر) مع ملوك أشتورياس وليون ونبرة وعاصمتها بنبلونة ، ينبغى أن نعود إلى الوراء قليلاً إلى أيام الأمراء محمد والمنذر وعبد الله. فقد عاصر هؤلاء الأمراء الثلاثة ملك من ملوك أشتورياس يسمى "الفونسو الثالث" وكان ملكاً نشيطاً يتطلع إلى توسيع رقعة ملكه فى أشتورياس والأغوار (أى الإغارة) منها على المناطق السهلية التى تقع وراء جبال الكنتبرية، والتى تقوم فيها بلاد كثيرة مثل ليون وأشتورقه وسمورة وسلمنقة. وغيرها من البلاد والحصون والواقعة بين حوضى "المنيو والدويرو" وكذلك ماقع منها على نهيرات هذا الأخير، وأهمها نهر "تورمس" وعليه تقع سلمنقة. وقد تمكن ذلك الرجل (الملك) منتهزاً فرصة الحروب الأهلية التى شغلت أمراء قرطبة ، وخاصة فى منتصف إمارة الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الثالث (الناصر) فتمكن من أن يستولى على الأراضى الواقعة جنوب المنيو . ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لأن الفونسو

الثالث ملك أشتورياس (أشتورس) الذى أشرنا إليه والذى كان يلقب بالفونسو الكبير Alfonso ElMagno نظراً لنشاطه الكبير فى توسيع نطاق مملكته أشتوريس وتمكنه من نقل عاصمتها إلى ليون جنوب الجبال الكنتمبرية . وتمكن كذلك من الامتداد فيما يعرف اليوم بشمال البرتغال . فاستولى على " أربورتو " التى ضمها إلى أملاكه الكونت " فيمارا نوربرت " وهو أحد أتباع الفونسو الثالث . وكذلك جعل الفونسو الثالث يشجع الخارجين على الإمارات القرطبية ، من أمثال مروان الجليقي وعندما طارده قوات الإمارة القرطبية بقيادة " هاشم بن عبد العزيز " لجأ إلى ملك أشتوريس . وهكذا نجد أن الحدود الشمالية لإمارة قرطبة كانت محفوفة بالمخاطر^(١٨).

عبد الرحمن الثالث والمغرب :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وكانت لها مطامع واسعة فى المغربين الأوسط والأقصى ، وخاصة بعد أن تمكن عبدالله المهدي من إزالة الدولة الرستمية التى كانت تحكم جزء كبير من المغرب الأوسط . وكانت دولة الأدارسة فى فاس قد دخلت فى دور الضعف ، وإحتاجت إلى سند وتطلع أمراؤها إلى قرطبة فى حين بدأ الخليفة الفاطمي من القيروان يشن حملاته الواسعة البعيدة المدى على المغربين الأوسط والأقصى مستعيناً فى ذلك على زعماء من البربر الصنهاجيين من أمثال زيرى بن مناد الصنهاجى وقريبه حبوس بن محسن وابنه مصالة بن حبوس . وقد استطاع هذا الأخير أن يدخل فاس ويجعلها من توابع القيروان ؛ وأقام عليها رجلاً من أوليائه يسمى "موسى بن أبى العافية" فقام بإخراج بقية الأدارسة من فاس ونفاهم إلى حصن صغير جنوبى "حجر النسر" فى قلب بلاد الريف. وهنا ينتهى الدور الأول فى تاريخ دولة الأدارسة، ويبدأ الدور الثانى . وكان لابد لعبد الرحمن الناصر من أن يعمل شيئاً لحماية حدوده الجنوبية من تهديدات الفاطميين. وكان عبد الرحمن الناصر (الثالث) وما تبعه من خلفاء الأمويين

فى الأنءلس ، يرون أن العبيءيين الذين أقاموا خلافة القيروان مءءعين للنسب الشريف ، غير ءءيرين بولاية الأمر . وأن مذهبهم الشيعى الإسماعىلى ءارج عن الإسلام الصءىء .

وقء إءبع عبء الرحمن الناصر سياسة نكية فى مواءهة الءطر الفاطمى . فقء كان يعرف أنه إذا ءءل فى صراع طویل مع الفاطميين فى المغرب الأقصى ، أضعف بءلك ءبئهة الشمالية أمام النصارى . وكان لابد له مع ذلك أن يقوم بأمر يوقف التهءيءات الفاطمية فاتءه إلى ءولة الأءارة يمدها بالمال والسلاح ، وكان على رأسها آنءك " يحيى بن إءريس بن عمر " الذى تزعم الأءارة ومكن لهم من أن يتغلبوا على موسى بن أبى العافية ومصالة بن ءبوس . وبعد صراع طویل نءء أن عبء الرحمن الناصر يكتفى باءءلال طنءة وسبئة سنة فى ٩٣١ م . ومن هءين الءصنين الكبيرين استطاع أن يمد أعوانه فى المغرب بما هم فى ءاجة إليه فى العءاء والأموال ليثبتوا أمام الءضغط الشيعى . ولم يفعل عبء الرحمن الثالث أكثر من ذلك فى سياسته ءءاه شمال أفريقية أو بلاد المغرب . وربما لءأ إلى معاونة الءارجين على الفاطميين من غير الأءارة من أمثال : بنى ءزر اليعرنيين . ولم يقع عبء الرحمن فى الءطأ الذى سيقع فيه ابنه الءكم - كم سنعرف بعء- عنءما ألقى بءيرة قواءه وءنءه مع المغرب ، فأضعف بءلك ءبئهة الشمالية فى صراعه مع الفرنء ، ولم يءرء فى نهاية الأمر بنتيجة ءاسمة^(١٩) .

على أن شيئاً هنا يجب أن نذكره فى علاقة إمارة قرطبة الأموية بالءولة الفاطمية فى المغرب ، وهو أن عءم القيام من قبل عبء الرحمن الثالث (الناصر) بءملات أو ءروب مع الفاطميين فى المغرب يرجع إلى أن الأمير الأموى كان على ءراية ومعرفة بتوءهات الفاطميين فى المغرب ، والءى كانت تتمثل فى نظرة الفاطميين ءءاه الشرق (بءءاء) مقر الخلافة العباسية وليس من اءتماماتها ، تيمم شطر الأنءلس . وذلك لأنه كان لءى الفاطميين أطماع فى

الخلافة الإسلامية ، وأنها كانت حريصة على إسقاط الخلافة العباسية . وكانت المغرب مجرد قاعدة تنطلق منها الحملات الفاطمية تجاه الشرق ، الأمر الذى جعل عبد الرحمن الناصر لا يفكر كثيراً فى رصد جيش أو حملة لمحاربة الفاطميين ، خاصة فى تلك الآونة التى لم تحقق فيها الدولة الفاطمية أهدافها ومراميها التى كانت تسعى من أجل تحقيقها وهى " خلافة المسلمين " وليس مجرد خلافة فى المنفى كما فعل عبد الرحمن الثالث (الناصر) من إعلان نفسه خليفة للأمويين فى الأندلس .

الخلافة الأموية فى قرطبة :

يمكننا القول هنا، أن عبد الرحمن الناصر أصبح بالفعل أكبر ملوك شبه الجزيرة الأندلس بعد تلك الإنجازات التى حققها فى تأمين حدود دولته شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً ، سواء بطريق القوة أو بطريق الدبلوماسية ، واطمأن الناس على أنفسهم فى أمارته وأذعنوا له بالولاء والطاعة ؛ فأعاد إلى دولته وحدتها وتمكن إلى جانب ذلك إقرار هيبة الخلافة القرطبية فى المغرب الأقصى ، مما جعله يتفرغ للقيام بإصلاحات وتغييرات وضعت الخلافة الأموية بالأندلس فى مصاف الدول القوية^(٢٠) .

وفى أواخر سنة ٣١٦هـ / أوائل ١٩٢٩م وجد عبد الرحمن الداخل أنه أولى بأن يتخذ لقب خليفة من عبد الله المهدي صاحب القيروان فى إفريقية . فأصدر بيانا أعلن فيه نفسه خليفة وتلقب بأمير المؤمنين ، كما اتخذ لقب الناصر لدين الله والمقصود هنا نصر المذهب السنى وذلك على نصارى الشمال وعلى العبيدين الشيعة . وقد احتفظت لنا النصوص بذلك الاعلان الذى بعث به عبد الرحمن الثالث إلى كافة نواحي الأندلس ؛ وقرئ على المنابر فى كل بلادها ، وأرسلت منه نسخ إلى إفريقية والمغرب . وبذلك يكون عبد الرحمن الثالث (الناصر) يكون أول من أدخل تلك التغييرات الحاسمة على طبيعة الدولة الأموية بالأندلس ، فقد أصبحت الآن خلافة إسلامية عامة مساوية لخلافة

بنى العباس فى بغداد ومتولية شئون الإسلام فى الجناح الغربى لدولة الإسلام من دون الفاطميين (٢١).

وقد استتبع ذلك إدخال بعض التعديلات الجديدة الأخرى فى شكل خلافة قرطبة ونظامها . فوضع عبد الرحمن الثالث نظاماً إدارياً يعطى دولته الهيبة والمكانة بين الدول . فازداد البلاط القرطبى ضخامة ووجاهة ، وكثر القواد فى جيش الخليفة، وتعددت مراتبهم ودرجاتهم وكثر الوزراء وازدادوا أهمية . وإن كنا نلاحظ أن عبد الرحمن الناصر كان كثيراً فى تنقلات الوزراء . وفى أول عام تقريباً لقيام الخلافة كان يجرى تنقلات بين الوزراء والقواد والعمال، وكان هدفه فى ذلك ألا تطول ولاية رجل فى وظيفة أو ناحية فيستبد بالسلطة ، دون الخليفة . ولكن هذه السياسة أدت فى نهاية الأمر إلى إضعاف مكانة القواد والوزراء وإضعاف المركز الممتاز الذى كان يتمتع به أبناء البيوت الموازية الذين قدموا للإمارة . كما رأينا أجيالاً متوالية من كبار الرجال فى شتى نواحي الحكم والإدارة والحرب (٢٢).

وبهذه المناسبة نقول أن عبد الرحمن الناصر كان يؤمن بالسلطان المطلق للخليفة . ولا يرى أن يدع رأى لكبار رجال الدولة ولا يسمح بشئ من الإستقلال المحلى لولاية الأقاليم . وكان هدفه الأخير كما قال فى بعض رسائله التى كانت تذاع على المنابر : " أن الأمة ينبغى أن تتحول كلها إلى رعية مستأمنة ، أى مطيعة ، تأتمر بأمر الخليفة ولا يشاركه فى أمره أحد .

وقد ناقش عبد الرحمن الناصر آراءه تلك مع سفير من سفراء امبراطور التيتون، وقد بلاطه، وكان يسمى "يوحنا الجوزرىنى" فقد قال له عبد الرحمن ما معناه، أنه معجب بالامبراطور التيتونى، "أوتو" ولا يأخذ عليه إلا أنه يتر جانباً من سلطانه لوزرائه وامراء الإقطاع، وذلك فى رأيه لا يتفق مع سلامة الدولة وهيبة السلطان. وبالفعل نرى أن عبد الرحمن الناصر كان حاكماً

مطلقاً بالمعنى الدقيق للكلمة ، وخاصة بعد أن وفق إلى الإنتصارات الباهرة التي حققها داخل بلاده وخارجها . فقد تحول إلى سلطان عظيم ذي بلاط فخم وجاه واسع وأبهة بالغة ، وبينما رأينا أن جده عبد الرحمن الثاني (الأوسط) كان يتبسط مع وزراءه وشعرائه وندمائه ، حتى تجري بينه وبينهم الدعابات . ولكن على العكس ، نجد عبد الرحمن الناصر سيداً رفيعاً عالياً يجلس لوزرائه في مجلس فخم وبنظام تام ، ولا يأذن لأحد من الرعية الأصاغر في الدخول عليه والحديث معه .

ولم يكن السبب في ذلك ، أن عبد الرحمن الناصر كان بطبيعته طاغية، ورجلاً خشناً، بل على العكس من ذلك كان إنساناً شديد الحساسية بالغ الحياء . وقد رأينا أن أدبه الجم كان من أسباب وصوله إلى الإمارة - ولكنه قبل أن يلى الإمارة رأى من جرأة الوزراء والقواد والعمال ما هبط بجلال الإمارة وما جعل جده وسلفه "عبد الله بن محمد" أقرب إلى الرئيس منه إلى الأمير أو الخليفة^(٢٣) .

وعندما تولى عبد الرحمن الناصر، ظن أن من واجبه أن يضع حدا لهذا التبسيط ، وأن يرفع مكانة الخلافة ، لأنه كان يرى أن ذلك من ضرورات السلطان للقوى . ثم أننا رأينا كيف أن رجال النواحي عندما تمتعوا بسلطات محلية في أقاليمهم أيام عبد الرحمن الأوسط وابنه الأمير محمد بن عبد الرحمن، أدى ذلك إلى طمعهم في السلطان فأخذوا يستبدون بنواحيهم . وانتهى الأمر كما رأينا إلى الفتنة الكبرى التي اجتاحت الإمارة القوطية (الأموية) ثلاثين سنة في أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر؟ .

لذلك نجد أن عبد الرحمن الناصر لا يسمح بأى وجه من وجوه الإستقلال لأهل النواحي ، ويصر على أن يرسل لهم العمال من عنده . ولا يزال ينقل أولئك العمال من مكان لمكان ، وقد أدى ذلك بالفعل إلى استتباب

الأمر وارتفاع هبة الخلافة ولكنه أدى إلى غضب أفراد البيت الحاكم أو البيوت الموازية التي ذكرناها . وقد رأينا أنه عندما عهد عبد الرحمن الناصر في كبار الولايات إلى مواليه ، من أمثال " بدر بن أحمد " ، ونجدة الحيرى، وغائب الناصرى، تأمر كبار القواد الأندلسيين عليه مما أدى إلى كارثة "معركة الخندق" (٢٤).

وقد اتعظ عبد الرحمن الناصر بما حدث له في ذلك اليوم. فعاد مرة أخرى يسترضى بيوت الحاكم أو الحكم وجعل لهم الرياسة على مواليه. واهتم بأن يعيد إلى رجال تلك البيوتات ما كان لهم من سلطان وهبة. ولكن سياسته الأولى كانت قد أضعفت هذه البيوت ورجالها. وكذلك كانت سياسة عبد الرحمن حيال مواليه أجناد العرب في نواحي مرسية وأشبيلية وفي الكورة الجنوبية، قاضية على ما كان أصحاب الكور المجندة يرسلونه من جند عربى باسل قادر على خوض غمار المعارك. وقد كان خسارة ولا شك فيها لأن عرب الكور المجندة رغم ميلهم إلى الفوضى واستخفافهم بالحكومة المركزية وعدوانهم على من يعيش معهم من أهل البلاد، كانوا جنوداً بواسل فيهم تلك العصبية العربية التي نعرفها. فلما فقد هذا الجندي العربي مكانته، بل أعفى أصحاب الكور المجندة من إرسال العشور وأداء ضريبة بدلاً منها تسمى ضريبة الحشد نلاحظ إن الجيش الأموي الأندلسي فقد عنصراً هاماً من عنصر قوته (٢٥).

ولكننا لا بد أن نضيف إلى أن عبد الرحمن الناصر رغم ميله هذا إلى الاستبداد لم يكن ظالماً ولا متهوراً . فلم يؤثر عنه أثناء خلافته الطويلة أنه قتل وزيراً أو صادر مال إنسان أو تعدى على حقوق الرعية أو بالغ في عقاب موظف مسيء . بل كان في ذلك كله رجلاً كريماً سمحاً، لا يتدنى إلى عدوان أو إراقة دماء . ولا يرضى بأن ينزل عقاباً شديداً بأحد من خصومه. ويكاد عبء الرحمن الناصر يكون الوحيد من بين كبار خلفاء الإسلام الذين تصرفوا في

الخلافة تصرفاً سليماً كريماً يتفق مع أخلاقيات الإسلام ومكارم الأخلاق والأصول العربية الكريمة .

عبد الرحمن الناصر وإنشاء مدينته الزهراء :

عندما بلغ سلطان عبد الرحمن الناصر ذلك المبلغ وجد أن قصوره في قرطبة لم تعد لائقة بالمركز العظيم الذي وصل إليه وكان سكان قرطبة قد كثروا في أيامه وتقاطر إليها الناس حتى وصلت المباني إلى " تل الرصافة " الذي كان يقوم عليه قصر الرصافة . ثم إن أسواق البلد ضاقت بمن فيها ولم يعد من الممكن لجيوش عبد الرحمن ومواكب السفراء التي ترد على قرطبة باستمرار، والسير في شوارع المدينة دون مضايقة الناس .

لهذا فكر عبد الرحمن الناصر في أن ينشئ لنفسه عاصمة ملوكية إلى جانب قرطبة، يتخذ فيها القصور لنفسه وأهل بيته وحشمه وخدمه وحرسه. فقصده مهندسوه إلى جبل "العروس" المطل على قرطبة من الناحية الجنوبية الغربية على بعد ستة كيلومترات من العاصمة ، وقدموا إليه مشروعاً مدينته المملوكية على سفح جبل (جبل العروس) . خاصة وأن مياه الأمطار تتجمع في هضبة بأعلى هذا الجبل وتتسائل على السفح . فلو أنشئت قنوات مهندسة بنظام خاص لإمكانية إجراء (جريان) الماء من أعلى الجبل إلى السفح بنظام خاص، يمكن إقامة مدينة ملوكية على طبقات أو مستويات من ذلك السفح. وتلك هي الفكرة التي قامت عليها "مدينة الزهراء". التي بدأ عبد الرحمن الثالث (الناصر) في إنشائها . ويقال أ،ها منسوبة إلى واحدة من نساء عبد الرحمن تسمى " الزهراء " ماتت عن مال كثير ، وأوصت الخليفة الناصر بأن ينفق هذا المال في إفتكاك الأسرى المسلمين . فلم يجب عبد الرحمن الناصر أسرى يفديهم بهذا المال ، فقرر إنشاء هذه المدينة وأطلق عليها اسم " الزهراء " . وتلك في الغالب حكاية من طرف ما يسوقه الرواة في كتب التاريخ، وإن كان لها مغزى ومعنى.

وقد بدأ عبد الرحمن الناصر فى بناء الزهراء فى أول المحرم سنة ٣٢٥هـ / نوفمبر سنة ٩٣٦م وعهد فى الإشراف على بنائها إلى ابنه الحكم بن عبد الرحمن ووضعت خططها على أن تكون مدينة ملكية قائمة بذاتها على بعد خمسة كيلو مترات شمال غربى قرطبة على سطح جبل العروس ، وقد بنيت على مدرجات بحيث يرقى من داخل المدينة من درجة إلى درجة ، وفى كل درجة يجد قسماً من أقسام المدينة ويدخل الإنسان إليها أسفل الجبل بعد مدخل يسمى " باب الإقباء " جمع قبو، ويراد به هنا القبة . ومعنى ذلك أن هذا المدخل كان تقوم فوقه وتحيط به قباب . ويسير الإنسان مسافة طويلة على طريق سبلط تقوم على جوانبه الأعمدة وغرف الحرس حتى يصل إلى باب السدة ويراد به باب القصر، ويصعد درجات وإلى جانب المصعد المدرج مصعداً آخر للخليل وبلا درج ، فيصل الإنسان إلى المستوى الثانى من مستويات مدينة الزهراء . وهنا مساكن الجند والحرس أصحاب الحرف الذين تحتاج إليهم المدينة، وهنا أيضاً وجدنا آثار المسجد الجامع لمدينة الزهراء . وكل هذه البيوت محاطة بالأشجار والخضرة .

فإذا انتهى الإنسان من ذلك المستوى صعد مرة أخرى حتى يصل إلى سطح منبسط سوق لتبنى عليه قصور كبار رجال القصر وموظفيه ولتقيم فيه جماعات الحرس الخاص بالخليفة؛ وما يلزم لهؤلاء جميعاً من الجماعات والمساجد^(٢٦) .

وبعد ذلك يصعد الإنسان مرة ثالثة حتى يصل إلى المستوى لمدينة الزهراء ، ومواجهة لأول صعوده البهو الكبير . الذى أنشأه الناصر لإستقبال السفراء والملوك الأجانب ، وهو بهو ضخم فخم يتكون من ثلاثة أقواس من طراز عصر الخلافة ، ويفضى الإنسان من المدخل إلى قاعة فسيحة مقسمة طولياً إلى ثلاثة من البهو . فأما البهو الأوسط فينتهى فى الصدر بمجلس الناصر ، هناك يجلس الخليفة على عرشه تحيط به مقاعد أفراد أسرته المالكة أو أفراد

الأسرة المالكة بحسب مراتبهم ؛ على الجانبين مقاعد الوزراء وكبار رجال الدولة والضيوف مرتبة ترتيباً محكماً بحيث يكون لكل رجل من رجال الدولة مقعده الذى لا يتغير حتى إذا كان الناصر وتبين خلو أحد المقاعد عرف من المتغيب . أما البهوان الداخليان فيستعملان لموظفى القصر وكتاب الخليفة . وهذا المجلس الجميل يبدو للرأى من بعيد عندما يرنو الإنسان من مدينة الزهراء . ومن الواضح أن عبد الرحمن الناصر أراد على هذه الصورة لكى يستطيع فى مجلسه أن يرى السفراء والملوك وهم مقبلون من بعيد ثم صاعدون إلى القصر . وقد كشف عن آثار هذه المدينة الملكية. وبدأ فى إعادة إقامة بعض منشأتها وخاصة بهو الاستقبال وقد جلبت مادة البناء من شتى نواحي الأندلس وأوروبا وأفريقية . وبذكر المؤرخ ابن عذارى وهو من أهل القرن الثامن الهجرى أنه كان يصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ٦ آلاف صخرة سوى التبليط فى الأسس (أى الأسس) وجلب إليها الرخام من قرطاجنة وأفريقية ومن تونس . وكان الأبناء الذين جلبوه هم: عبد الله بن يونس وحسن القرطبى، وعلى بن جعفر الاسكندراني^(٢٧) .

وأمام بهو الاستقبال وضع حوض للسباحة من الرخام ، حفر له فى الأرض وهو منقوش ومزين بالتمائيل . وقد جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية . وكان عليه كما يقول ابن عذارى ٦ أمثالا من الذهب الأحمر مرصع بالدر النفيس الغالى مما صنع بدار الصناعة بقرطبة . وغذا كنا قد أطلنا فى وصف المدينة فإنما أردنا توضيح الصورة التى كانت عليها الأندلس خاصة الجانب الاقتصادى. إذ أن المدينة هذه تؤكد على رخاء الأندلس وارتقاء الفنون فيها .

وكان الناصر قد قسم الجباية إلى ثلاثة أقسام . قسم للجند وقسم للبناء ، والقسم الثالث للادخار . وكانت جباية الأندلس آنذاك ٥,٤٨٠ مليون ديناراً من الكور والقرى ومن المستخلص والأسواق ٧٦٥ ألف دينار .

وفى عهد عبد الرحمن الناصر بلغت قرطبة أقصى ازدهار لها ف قيل أن عدد دورها بلغ ١١٣ ألف دار؛ فإذا قدرنا لكل دار عشرة سكان على الأقل، كان المجموع مليون ومائة وثلاثين ألف. وهذا رقم مستبعد لأن الأحوال فى العصور الوسطى، لم يكن يسمح لقيام مدينة بهذا الحجم. ولكننا نستنتج منه بصورة عامة فكرة عن اتساع المدينة وازدهارها. ومما يدل على كثرة سكانها ما يقال أن عدد الحمامات بها بلغ ٣٠٠ حمام وهو رقم يدل على ضخامة تلك المدينة .

ولا نستطيع أن نجارى المؤرخين فيما ينكرونه من أرقام عن اتساع مساحة قرطبة فى عصر الناصر وابنه الحكم المستنصر ، مثل قولهم أن عدد مساجدها بلغ ٣٠٠٠ مسجداً، وهو رقم لا يمكن تصديقه إلا إذا افترضنا أن معظم هذه المساجد كانت مساجد خاصة. أى أن كل صاحب بيت كان ينشئ فى بيته مسجداً له ولأهله. وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل الرحال .

وبهذه المناسبة لابد أن نشير إلى الزيادة الثالثة التى أمر عبد الرحمن الناصر بإضافتها إلى مسجد قرطبة الجامع . فازيل جدار القبلة ونقل إلى قرب ضفة النهر ، وهناك بنى سور يفصل المسجد عن الشارع المبلط بين النهر وسور المسجد ويسمى بالرصيف، وكان متنزّه أهل قرطبة^(٢٨) .

أما زيادة عبد الرحمن الناصر فى المسجد الجامع فقد بلغ بها إلى أقصى ما وصل إليه من رقى وجمال . وقد بنيت على نفس طراز بقية المساجد، أى أن أقواسه بها مزدوجة ومداميك الأقواس من الحجر الأبيض والطوب الأحمر . وأجمل ما فى هذه الزيادة هى البلاطة المؤدية إلى بلاطة المحراب وقد قامت على عمد وأقواس مزدوجة ترتفع فوقها قبة تلقوم على عصابات من الحجر. وعند دراسة بناء هذه القبة تيقن المهندسون أن المعماريين الذين أنشأوها ، وعلى رأسهم العريف (المهندس) أحمد بن بدر قد

وضعوا الأساس للطراز الذى شاع فى أوربا بعد ذلك، وعرف بالطرز القوطى. وأكبر خصائص الأعمدة والعقود المدببة التى تقوم عليها القباب .

ومحراب هذه الزيادة آية من آيات الفن الأندلسى لأنه ليس مجرد حنية فى جدار المحراب وإنما هو غرفة من الرخام سقفا قطعة واحدة من الرخام على هيئة محارة . وكان فى وسط هذا المحراب الصغير كرسى يوضع عليه المصحف العثمانى ومنه يقرأ القارئ قبل الصلوات الجامعة (٢٩) .

وقد أنشأ عبد الرحمن الناصر صومعة المسجد الجامع ، أى منذنته وهى منذنة فى غاية الفخامة والضخامة والجمال ، لأنها بناء يقوم فى النهاية الشمالية لصحن المسجد المكشوف ، وكانت ترتفع فى الجو ثمانين متراً ، ولها موقفان للأذان . ويزين شبه سقف صغير مزين بتفافيح، أى كرات ، اثنتان منها من الذهب وواحدة من الفضة .

كذلك أقام الناصر ما يعرف بالظلة فى صحن المسجد الجامع وهى عبارة عن سقف متحرك يقام من أعمدة من الخشب والحصر ليستظل بها الناس أثناء الصلاة فى الصيف . ثم ترفع بعد الصلاة لأن صحن الجامع الفسيح كان مزينا بأشجار التارنج ، وهى ظاهرة تتفرد بها مساجد الأندلس عن غيرها من صحنون المساجد فى العالم الإسلامى . وأكثر الناصر أيضاً من بناء المساجد وتعميرها فى شتى نواحي الأندلس . ويعتبر عبد الرحمن الناصر من أكثر حكام المسلمين منشآت فى مختلف نواحي بلاده . فإليه يرجع الفضل فى تجديد أو إنشاء عدد كبير فى مساجد مدن الأندلس ومنشآته إلى جنوبه . ولا نزاع فى أن ذلك الرجل يعبر من كبار البنائين فى تاريخ الإسلام. ولم تقتصر منشآته على المساجد والقصور بل إليه يرجع الفضل فى بناء وتجديد عدد من القناطر ، فهو الذى قام ببناء قنطرة الوادى فى "أودية" وتجديد قنطرة سرقسطة وقنطرة ماردة وغيرها .

عبد الرحمن الناصر وحكم التاريخ :

بعد هذا العرض التاريخي عن حياة تلك الخليفة العظيم الذي يعتبر من أعظم الخلفاء المسلمين في كل العصور نقول أن عبد الرحمن الناصر هذا تميز بخصائص وصفات تؤهله إلى المجد العظيم الذي بلغه . فقد ذكرنا تعففه عن الدماء وبُعده عن المساس بأحد من رجاله أو مصادرة أمواله . وقد كان يكتفى في تلك المجال بأن يقدم إليه الحجاب هدايا ذات قيمة كبيرة تضم الأموال والخيول والسلاح في المناسبات ؛ وقد اشتهر بما كان ينفقه في الحروب والجهاد والمنشآت والعناية بالمرافق .

ولكنه لم يلجأ قط إلى الحصول على مال من أحد بالقوة أو العنف ، بل يحكى المؤرخون حكاية تدل على عظيم شعوره بمسئوليته عن أرواح وأموال وعفته عنها . فلا غرابة والحال هذه ، أن يصل عبد الرحمن الناصر إلى هذه المكانة التي وصل إليها في تاريخ الإسلام . فهذا الرجل تولى الأمر في الثانية والعشرين من عمره ، والبلاد مشتعلة نارا، ونواحيها خارجة عن الحكومة المركزية في قرطبة . فقد أفسد أمرها الثوار وخاصة عمر بن حفصون وأمثاله من : ابن الشالیه والسرمباقي وعبد الرحمن بن الجليقي، وغيرهم من كبار ثوار المولدين ؛ بالإضافة إلى ثورات العرب على حكومة قرطبة، وخاصة من ناحية المرية وكورة أشبيلية . فما زال ذلك يعمل بجهد ودأب مستعينا في عمله بالسرعة والحزم ، وكذلك بالخلق الكريم . فقد ضرب للثائرين المثل في عمله في حسن الخلق واحترام الكلمة ؛ فما كان يستنزل ثائراً إلا وفى له بوعده وعهده وصدق فاحس الثوار بأنهم أمام حاكم من طراز فريد ، فاطمئنوا إليه ودخلوا في طاعته . وبعد عشر سنوات من ولاية الناصر نجده قد استطاع أن يعيد الهدوء والأمن والنظام والوحدة إلى دولته الواسعة ، وخاصة في الجنوب والشرق والغرب . ثم تمكن من جذب واستتلاف رجال الثغر الأعلى من أمثال بنى قسى وبنى هاشم الطويل ، فاستأمنوا إليه هم الآخرون

ودخلوا في طاعته. وهكذا تمكن هذا الخليفة من الإستفادة من ملوك أهل الثغر، وكانوا فرساناً أشداء. ويكفى أن نذكر هاشماً الطويل وقد بلغ في إخلاصه للناصر، بعد أن استأمن إليه أنه استشهد في سبيله في موقعة الخندق .

وعندما تولى الناصر كان ملوك النصرانية قد طمعوا في ثغور الأندلس الشمالية، فما زال يقاتلهم كما رأينا ويوالى الحملات عليهم حتى إنتهت أيام أرديو الثاني، ودخل خلفه (ابناؤه) في حلف الناصر وأطاعوه. وقد رأينا كيف أن ملوك أسبانيا النصرانية جميعاً قد أصبحوا إما من أتباعه أو أحلافه. وبذلك استطاع عبد الرحمن الناصر أن ينشر على شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) كله أمناً واستقراراً لم يعرفه من قبل .

وفي أواخر حكم عبد الرحمن الناصر، بلغ من ازدهار بلاده وتآلق أضواء قرطبة، أن وفد السفراء عليه من شتى بلاد أوربا. ومن ملوك أوربا الذين أرسلوا السفارات إلى الناصر الملك "أوتو" امبراطور الأمبراطورية الجرمانية المقدسة. ويسميه المؤرخون "هوتو" ملك الصقالبة. فقد أرسل إليه سفارة استقبلها الناصر في البهو الكبير في مدينة الزهراء، وبعث إليه "هيوكابييه" ملك الفرنجة في فرنسا ، ويسميه مؤرخونا "هوفو" ملك الفرنجة. وغيرهم كثير مثل ملك إيطاليا وملك توسكانيا، وكونت برشلونة. وبابا روما الذي أرسل إليه يخطب وده ، وألمانيا وكل دول أوربا. حتى أن راهبة المانية عندما زارت قرطبة، ذكرت أنها درة الدنيا (٣٠).

ولا شك في أن طول عصر عبد الرحمن الناصر أعانه على تحقيق هذه العظام التي قام بها ، فإن طول العمر يبلغ الآمال . فقد عاش الناصر حتى أهلك أعداؤه ، وإنفسح أمامه السبيل لكي يقوم بأعماله كلها في إعادة الأمن والنظام، إلى تثبيت الحدود ، إلى تنظيم الإدارة وكل الإصلاحات والإنشاءات التي عرضنا لها سالفاً في هدوء وثقة بالنفس ، وبلغ بذلك أقصى ما بلغه حاكم

مسلم في العصور الوسطى . ولقد قدر المؤرخون المحدثون عبد الرحمن الناصر أعظم تقدير ، فقد قال فيه "توزى" المستشرق " أنه أقرب إلى حكام العصر الحديث منه إلى ملوك أوروبا الوسطى ، أو العصور الوسطى " . وقال ليفي بروفنسال : " إن عبد الرحمن الناصر يعتبر دون شك من أعظم ملوك أوروبا كلها في كل العصور " . وأشار إليه أرنولد تونبي المؤرخ واتخذته مثالا يحتذى به للحاكم المستتير الذي يتخطى عصره بملكاته ومواهبه وأخلاقه وفهمه الدقيق لمسئولية الحاكم وقدرته على القيام بمسئوليته جميعاً .

وتوفي عبد الرحمن الناصر في الثاني من رمضان سنة ٣٥٠هـ — ١٥ / أكتوبر ٩٦١ م بعد أن قام بكل ما ذكرناه من أعمال عظيمة بالأندلس إلى أزهرى عصورها . ودفن في رياض قصر قرطبة حيث توجد مدافن أمراء البيت الأموي الأندلسي وخلفائه ، ليقوم على الخلافة من بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي تلقب بالمستنصر (٣١) .

خلافة الحكم بن عبد الرحمن المستنصر :-

تولى الحكم بن عبد الرحمن الناصر (الملقب بالمستنصر) في الثالث من رمضان (سنة ٣٥٠هـ / ٢ صفر ٣٦٦هـ — ١٦ / أكتوبر ٩٦١ - ٣٠ سبتمبر ٩٧٦ م) . وكان كبير أبناء عبد الرحمن الثالث (الناصر) ، وكان خير خلف لخير سلف ، ذلك أننا نستطيع القول أن حكمه كان مكملًا لحكم أبيه عبد الرحمن الثالث (الناصر) فإذا كان الناصر رجل حكم وسياسة وحروب وعمارة فقد كان ابنه الحكم (المستنصر) رجل علم وحضارة . ولم يكن الحكم مجرد حاكم يعطف على العلماء ويرعى العلوم ، بل كان هو نفسه عالماً مشاركاً في علوم عصره . فقد كان الحكم (المستنصر) متقناً للعلوم الإسلامية حتى سمع الحديث منه الشيوخ وأجاز لهم مروياته وأجاز مروياتهم . وكانت أبوابه مفتحة لطبة العلم ولا يرد منهم أحداً . وأنشأ في القصر مكتبة لا نبالغ إذا

قلنا أنها أعظم مكتبة أنشأتها دولة إسلامية في العصور الوسطى اللهم ربما مكتبة بغداد التي أنشأها أبو جعفر المنصور . فإن لم تكن تتفوق عليها فهي على الأقل كانت تضاهيها . لقد قام الحكم ببناء خاصاً ، ووضع فيها أناس متخصصون في علم المكتبات ، قاموا على الفهرسة والتسجيل والتنظيم . وكانت فهرستها تقع في ٤٤ كراسة لا تضم إلا العناوين فهي أشبه إلى حد كبير بمدونات الجامعات اليوم الخاصة بطلبة الدراسات العليا - ماجستير ودكتوراه- . وقد قدر المؤرخون كتبها بما يقرب من نصف مليون مجلداً . وأنشئ لها مصنع خاص بالتجليد . وعمل فيها عشرات النساخين . وكان للحكم (المستنصر) مراسلوه الذين يوافونه بالكتب الجديدة لأول ظهور لها . وكان ينفق على ذلك المال الكثير . وهناك كتب شرقية كثيرة كان الحكم بن عبد الرحمن الناصر أول من قرأها ، لأنه عندما كان يسمع بأن مؤلفاً جديداً يكتب كتاباً كان يرسل إليه مالا لتكون له النسخة الأولى ، ومن أمثلة ذلك كتابه "الأغانى" لأبى انفرج الأصفهاني . فقد أرسل إليه المستنصر ألف دينار ليرسل إليه أول نسخة من الكتاب ففعل أبو الفرج (٣٢) .

وقد انتقد الحكم المستنصر بسبب هذا الإسراف في الإنصاف إلى العلم على نحو ما أسلفنا ، فإن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي ، وهناك وجه من الحق في هذا الحكم . فلو أن المستنصر اكتفى بتشجيع العلم دون الإشتغال به لما وجه إليه هذا الانتقاد ولما وجد أمثال بن أبى عامر سبيلاً إلى السلطان .

والطريف في الأمر أن الحكم (المستنصر) كان يقرأ الكثير من هذه الكتب ، ويستدرك على مؤلفيها بخط يده . وقد عثرنا بالفعل على كتب عليها خط الحكم (المستنصر) وملاحظاته ؛ وكان العلماء بعد المستنصر يعتبرون هذه الملاحظات أصولاً تعتمد . ولم يقتصر الحكم على علوم العرب ، بل عنى بكل العلوم ، وتحت إشرافه نقلت بعض المؤلفات الأجنبية إلى العربية قام بها

: قاسم بن الصبغ البياني وحفص بن البر لكتاب "كتاب التاريخ" "لهورشيوش من اللاتينية وترجموا له" ديوستوريدس" في الطب من اليونانية . وكان يرسل الناس إلى شتى البلاد - ما يعرف اليوم بالبعثات الخارجية - ويطلب إليهم أن يكتبوا دراسات عما زاروه من الأقطار، ويحتفظ بهذه الدراسات في مكتبته. ومن أمثلة ذلك رحل "ابراهيم الطرطوشي" الإسرايلى فى بلاد أوربا . ورحلات "محمد بن يوسف الوراق" فى أفريقية؛ وقد كثرت المكتبات فى الأندلس فى أيام الحكم، وأصبحت صناعة النسخ من الصناعات الزاهرة . وقد اشتغل فيها النساء فى البيوت بصفة خاصة واشتهرت الكثيرات منهن بجودة الخط ودقة النسخ حتى طلبت منسوخاتهن بالإسم . وكانت نسخ القرآن التى تكتبها الإندلسيات مضرب المثل فى الدقة والجمال . وتتافس الناس فى اقتناء الكتب حتى أصبحت تشتري لإستكمال مظهر الرقى والترف . فكانت المكتبة جزءاً من مركز الرجل الاجتماعى المتحضر (٣٣) .

ونتيجة لذلك نهضت صناعة الورق نهضة كبرى واشتهرت بلاد أندلسية بورقها الجيد مثل بلنسية وطرطوشة وشاطبة. وكان الورق الشاطبى مشهوراً فى العالم الإسلامى كله. وبلغ من جودته أن بعض الوثائقين كانوا لا يكتبون الوثائق إلا عليه . وإلى جانب جودة نوعه اشتهر برخص ثمنه . وقد عرف عرب الأندلس صنفى الورق اللذين عرفا فى العصور الوسطى وهما : الكاغد وهو ورق عادى ، والرق وهو ما يعرف البرشمان ، وهو ورق متين سميك يقارب القماش فى مئنته مع الاحتفاظ بصلابة الورق . وقد وصلت الرقاق الشاطبية إلى كافة نواحي أوربا وطلبتها البابوية لكتابة الإنجيل ووثائق الكنيسة عليها، ثم قاد الإيطاليون صناعتها بعد ذلك .

ولم تتفرد صناعة الورق وحدها بالتقدم ، بل تقدمت كذلك كل أدوات الكتابة من حبر وأقلام وشمع للأختام وسكاكين لقطع الأقلام وما إلى ذلك .

وقد نبغ الأندلسيون فى صناعة الأحبار وعرفوا المعدنى والنباتى والمطبوخ وغير ذلك مثل البسيط والمركب منها . وعرفوا أقلام الغاب ويسمونه الأنبوب وريش الطيور، بل صنع بعضهم أقلام حبر، أى أقلاماً تملأ بالحبر وتصنع فى هيئة محكمة بحيث يحملها صاحبها معه ويكتب بها متى شاء . وتفننوا فى صنع المحابر من الزجاج والبلور والرخام، وكانوا يزخرفون المحابر ويكتبون عليها اسم صاحبها بالحبر مع بعض الشعر أحياناً . واشتهروا بمحابر محكمة الصنع تعمل على هيئة المخجر فى قرابة لتوضع فى حزام الثوب أقلامها وأنواع غيار التجفيف^(٣٤) .

ونشأت فى قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس أسواق الرقاقين إلى جانب أسواق الوراقين . فأما الوراق فهو تاجر الكتاب أى المحفوظات فى ذلك العصر . وكان المفروض من الوراق أن يكون عالماً بالكتب وأقدارها وخطوطها بحيث يستطيع تلبية احتياجات عملائه . وفى العادة نجد الوراق من أهل الألب لكثرة مزاولته النظر فى الكتب.

أما الرقاق فهو تاجر الأدوات الكتابية أو مايسمى بالإنجليزية Stationary . وفى بعض البلاد العربية يسمى الدكان بالقرطاسية أى التى تباع القراطيس والأقلام والأحبار والكراسات .

سياسة الحكم (المستنصر) :

ومع كل ما تقدم من اهتمام الحكم (المستنصر) بالعلم والعلوم ، فإنه لم ينشغل عن متابعة أمور مملكته . وقد حاول ملوك النصرانية أن ينتهزوا فرصة انشغاله بالعلوم فبدأوا بالإغارة على أطراف البلاد ، فنهض الحكم (المستنصر) بالغزو ابتداءً من سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣م وأوغل فى أرض ليون ونبرة واستولى على قلاع كثيرة من قلاعها ، وأرغم هاتين المملكتين وغيرهما من الإمارة النصرانية على العودة إلى التسليم بسيادة قرطبة .

وابتداء من سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م ، بدأت سفارات هذه الممالك تتوافد على قرطبة . وقد وصف لنا ابن حيان مؤرخ الإنديس استقبال هذه السفارات في الزهراء والمراسم التي كانت تتبع في هذه الاستقبالات ، وكلها تنطق بما وصلت إليه قرطبة من السيادة في شبه الجزيرة كلها ، ثم تتابعست السفارات من كل من إمبراطور بيزنطة "يوحنا زيمسكس (الدمشقي) Tsimiskes سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م وكذلك أوتو الثاني إمبراطور المانيا الذي خلف أوتو الأول ، لطلب الود والمصالحة مع قرطبة .

حروب الحكم (المستنصر) في المغرب :

لقد ظهر في أيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر أمر قائده الكبير "غالب الناصري" الذي يلقب بفارس الأنديس . وهو أول نموذج من الجند الصقلي الذي وصل إلى مراتب القيادة العليا التي كانت قبل ذلك وقفاً على أبناء البيوت الموازية التي زكروها . وكان غالباً الناصري في شبابه قائداً ماهراً موهوب الجانب لاتجرؤ إمارة نصرانية على تحدى قواته . وكان مقامه الدائم في مدينة سالم ، وكانت وظيفته الرئيسية قيادة جيش الثغور . أى الجيش المرابط على الحدود الشمالية . وقد كان في العادة جيشاً ضخماً معداً أحسن إعداد ومدرّباً أحسن تدريب . وكان الجانب الأكبر والرئيس من الجيش يقيم في مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط . وكانت هناك فرق إضافية في الحصون الكثيرة التي أنشأها الأمراء على الحدود الشمالية وأهمها مجريط (أى مدريد الحالية) وقلعة هنارس أو قلعة عبد السلام ، ووادي الحجرة وسفونشة وأنيشة ، وقلعة النصور وسوريا وأوسيماء وجرماز وناجرة . وكلها في حصون الدوير والإبرو الأعلى ، وهي تقع على سفوح جبال الشارات أو جبال وادي الرمل ، التي كانت تعتبر الحد الطبيعي لبلاد الأنديس . ومن هذه الحصون والقلاع عمل المسلمون على سيادة كل حوض الدوير ؛ وكانت هذه المناطق خلاء

تقريباً. ولهذا سهل على قوات مملكة ليون من ناحية ونبرة من ناحية أخرى التقدم فيها وغزو بلاد المسلمين إذا وجدوا غرة منهم (٣٥).

وإلى آخر أيام الحكم بن عبدالرحمن (المستنصر) ظلت سيادة وسيطرة القوات العسكرية الإسلامية قائمة على مناطق الحدود ، بفضل ما كانت تلك القوات الإسلامية تتمتع به من قوة وحسن استعداد .

وكان المستنصر حريصاً أشد الحرص على أن تكون تلك الحصون في أحسن حالات المنعة والإستعداد، وكان يشحنها دائماً بالمؤن والأسلحة، حتى أن بعض هذه الحصون كانت أشبه بمدن كاملة ، فيها مخازن للطعام وأهوار القمح وصهاريج المياه ومرابط الخيل. ولا زال الكثير باقياً حتى اليوم يشهد على عظمة تاريخ وحضارة الأندلس الإسلامية .

وكان للخلافة جيش آخر إلى جانب ذلك الجيش يقيم في مدينة الزهراء، يسمى جيش الحضرة. وكانت قيادة جيش الحضرة خاصة بالخليفة - ما يعرف اليوم في مصر بالحرس الجمهوري - ويولى الخليفة من ينوب عنه ممن يريد من قواده. فإذا خرج الخليفة للغزو جمع قيادتي جيش الثغور وجيش الحضرة (٣٦).

وإذا جاء وقت النفير (الحرب) أعلن الخليفة عزمه للخروج وأمر بالإستعداد ، فتبدأ عملية واسعة النطاق تسمى " البروز " فتتوافد قوات الكور المجندة وتنزل بسهل واسع شمال قرطبة وقصر الرصافة يسمى " فحس السراق " ثم يخرجون سرانق الأمير ويجعلونه وسط الفحص . وتضرب فرق الجنود خيامها وتقبل قوات المتطوعة . وكانت في العادة ألوف من الناس الذين يخرجون للجهاد في سبيل الله تعالى . وتستمر مدة البروز شهراً، ثم يخرج الخليفة بجنده الصقلي وحرسه و فرق الكور المجندة والمتطوعة، وينتقل من حصن إلى حصن حتى يصل إلى الحدود فينضم له

جيش الثغور. وهنا تبدأ الصائفة، أى العملية العسكرية الصيفية ومدتها شهران من الغزو فى أرض العدو^(٢٧).

ولكن الموضوع الذى شغل الحكم أكثر من غيره ، كان أمر الفاطميين فى المغرب ، وقد بالغ الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى الإهتمام بذلك. إما لأنه رأى فى محاربة الفاطميين جهداً ، أو لأن نصحاؤه صوروا له الخطر الفاطمى على صورة أكبر مما ينبغى. والحقيقة أن شعور الحكم المستنصر الدينى وتضلعه فى الفقه السنى وحماسه لمذهب (مالك) كل هذه الأمور جعلته ينظر إلى الفاطميين ودعوتهم الاسماعيلية على أنهم أعداء . فقرر الحكم المستنصر ضرورة محاربة الفاطميين خاصة بعد أن صور له وزراؤه صورة قاتمة تجاه الفاطميين .

على أية حال رأى الحكم المستنصر الفرصة مواتية لمحاربة الفاطميين خاصة عندما نهضت دولة الأدارسة على يد الحسن بن قنون ودخلت دولتهم فى طورها الثانى؛ لأن بقية منهم - أى من الأدارسة - فى أفريقية ، كانت قد اعتصمت فى قلعة "حجر النسر" جنوبى تطوان وقد تولى أمرهم أيام الحكم ، القاسم بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالسن بن قنون . وكان أميراً صغيراً يعتز بتأييد جماعات الصنهاجيين معظمهم من قبائل غمارة . وكان الحسن بن قنون يعرف ضعف مركزه وعجزه عن مواجهة هذا ، ليرضى الحكم المستنصر فى بلاد الأندلس، إذ كان يريد الإخلاص لبيته ولا شئ غير ذلك. وقد طال الأمر بالحكم المستنصر وهو يرسل القوات وينفق الأموال حتى لقد استدعى قائده الأعلى غالب بن عبد الرحمن الناصرى الملقب بفارس الأندلس من الثغور الشمالية وأرسله إلى المغرب . وأنفق الحكم المستنصر فى ذلك مالا كثيراً. ولم ينتهى الأمر بعد فى هذا الشأن إلى نتيجة مرجوة. وقد أسف الحكم فى أخريات أيامه على ما أنفقه من مال وما ضحى به من أنفس فى هذا الصدد، مما أدى إلى ضعف ثغوره الشمالية، وكانت أولى بعنائه وأحق

بالمراقبة الدائمة خاصة لو كان يعلم - أى المستنصر - أن وجهة الفاطميين ميممة نحو المشرق وليس بلاد الأندلس . إذ كانت المغرب تمثل قاعدة لانطلاق الفاطميين على الخلافة العباسية فى بغداد والإحلال مكانها . إذ كان هدفها القضاء على الخلافة العباسية .

وعموماً، وبعد هذا العرض التاريخي لفترة حكم (المستنصر) فى بلاد الأندلس، لايساورنا شك فى أن حكم الحاكم بن عبد الرحمن يختلف عن سياسة أبيه تجاه أفريقية. فإذا كان أبيه عبد الرحمن الناصر كان يعرف دائماً الحد الذى يقف عنده فى كل ميدان ، وأنه كان بالنسبة للمغرب يكتفى أو أكتفى بالإستيلاء على سبته وطنجة ومليلة واعتبرها أجزاء من بلاده وجعلها قواعد تحمى سواحله الجنوبية . وعن طريق هذه القواعد كسب تأييد الكثير من القبائل الزناتية التى كانت تتاوى الحكم الفاطمى . وقد كان الناصر يرسل الهدايا الفاخرة إلى رؤساء القبائل ويستقبل من يفد منهم على الأندلس استقبالا عظيماً ، ويفتح أبواب العمل فى جيشه للمرتزقة ما أهل المغرب الذين كانوا يفيدون عليه فى جماعات كبيرة. وكان هذا كافياً ليضمن له السيادة على ساحل المغرب المواجه لدولته فى بلاد الأندلس . أما ابنه (الحكم المستنصر) فقد تطلع إلى فتح بلاد المغرب الأقصى الشمالى وأنفق جهداً ومالاً كبيرين ، ولم يجن من وراء ذلك إلا ضعف جانب المسلمين فى ثغور دولتهم الشمالية .

على أن الحكم المستنصر، كرّس جهده فى أيامه الأخيرة بالعناية بالعلوم والفنون والآداب . فنظم التدريس فى المسجد الجامع حتى أصبح هذا المسجد ، وكأنه جامعة حقيقية تدرس فيها العلوم، واحتلت حلقات الدرس أكثر من نصف المسجد . وأخرج الحكم الأموال للشيوخ والأساتذة حتى يتفرغوا للتدريس والتأليف . وخصص أموالاً جزية للطلاب ؛ فأعطيت المكافآت والمعونات للمحتاجين منهم وأسند الحكم المستنصر إدارة المكتبة الأميرية إلى أخيه عبد العزيز وكلف أخاه المنذر بالإشراف على شئون جامعة قرطبة ، ورفع نفراً

من العلماء إلى مراتب تشبه الأستاذية اليوم من أمثال : "أبى بكر بن معاوية القرشى" أستاذ الحديث ، " وأبى بكر بن القوطية " والعلماء مثل : "رينيمندو الألبيرى " اسقف النصارى المسمى بـ " ربيع بن زيد " وكان متكناً فى الآداب العربية واللاتينية فكان يمثل كبير المترجمين .

وفى أوائل سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦م دبت الشيخوخة فى جسم الحكم المستنصر، وضعفت أوصاله، ومع أن سنه كانت فى الرابعة والستين، إلا أن علامات الضعف والوهن تزايدت عليه. فدعا الناس إلى بيعته ابنه هشام ، وكان لا يزال طفلاً. وقد تمت هذه البيعة رغم مخالفتها للشرع . ولكن الحكم المستنصر كان شديد التعلق بولده عظيم الرغبة فى أن يستمر الملك فى نسله. وقد انتقده الناس بسبب ذلك . وحمل عليه " ابن حيان " مؤرخ الإندلس ، لأن البيعة تمت بتدبير " صبح الإشكنسية " أم هشام وزوجة الحكم المستنصر الأثيرة على نفسه كانت جارية بشكنسية غاية فى الجمال شديدة الذكاء والطموح ، وكانت تملك قلب الحكم المستنصر ، فاستغلت الفرصة عندما شعرت بدنو أجل الخليفة وطلبت منه ذلك. إذ كانت تخشى أن يصير العرش بعد الحكم إلى أحد أخوته لأن ابنها كان طفلاً . ولهذا فقد إتصلت سراً بنفر من كبار رجال الدولة مثل أبى جعفر المصحفى الحاجب، ويساعده محمد بن أبى عامر لكى تضمن تأييدهما لها إذا مات الحكم . وكان محمد بن أبى عامر إذ ذاك شاباً يافعاً متطلعاً ، ذو هيئة شديدة الذكاء : وقد وصل فى أواخر أيام الحكم بن عبد الرحمن الثالث إلى أن أصبح صاحب السكة والمواريث ، أى المشرف على دار سك العملة وعلى الأوقاف، وتهيأت له بذلك أموالاً كثيرة تمكن بها من ضمان العرش لهشام الصغير (بن الخليفة)^(٣٨) .

وفى عهد الحكم يجب أن ننوه على المسجد الجامع وقد اكتمل فى عهده بعد أن قام بتوسيعه. وتعتبر تلك الزيادة الثانية تنويعاً لأعمال الناصر (أبيه) فى الناحية الحضارية التى كانت قد شغلت الحكم المستنصر أكثر من أى شئ آخر .

مصر الأندلس تحت رحمة الأوصياء على الخليفة :

عندما مات الحكم المستنصر في صفر سنة ٣٦٦هـ / أكتوبر سنة ٩٧٦م ظهرت يادرة تنبئ بما سيتعرض له الأندلس من المتاعب والفوضى فيما بعد، فإن الحكم أوصى بالعرش لابنه الطفل (هشام)؛ وكان عند موته هناك رجال وقواد على صلة قوية بالخليفة ولهم من النفوذ ما يجعلهم يتطلعون إلى السلطان بعد موت الخليفة . وعلى الرغم أن الخليفة كان يستفيد من خدمات هؤلاء و يخضعهم لسلطانه ، إلا أن الأمر يختلف تماماً عندما يكون الخليفة طفلاً وتحت وصاية أمه ، فالوصاية تفتح الباب للوزراء والطامعين^(٣٩).

وعمماً، تولى هشام بن الحكم (الطفل) عرش الأندلس تحت وصاية أمه في (صفر ٣٦٦ - ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / أكتوبر ٩٧٦ - ١٦ فبراير ١٠٠٩م). وقد بادر الفتيان "قائق وجونر" كبير الصقالبة بكتمان وفاة الحكم؛ وقررا استدعاء المغيرة بن عبد الرحمن، وهو عم ولي العهد "هشام بن الحكم" لكي يسند إليه الخلافة؛ ولكن سوء الحظ أراد لهما أن يستشيرا في الأمر "جعفر بن عثمان المصحفي" حاجب الخليفة المتوفى (الحكم) أى رئيس وزراءه وكان أبوه فى أول أمره مؤيداً للحكم فنشأ صديقاً للخليفة، ثم وصل إلى السلطان عن طريق هذه الصداقة الحميمة مع الحكم، ولكنه كان سياسياً سيئاً أنانياً عهد فى الكثير من وظائف الدولة لأبنائه وأقاربه. وكان كذلك غير أمين على الأموال فصور له خياله أنه إذا دافع عن خلافة هشام أصبح هو الوصى وأصبحت الدولة فى يده .

ولهذا فبدلاً من أن يكتم الأمر ، تظاهر بالإقتناع برأى الصقالبة ثم ذهب فاستدعى أنصاره ، وأولهم محمد بن أبى عامر صاحب الشرطة والمواريث وأفضى إليهم بما يدبر الصقالبة ودعاهم إلى تأييد هشام واتفقوا على قتل الصغيرة وتولى قتلها محمد بن أبى عامر . وكانت تلك الجناية الشنعاء نذير شؤم على جعفر المصحفي وأصحابه وعلى الأندلس.

وعلى أثر ذلك بويع الصبى هشام بن الحكم فى يوم الاثنين ٣ صفر ٣٦٦هـ/ أول أكتوبر ٩٧٦م ، وأقبل الناس يبايعونه. ويقال أنه لم يعترض على هذه البيعة أحد، وإن كنا نؤمن أن المصحفى وصاحبه محمد بن أبى عامر قاما بعملية تدليس وإرهاب لى يخلص السلطان لهما . وقد فرحت بهذا " صبح " الملقبة بالبشكنسية . وكانت فى الحقيقة نافارية (أى من نافار) وهى أم هشام الطفل وولى العهد وكانت - كما ذكرنا - أقرب الناس إلى قلب الحكم ، امرأة طموحة إلى السلطان تتدخل فى كل شئ . وكان جعفر المصحفى ومحمد بن أبى عامر يخدمانها ويمكنان لأنفسهما إلى السلطان بالتقرب إليها .

وكان من الواضح أن التنافس واقع بين الرجلين لا محالة لأن كل منهما يتحين الفرصة لنفسه، وبدأ النزاع فعلاً؛ فاستعان محمد بن أبى عامر بـ "صبح" أم هشام، على عريمه، فلم يلبث أن رقى وزيراً، ثم أصبح حاجباً أى رئيس وزراء .

وما إن وصل إلى هذه الوظيفة حتى غدر بصاحبه القديم فأسقطه من الوزارة، وألزمه داره، ثم بدأ تحقيقاً معه فيما ضيع هو وأهله من الأموال، وأمر بسجنه فسجن سجنًا طويلاً، ثم أمر بقتله، وهكذا دفع المصحفى ثمن جريمته فى قتل أمير برئ دون أى جريمة تستحق القتل^(٤٠) .

وعقب ذلك انقلب بن عامر على الصقالبة، فعزل رؤسائهم ثم أخرج معظمهم من القصر، وتواطأ مع القادة وصاحب المدينة وقائد الجند. وبالفعل لم تمر سنة حتى وصل ذلك الرجل إلى السلطان فى الدولة، ثم حبر على هشام الصبى ، فلم يسمح لأحد برؤياه، وأقنع أمه " صبح " بأنه يفعل ذلك محافظة على سلامة الخليفة الصغير من المتآمرين والراغبين فى القضاء عليه .

والواقع أن الخطر الحقيقى على العرش لم يكن إلا ابن أبى عامر هذا، فقد نشأ هذا الرجل متآمراً خبيثاً أنانياً. وأسرته ترجع إلى أصل يمنى ، ويقال

أنه من أصل برتغالي ، وكان أبوه فقيها ذا مكانة ، وتعلم في بلده ثم في قرطبة ليصبح فقيها مثل أبيه . ولكنه كان طموحاً إلى المناصب ، مؤهلاً للعمل في السياسة ، وقد حكيت أساطير عن أصله وبداية نشأته وطريقة وصوله إلى السلطان. ولكن الحقيقة أن خلافاً له كان من كبار رجال الإدارة والقصر، فسعى له حتى أقامه على خطة المواريث في أشبيلية. ويفضل خاله أيضاً - وكان صهره - نقل إلى نفس الوظيفة في قرطبة ثم رشح للنظر في أملاك الأمير هشام قبل أن يلي الحكم. وهنا كانت مهارة ابن أبي عامر الذي توصل عن طريق الطفل بالأم "صبح" وجعلها ترى أن باستطاعة ابن أبي عامر تأييد حق ابنها في وراثة العرش . فكانت البداية لفتح الباب أمام هذا المتآمر للوصول إلى السلطان^(٤١) .

المهم أن محمد بن أبي عامر هذا سار في طريق سيء لا ينظر إلا لصالحه ومصلحته فقط ، ويضحى في سبيل ذلك بكل شيء . فهو لا يكاد يصل إلى هدف مستعينا بحلفاء أو أنصار ، حتى يتخلى عن أنصاره أو حلفائه ، بل يغدر بهم دون رحمة أو ضمير . وقد لمس ميل الحكم - الخليفة المتوكل - الشديد إلى أن يخلفه ابنه فتقرب منه وكسب ثقته؛ ثم ندبه في بعض المهام في المغرب - أي المهام العسكرية - وهناك بدأ ابن أبي عامر يكسب ولاء القادة والفرسان، وأغدق عليهم من أموال الدولة دون حساب، لأن هذه الأموال كان المفروض أن تعطى لرؤساء البربر ، فاستخدمها هو في مصالحه الشخصية .

وعندما وصل ابن أبي عامر إلى هذه الدرجة من السلطان وجه جل اهتمامه إلى أن يمسك بيده زمام الجيش . وكان يتولاه القائد المشهور بـ (فارس الأندلس) غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب الانتصارات العظيمة : وقد سعى ابن أبي عامر إلى الزواج من ابنه غالب الناصري ، وتزوجها ، وأوسع نفسه بذلك لأن يكون القائد الكبير .

لا شك أن زواج ابن أبي عامر من ابنة غالب الناصري قد أوجد قلقاً في نفس "صبح البشكنسية" فأصبحت ترى بوضوح أن هذا الرجل سائر في طريق يختلف عن الطريق الذي كانت تريده هي أن يسير فيه. وبدأ صرع خفى بين ابن أبي عامر وهذه الأم الوصية، التي كانت سبب وصوله إلى السلطان. ولكن "صبحاً" هذه لم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً وحدها، خاصة وقد ذهب أمر الصقالبة في القصر، وكانت تستطيع أن تستعين بهم، لو أنها لم تكن محمد بن أبي عامر عليهم من قبل^(١٢).

وفي هذه الأثناء كان ابن أبي عامر تمكن من قلب غالب الناصري، خاصة وقد استصدر له مرسوماً يعطيه لقب ذي الرياستين (أى الوزارتين). ولم ينس ابن أبي عامر نفسه في أثناء ذلك فجعل نفسه قائد جيش الحضرة، في حين اقتصر غالب على قيادة جيش الثغر^(١٣).

وبجيش الحضرة هذا، بدأ ابن أبي عامر يقوم بغزوات في الشمال فقام بغزوة موفقة في غرب أراضى ليون سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م وتحتى له غالب حاسباً أنه خليفة فعلاً. وفي العام التالى قام بحملة أخرى عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبى، فازداد صيته وأحبه الجند وتحدث به الناس بولابد أن نذكر هنا أن غالب الناصري كان قد طعن في السن ومال إلى الراحة والقيود.

وبعد أن وصل محمد بن أبي عامر هذه الدرجة العالية الرفيعة تطلع إلى إنشاء جيش خاص من المرتزقة، وكان ذلك أسوأ أعماله فاستقدم الألفوف من البربر وأدخلهم في خدمته. ولم يلبث أن أصبح له منهم جيش ضخم يخشى بأسه. وقد نفر الأندلسيون وقدماء المحاربين من ذلك الجيش البربرى الغريب على البلاد نفوراً شديداً وكرههم أهل قرطبة دالتهم العظيمة على صاحب السلطان. ولكن ذلك كله لا يهم بن أبي عامر، بل ظن أنه يستفيد منه. فقد كان نفور الأندلسيين من جنده البربرى يحول دون اتحاد عناصر الجيش القديم

ضده. ويجعل البربر يشعرون أن مستقبلهم معتمد عليه . أما نفور الناس من البربر فكان كفيلاً أن يجعل البربر أكثر تماسكاً به وتأييداً لسلطانه.

وفى أثناء ذلك أخذ بن أبي عامر يطارد كل الظاهرين من بنى أمية الذين يخشى منافستهم، فاضطهد هذا البيت الجليل اضطهاداً شديداً وقتل الكثيرين من رجاله، وهرب منهم نفر وسكن الباقون خوفاً منه^(٤٤) .

ولم يبق بعد ذلك إلا غالب الناصري. وقد تتبعه هذا الرجل إلى خديعة بن أبي عامر إياه، وبدأ صراع عنيف بين الرجلين انتهى بقتل غالب الناصري. ولذلك خلا الجو تماماً لابن أبي عامر فأصبح بهذه الأساليب الدنيئة والشريرة سيد الأندلس دون منازع يحكمه بالإرهاب والقوة والعنف والجريمة مما كان له أسوأ الأثر على البلاد فيما بعد^(٤٥).

ومن غريب هذا الرجل ودلائل مكره الشريرة أنه كان يحرض دائماً على الوقعة بين جيشه البربري الجديد والجيش الأندلسي القديم غير مبال بما قد يؤدي إليه ذلك من نتائج فإن جيش الأندلس القديم كان يقوم على تقاليد عسكرية جليلة ، وضعها قادة عظماء ذكرنا بعضهم مثل : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وأبي العباس أحمد بن محمد؛ وكان هذا الجيش مرتباً على نحو منظم يضمن رجاله التدريب والخبرة. وكان ضباط ذلك الجيش يعرفون بالعرفاء والمفرد عريف ، وكان العريف يدرّب تدريباً طويلاً أثناء الخدمة العسكرية. وكان العرفاء من أبناء البيوت الكريمة ومن أبناء رجال الجيش . فقد كانت العادة أن يخلف المحارب ابنه الأكبر ، أو أحد ابنائه في وظيفته . فكان للجيش الأندلسي بذلك نظام وترتيب . وكان يعتبر درع الأندلس.

وقد حرص بن أبي عامر أن يحط من أمر أولئك الجنود البواسل وأن يظهر في كل مناسبة أن جنده الجديد أمهر وأقدر منهم ، فامتألت قلوب المحاربين حقداً عليه وعلى جنده المرتزقة . وهكذا أصبح العداء شديداً بين

جيشى الدولة . وظهر بوضوح أنه إذا اختفى محمد بن عامر من الميدان وقعت الحرب الأهلية بين الجيشين^(٤٦) .

وقد نشأت عن ذلك كراهية شديدة بين الأندلسيين عامة وأولئك البربر الجدد على وجه الخصوص . ولذلك سنرى أن تلك الكراهية كانت من أسباب سقوط دولة بنى أمية بالأندلس .

لقد كان محمد بن أبى عامر على يقين بما يضرر الناس من كراهية وضغينة ضده، وكان الناس يرون فيه الغاصب المتآمر ، الماكر، الذى وصل إلى السلطان بالخدعة والأساليب الملتوية مثل علاقته بـ " صبح " أم هشام . وكنت هذه العلاقة موضع سخرية وتعليق كثير من جانب وقبل الأندلسيين . وهذا فقد اتجه تغطية ذلك كله بأعمال تبهر العقول وتجذب إليه قلوب الناس . وفى تلك العصور لم يكن هناك ما يجذب القلب مثل الجهاد والغزوات . فبدأ بسلسلة طويلة من الغزوات الموفقة فى كل بلاد أسبانيا النصرانية . وقد تناسى الشعب الأندلسى فعلاً أعمال بن أبى عامر السيئة .

لقد قام محمد بن أبى عامر باثنتين وخمسين غزوة خلال نحو ٢٤ سنة . ولكن حدود دولة الإسلام ظلت على ما هو عليه . ولو أن محمد بن أبى عامر استطاع أن يرفع حدود الإسلام فى الشمال الغربى إلى الشمال الدويرو بصفة نهائية خلال كل غزواته لكان ذلك أحسن بكثير من هذه الغزوات المتوالية التى أضعفت بلاد النصارى ، ولكنها لم تغير منها شئ .

ولو أن خليفة محمد بن أبى عامر كان رجلاً قوياً قادراً مثله فربما كان يمكن أن يكون لهذه الغزوات نتيجة كبيرة ، ولكنه أصر على أن يخلفه ابنه " عبد الملك " وكان طائشاً جاهلاً كثير المفاصد فلا يعمر إلا سبع سنوات ثم كان الطوفان بعد ذلك^(٤٧) .

وقد كسب محمد بن أبي عامر في أواسط ٣٧١ هـ / ٨٧١ م نصراً كبيراً في قوات مملكتي ليون ونبرة وكونتية قشتالة. وعندما عاد إلى قرطبة اتخذ لقب الحاجب المنصور وأمر بالدعاء لنفسه على المنابر ونقش اسمه على السكة واتخذ هيئة الملوك وأخذ الوزراء وكبار رجال الدولة بتقبيل يده عند المثل بين يديه . أي أنه صار في الحقيقة ملكاً لبلاد الأندلس الإسلامية بحكم باسم خليفة محجور عليه في قصور الزهراء . وأحاط الزهراء بسور وخنق حتى لا يدخل عليه أحد إلا بإذن .

وقد رأى محمد بن أبي عامر أن يتخذ لنفسه أيضاً مدينة ملوكية فاختار مكاناً شرقياً بقرطبة وبنى فيها قصوراً سماها "الزهراء أو العامرية" وجعل الوزراء ورجال الدولة ينشئون قصوراً حول داره. وقد نفر الأندلسيون من ذلك كله نفوراً شديداً. خاصة وأن محمد ابن أبي عامر كان لا يتورع في ارتكاب أي جريمة في سبيل الوصول إلى غايته. ومن ذلك أنه كان قد استقدم "جعفر بن علي" الزعيم الزناتي مع رجاله إلى الأندلس ليضرب ابن غالب الناصري، وأعطاه لقب الوزارة والقيادة . ولما انتصر على غالب جعل رجاله يغتالون جعفر بن علي، على أسوأ صورة سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢ .

ومن أكبر غزوات المنصور قبله في صيف ٣٧٤ هـ / ١٩٨٥ م بملة واسعة على إقليم قطلونية ودخوله برشلونه التي كانت قد سقطت في أيدي قوات للفرنجة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ثم تحولت بعد ذلك إلى كونتية قطلونية ، فافتتحها المنصور في صيف ذلك العام، ودمرتها جنوده . وبدلاً من أن يضمها إلى بلاد المسلمين ويعمرها بهم ويشحنها بالجند نراه ينصرف عنها دون أن يترك بها حامية أو جنداً ؛ فكانه لم يقصد إلا التدمير وإنزال الضربات العنيفة التي تحدث دويماً ، ولكنها لم تصل بعد إلى تحقيق هدف واضح دائم بعد ذلك^(٤٨).

ونظر المنصور بعد ذلك في أمر المغرب . وكان الحسن بن قنون زعيم الإدارة في إفريقية ، قد صالح الفاطميين ودخل في طاعتهم ودعا لهم في قلعة النسر شمال المغرب الأقصى واعتز بتأييد " بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي " عدو الزناتيين وهم أنصار المنصور ، فسارع بإرسال جيش قوى سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٥ م وأرشفه بجيش آخر ، فحاط قلعة النسر واستنزل الحسن بن قنون على الأمان ، وطلب الرجل أن يذهب إلى قرطبة مستأمناً .

ولو أنه طلب ذلك إلى عبد الرحمن الناصر أو ابنه الحكم المستنصر من قبل لأجيب إلى الأمان. ولكن المنصور تظاهر بالموافقة ثم أمر بقتله وهو في الطريق إلى قرطبة في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ / أواخر سنة ٩٨٥ م . وبذلك ارتكب المنصور غدرًا جديدًا شنيعاً . وقد تطير الناس من هذا الحادث وقال أهل قرطبة أن المنصور (محمد بن أبي عامر) لن ينجو من عقاب الله جزاءً له على هذه الجريمة الشنيعة الذي ارتكبها في حق حفيد النبي صلى الله عليه وسلم . وقد استمر نشاط المنصور في المغرب . ولكن مقتل الحسن بن قنون وتشرّد الباقيين من أفراد بنيهِ يعتبر النهاية الحقيقية للدور الثاني لدولة الإدارة ، فلم نعد نسمع عنهم بعد ذلك خاصة وقد عهد المنصور في حكم المغرب الأقصى إلى زيري بن عطية الزناتى " وكان خصم الصنهاجيين والفاطميين العنيد . فلم يلبث هذا الزعيم الزناتى أن أصبح السيد الأعلى للمغرب الأقصى . ولما كان صديقاً للمنصور حليفاً للبيت الأموى ، فقد تركه المنصور على ذلك مطمئناً. إلا أن الخطر الفاطمى على الأندلس قد زال نهائياً؛ وكان ذلك سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م .

وقبل ذلك بعام كان المنصور قد قام بغزوة موفقة على مملكة ليون، واحتل العاصمة نفسها وخربها، فهرب ملكها "برمودو الثانى" إلى "سمورة" فطارده المنصور إليها واستولى عليها وخربها . وعلى أثر ذلك دخل ملك ليون في طاعة المنصور وأدى إليه الجزية ، وكذلك فعل كل ملوك الشمال

والشمال الغربى لأسبانيا النصرانية ، فأصبحت كلها تؤدى الإتاوات للمنصور فيما عدا الطرف الشمالى الغربى من جليقية (١٩) .

وكان من أشد ما غير قلوب الأندلسيين على المنصور غدره بـ " عبد الرحمن بن مطرف التيجى ، صاحب سرقسطة ، وممثل بنى هاشم التيجيين . وهذا الرجل قد مات غدرا فى نهاية صفر سنة ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م . وعلى أثر ذلك قام ابنه عبد الملك ، إذ اتهم أبيه بالتدبير عليه . وكان هذا الشاب الطائش قد حاول الاستعانة بعبد الرحمن بن مطرف التيجى ، وبـ " جروسيه فرناند " كونت قشتالة لينتقم من أبيه لأنه كان يفضل عليه أخاه الأصغر . وقد عاقب المنصور بعد ذلك كونت قشتالة على مساندته لابنه ، وما زال يحاربه حتى أخذه أسيراً إلى قرطبة ؛ ولكنه مات متأثراً بجراحه فى الطريق وخلفه ابنه " سانشو " فأصبح من أتباع المنصور الذين يؤدون إليه الجزية .

وفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م ، اتخذ المنصور لنفسه لقب ملك وأصدر أمره بأن يخطب على المنابر باسم "الملك المنصور الكريم" . ومن الواضح أن المنصور كان يتجه أن يجعل نفسه خليفة ويقيم بيته مكان بيت بنى أمية . ولكن الظروف كلها كانت لاتعينه على إدراك هذا المطلب ، لأن الناس فى الأندلس كانوا جميعاً غير مستعدين لقبول هذا التغيير ، وعلى الرغم من القوة الكبرى التى وصل إليها هذا الرجل إلا أن الأندلسيين ما كانوا ليقروه لأنه فى نظرهم لم يكن ليخرج عن طامح نكى . استطاع الوصول إلى ما يريد باستغلال الفرص التى تسنح له . وكان هو يشعر بذلك ويتحامى الأندلسيين بالسنتهم الطويلة .

والحقيقة أن المنصور كان رجلاً فى غاية الذكاء والقوة وكانت مواهبه للحكم عظيمة تعينه على ذلك ؛ كان لا يتورع عن الجريمة فى سبيل الوصول إلى ما يريد . والمسلمون بطبعهم لا ينفرون من شئ قد نفورهم من الجرائم والخداع وانعدام الضمير . نعم أن عبد الرحمن بن معاوية ارتكب بعض الجرائم ،

ولكن الذين كانوا قبله ارتكبو أبشع منها، فكان هو في نظر الناس مخلصاً لهم من شر الصمويل يوسف الفهرى ثم أن جرائم عبد الرحمن الداخل لم تتناول الناس كلهم ، بل طائفة معينة والخصوم السياسيين ، وفيما عدا ذلك فإن رجلاً مأموناً وشريفاً . أما محمد بن أبي عامر، الملقب بـ "المنصور" فلم يكن للشرف عنده قيمة، وكان أهل الأندلس جميعاً يتحدثون عن سوء أفعاله.

وربما كان من الممكن أن يتغاضى الناس عن جرائم المنصور لو أنه كان وريث بيت ملك وسيادة . ولا ننسى أننا في العصور الوسطى أيام كان الناس يؤمنون بأن هناك بيوتاً عريقة ذات حسب ، ولها حق في أن تصل إلى الملك. أما بقية الناس فلا حق لهم في الوصول إلى العرش .

وقد كان من أكبر ما أعان عبد الرحمن الأول (الداخل) على إقامة دولة أنه كان سليل بنى أمية، وحفيد خليفة هو "هشام بن عبد الملك" ثم أنه قرشي، من ذلك القبيل العربي العريق الذي يمثل الصدارة في عالم الشرف والسؤدد. أما المنصور "محمد بن أبي عامر" فكان رجلاً عادياً من سلائل اليمنيين ، ولم يكن المسلمون في أي قطر مستعدون للتسليم بسيادة يمني أيا كان ، حتى لقد وضعوا حديثاً يقول: "لن تقوم الساعة حتى يقوم رجل من بنى قحطان ويسوق الناس بعصاه". وهم يريدون بذلك أن الساعة لن تقوم حتى يصل الحكم إلى أسوأ مستوى. وكان محمد بن أبي عامر (المنصور) من معافر، وهي من صغيرات قبائل اليمن. ثم أن أباه كان فقيهاً عادياً معروفاً للكثير من أهل قرطبة، وشيوخها ، ومثل هذا الصלב لا يخرج في رأيهم بيتاً ملكياً .

على أننا هنا يجب أن نذكر أن أكثر ما أضر بالمنصور "محمد بن أبي عامر" ثلاثة أمور : أولها : أنه أقام ملكه على جند مرتزقة من البربر ، أجاب غرباء عن البلاد ، على النقيض تماماً بالجند الأندلسي العربي العريق القائم على التدريب وأصول الجندية. وإن دل هذا على شيء إنما يدل على أن للرجل

غدرات كانت لا تؤمن أبداً . كذلك إن دل هذا على شيء إنما يدل أيضاً على عدم الثقة بين المنصور والجند النظاميين لأنه كان في نظرهم مغتصباً للعرش (٥٠).

ثانياً : أن محمد بن أبي عامر (المنصور) لجأ إلى رفع أبناء الأسر الكريمة. والطامحين من صغار الفقهاء إلى وظائف القضاء وأقامهم عمالاً على النواحي. ولم يتورع أولئك الناس عن طلب المال معتمدين على وظائفهم فأصبحوا من أغنى أهل النواحي. وتكونت حولهم حواشي من أمثالهم. ومن أمثلة هؤلاء، بنو جاد في أشبيلية، وبنو بعيش في طليطلة، أما الهاشميون من أفراد البيوت الكبيرة فمن أمثالهم: أبو مروان بن عبد الملك بن شهيد، سليل أسرة بني شهيد، فقد كان شاعراً ممتازاً وعبقرياً فكرياً. ولكنه كان رجلاً منحل الأخلاق لا يسمو إلى مراتب بني شهيد العظماء. وقد جعله محمد بن أبي عامر "المنصور" تديمه وشاعره وصاحبه. وكذلك يحيى الملقب بسماحة بن عبد الرحمن بن مطرف التيجي، سيد الثغر الأعلى الذي قتله المنصور، فقد كان يحيى هذا من سخفاء الولاء، وعلى يده بيوت (بيت) بني هاشم التيجي من بيت جليل من بيوت الحكم إلى بيت الطامعين في السلطان والجاه وبأى الوسائل والطرق.

واستعان محمد بن أبي عامر كذلك بنفر من البربر النازلين في بعض النواحي، مثل "بنى الأفطس" الذين كانوا يقيمون في بطليوس وبنى "ذى النون" وكان موطنهم في شنتبرية في جنوب غربي طليطلة .

كذلك اصطنع ابن أبي عامر صقالبة جدداً اشتراهم لحسابه لكي يكونوا من جنده وحرسه ورجاله .

ومن هؤلاء جميعاً تكون ما يعرف بالحزب العامري، ومعهم رجاله أمثال، محمد بن أبي عامر؛ أي أنهم أنانيون ماديون لا يفكرون لا يفكرون في جماعة ولا صالح الإسلام أو العروبة . بل كان هم الواحد منهم أن يصبح منصوراً صغيراً في ناحيته أو في حدود سلطته.

وهؤلاء الناس الذين تربوا في مدرسة المنصور هذه ، هم الذين سيقضون على وحدة الأندلس بتمسكهم بالسلطان في نواحيهم وحرص الواحد منهم على أن يكون أميراً بأى ثمن . أولئك هم الذين سيذكرهم التاريخ بالإسم المشنوم " ملوك الطوائف " (٥١) .

وإذا أضفنا إلى هذا العامل الذى أساء إلى هذا الرجل العامرى (المنصور) الذى اغتصب عرش الأمويين ما هو أسوأ منه والممثل فى: انعدام المفهوم الأخلاقى عنده تماماً ، ومثل هذا الرجل يخافه الناس ولا يحبونه ، ويحذرونه ولا يقبلون منه شيئاً لأنهم لا يعرفون ما يخبئه لهم . ولهذا ، وعلى الرغم مما وصل إليه المنصور من قوة وسلطان، فإن أنصاره أنفسهم كانوا يكرهونه فى نفوسهم لأنهم كانوا يخافونه على أنفسهم ذلك أنه كان مستعداً لأن يطيح برأس أى واحد منهم لأتفه الأسباب وأقلها قيمة مجرد أن يساوره الشك فى تصرفات أياً منهم .

وكان المنصور كثير التجسس على الناس ، بل كان يهدى الناس الجوارى والعبيد ، لمجرد خدماتهم، ولكن للتجسس، ولكى يصبحوا عيوناً له عليهم فى بيوتهم، وقد أفسد أخلاق الناس بالرشوة ، وما يجرى مجراها ، وعلى مثل هذا الرجل لا يمكن أن ينشئ دولة ثابتة الأركان .

ثالثاً: وهو أن المنصور لم يرزق ولداً قادراً على النهوض بالعبء والمسئولية من بعده. فقد كان له من الأولاد ثلاثة: واحد من قتله بنفسه. أما الاثنان الباقيان فهما عبد الملك الذى جاء من بعده، وقد أشرنا إليه، ثم عبد الرحمن، وكان شاباً سيئ الخلق طائش العقل قاسى القلب مثل أبيه تماماً. وقد دفعه سوء رأيه إلى أن يستصدر من الخليفة المحجور عليه (هشام) عهداً بتعيينه ولى عهده فى الخلافة وكانت نيته أن يتخلص منه بالقتل فيما بعد، ولكن سخط الناس بلغ إلى حد لم يسمح لهم بالاستمرار ، فقامت الثورة على ذلك الشاب وقتل سنة ٣٩٣هـ / ١٠٠٣م وانتهى أمر بنى عامر فى يوم وليلة (٥٢) .

وفى أواخر أيام محمد بن أبى عامر (المنصور) ، كان قد قسام بنشاط واسع فى الغزو، لكى يخطو خطواته نحو اتخاذ لقب خليفة فأراد أن يمهد لذلك بانتصارات كبرى فى ميادين الجهاد ، فقام فى سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧ م بأكبر غزواته وهى المعروفة باسم غزوة " شنت ياقب " ، وشنت ياقب أو القديس يعقوب الحوارى - كما يلقبونه - وهو بالفرنسية " سام جاك " كان من حوارى المسيح . وقد وصل إلى أسبانيا فيما تقول الأسطورة ، واتجه إلى شمال غرب الأندلس وهناك دفن وخفى مقبرته؛ ثم ظهر نجم دل راهبين على مكانه فكشفوا عنه، وتأكدوا من وجوده فى المكان المسمى " كومبوستيلا " وعلى الفور أقيمت كنيسة عرفت باسم " سنتياجو " أى القديس يعقوب أصبت من أعظم مزارات النصرانية لا فى أسبانيا فحسب بل فى أوربا كلها .

أراد محمد بن عامر (المنصور) أن يغزو شنت ياقب هذه ، فقام بحملة كبرى حشد فيها كل قواته ، بل نقل الجنود وأُنقل الجيش بالبحر حتى مصب نهر " المينو " وهناك رست السفن ، وتقدم الرجال مع بقية الجيش . واقتحم المنصور شنت ياقب بالقوة وضرب مبانيها وهدم كنيستها العظمى ولم يترك إلا قبر يعقوب لأنه من الحواريين ، وقد رفعت هذه الغزوة صيت المنصور فى أوربا كلها وأصبح اسم المنصور (محمد بن أبى عامر) رمزاً للرعب والذعر والخوف فى كل نواحى أوربا آنذاك (٥٣) .

وكانت آخر غزوة قام بها المنصور هذا فى ربيع ٣٩٢هـ / ١٠٠٢م وكانت وجهتها برغش وأراضى كونتية قشتالة ، وقد احتلها المنصور وهزم قواتها ، ثم عاث فى أراضى مملكة ليون الفرنسية ، ولكن بيب المرض كان يمشى فى جسمه وجسده كله، وشعر الرجل وهو فى الطريق إلى برغش بالمرض يهاجمه ، وبعد الواقعة اشتد عليه المرض فحمل فى محفة، فلما وصلوا إلى مدينة سالم ، كانت قواه قد وهنت تماماً . وتقول المراجع النصرانية أن النصارى هاجموا جيشه وهزموه فى معركة قرب حصن يسمى

قلعة النصور. وعقب ذلك بقليل توفي المنصور ودفن في مدينة سالم . وكان يحمل كفته معه حسب ما أوردت المصادر .

ما بقوله التاريخ في المنصور (محمد بن أبي عامر) :

لا شك أن محمد بن أبي عامر ، الذي لقب نفسه بالمنصور كان مع مساوئه الذي ذكرناها ، يعتبر من أعظم الرجال . فقد قام بما لم يقم به أحد في تاريخ الإسلام . استولى على زمام السلطان في دولة كبرى في أوج سلطانها . ووجه أمورها وساس أهلها - رغم كراهيتهم له - بسياسة مستبد غاشم ، لا يسمح بأى مشاركة له في السلطان . وقد استغل في الوصول إلى ذلك مجموعة الظروف التي أدت بالأندلس إلى ما يمكن أن نسميه بلغة العصر فراغ سياسى ، أو " فراغاً من السلطان " . ومهارته في أنه عرف كيف يحتل هذا الفراغ ويستغله بسرعة ويمكن لنفسه فيه ، حتى لو كلفه ذلك قتل أحد أبنائه الصغار كبداية يمكن أن تمهد له حسبما أضمر في نفسه . أما هذه الظروف فهي : ضعف حكم المستنصر في آخر أيامه ورغبته الشديدة في أن يصير الملك من بعده لابنه هشام . وكان هشام لا يزال في سن الطفولة لا يتعدى أربعة أعوام من عمره . وخلال هذه المدة كان لابد أن يمسك بتلابيب السلطان أحد الرجال الموثوق فيهم أو المقربون لدى الخليفة الحكم . وكان من المفروض أن يقوم بهذا الدور صاحب الحجابة - أى رئيس الوزراء - وهو أبو جعفر المصحفى ، صاحب الخلق الفاسدة ، قاسى القلب أنانياً . وقد افتضح أمره بقتل أمير برئ . كذلك نجد أن أبناء عبد الرحمن الناصر ، وهم أعمام ولى العهد كان ينقصهم الذكاء بُعد النظر ، حيث قتل أحدهم ، واستسلم الثانى للمقادير ثم اختفى . وربما كان عبد الرحمن الناصر مسئولاً عن تلك الحالة ، فقد قضى على إرادات الرجال وشل نشاطهم ، وقضى على الكثيرين منهم بسيطرته البالغة.

المهم أن المنصور ، وجد هذه الظروف وقد عاشها واستغلها لصالحه . ولاشك أنه كان مؤهلاً للسياسة بطبعه . حائزاً للكثير من الصفات التي يحتاج إليها رجل السلطان . فهو شديد الذكاء دائم اليقظة ، يرى الأمور في وضوح ، ويتبين خط العمل ، ويعمل في سرعة يعجز معها خصومه عن التفكير . وقد وصل إلى ما يريد ، قبل أن يستجمع أحد من حوله أفكاره ، إذ كان يخطو من مشكلة إلى مشكلة في سرعة مذهلة وثقة بالنفس دون أن يدري أحد بوضوح إلى ماذا يريد . ومن الواضح أن الخطوة الحاسمة في وصوله إلى السلطان كانت السيطرة على " صبح البشكنسية " زوجة الحكم، الخليفة الأموي ووالد هشام الطفل . فقد تولى محمد بن أبي عامر الأمر باسم هشام مشتركاً في ذلك مع رئيس الحجابة " أبو جعفر المصحفي " ثم أسقط المصحفي ، وبقي هو في الميدان وحده يستصدر الأوامر كيفما يحلو له .

وأهم ما استصدره هو، الأمر بفصل جيش الحضرة عن الجيش العام وتعيينه قائداً له - أي تعيين نفسه - فقد أصبحت يده قوة عسكرية لها خطرهما، وقد تصورت "صبح" أنه يعمل في خدمة ابنها هشام " ولي العهد " ففتحت له خزانة المال ، وبالمال استكثر من الجند ، أي أنه كان مستبدّاً عسكرياً . وهنا لم تبق أمامه عقبة . فهذا قائد عسكري يحكم بقوة السلاح. ومثل هذا في التاريخ كثير . ولكن عبقرية محمد بن أبي عامر (المنصور) كانت في كيفية الانتقال من طالب علم وفقه إلى رجل سياسة ، ومن رجل سياسة إلى قائد عسكري .

والسؤال الآن: ماذا فعل محمد بن أبي عامر (المنصور) بما وصل إليه؟
إن أماننا الأمثلة كثيرة بالمستبدين بالعروش وما فعلوه ، هناك مثلاً " ريشيليو " ذلك الكاردينال الفرنسي الذي جعل نفسه وصياً على الملك الصغير لويس الثالث عشر . لقد تمتع ريشيليو بسلطان عظيم، أعظم بكثير من سلطان محمد بن أبي عامر (المنصور) ولكنه عمل دائماً لرفعة التاج ولخدمة فرنسا . وعندما توفي ريشيليو وأيضاً لويس الثالث عشر، جاء لويس الرابع عشر

وكانت فرنسا قد وصلت إلى أوج عظمتها. والفضل في ذلك يرجع إلى ريشيليو الذي اجتهد في خدمة فرنسا وتاجها ووجد أمرها وحارب خصومها في الداخل والخارج حتى وصل بها إلى زعامة أوروبا .

ولكن محمد بن أبي عامر (المنصور) استطاع أن يفخر بشئ من ذلك . ولكن لنفسه فقد حَقَّرَ حكام الخلافة وحَقَّرَ أمرها وحمل عليها وحرَضَ رجاله وأبناءه عليها، واتجه رأساً إلى القضاء عليها . وكانت الخلافة القرطبية هي عماد قوة الإسلام والعروبة في بلاد الأندلس ، وبدونها تتعرض للفوضى والأخطار . ولكن المنصور لم ينظر إلى شئ من هذا القبيل، بل اتجه إلى التخریب المتعمد لنظام الخلافة القائم ، وعمل على تقويض دعائمه ، كل هذا لكي يجعل السلطان لنفسه .

وقد ملك المنصور من القوة العسكرية ما لم يملكه أحد غيره في الأندلس . كان سلطانه أقوى من سلطان عبد الرحمن الناصر ، لأن الناصر رغم نزاعه إلى الإستبداد ، كانت له حدود يعرف كيف يقف عندها ؛ فهو لا يسرف في الحروب مع الممالك النصرانية، لعلمه بأن من المستحيل عليه إخضاعها إلى قرطبة وإشعارها بالضعف عن طريق أداء الجزية، أما المنصور فوالى الضربات دون حساب وهو في ضرباته لم يحاول أن يقطع جزءاً من أراضيها ويضمه نهائياً إلى أرض الخلافة. لم يحاول مثلاً القضاء على كل أثر لسلطان النصارى جنوب "دويرو" وإسكان المسلمين في الأراضي التي يفتحها ليحول هذه البلاد إلى أرض إسلامية ، لو أنه فعل ذلك لكان من الممكن أن يقال أنه فعل شيئاً حاسماً . ولكن جيوشه كانت تضرب وتعود بالغنائم ، فيعود النصارى إلى ما كانوا عليه وهكذا حتى النهاية ، فكانه في الواقع لم يفعل شيئاً. كانت هذه السياسة يمكن أن تؤدي إلى نتيجة إذا واصلها الناس . ولكن المنصور لم يخلفه من واصل عمله : فكانت النتيجة أن النصارى استطاعوا خلال السنوات التي أعقبت موته تجديد قواهم واستقروا بعد ذلك على المسلمين .

ولم ينشئ المنصور فى الأندلس شيئاً جديداً ؛ فلا هو أوجد نظاماً جديداً ، ولا أصلح شيئاً من عيوب النظام القائم . وأهم ما أنشأه توسيع المسجد الجامع بقدر الثلث من الناحية الشرقية . وقد أضحت بها الجامع أعظم مساجد بلاد الإسلام من ناحية الحجم والهندسة حتى بلغت مساحته ٢٤,٣٠٠ متراً مربعاً ؛ أى ما يزيد عن ستة فدادين . وليس فى الدنيا مسجداً ولا كنيسة ولا أثر آخر بهذا الحجم ، باستثناء قصور فرساي . ولم ينفرد الجامع بالحجم فقط . بل كان طرازه رائعاً حقاً وقد تحدثنا عنه فيما سبق .

لم ينشئ المنصور إذن شيئاً ، بل هدم الكثير ، حطم البيت الأموى تحطيماً ، لم يستطع أن يقوم على قدميه بعده ، وتتبع كل من يرجى خير من أفرادہ بالقتل والأذى والتشريد ، وفعل مثل ذلك بأبناء البيوت الموازية . لقد خدم محمد بن أبى عامر (المنصور) الكثيرون من رجالها . ومع هذا جعلهم أتباعاً وندماء وحواشى ؛ والحواشى لا تنفع أحداً ولا تقيم معوجاً .

وقد أحاط المنصور نفسه بسيارات كلها ضرر وخطر على المجتمع : أنشأ الجيش البربرى الجديد فكان بلاءً على الأندلس ، إذ أصبحت القوة العسكرية للبلاد منقسمة إلى قسمين متعاضدين : وفى حالة أى اضطراب فى النظام لم يكن هناك مفر من الحرب الأهلية وأنشأ الحزب العامرى من رجال على غرارہ ، كلهم طامعون أنانيون لا يعمر قلوبهم إيمان ، وهؤلاء هم الذين سيرثون- الأندلس من بعده ، ويتقاسمونہ فيما بينهم . لقد حكم المنصور العامرى سبعة وعشرين عاماً هجرية إنتهت ليلة الاثنين ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ أغسطس ١٠٠٢م . ولا نستطيع القول أنها خيراً على الأندلس . لقد أحدث دويلاً كبيراً بأعماله وانتصاراته ، ولكنه كان كالطبل الأجوف : أى ، صوت كبير وعمل قليل .

وقد أجمعت الروايات الإسلامية على التحدث بمآثر محمد بن أبي عامر (المنصور) دون أن تخفى جرائمه، ومعظمها يصفه بالنقى ويقول أن الجهاد كان قرة عينه .

والحقيقة، أن رجالاً من طراز المنصور كانوا لا يتورعون عن الجرائم في سبيل سلطانهم . أما خارج السلطان وبعيداً عن منافساته ، فلا مانع من أن يكونوا نوى عاطفة دينية ، واهتمام بشئون العبادة والإحسان : وما إلى ذلك . هكذا كان أيضاً أحمد بن طولون وأبو العباس السفاح وغيرهما من جبابرة تاريخنا . وعلى هذا الأساس من الممكن أن نتصور كيف كانوا يجمعون بين الإجرام والنقى، بين الشر الخالص والخير الخالص دون أن يكون في ذلك تعارض ودون أن يحسوا بما يرتكبونه من جرائم .

عبد الملك المظفر بن المنصور :

وقد خلف المنصور في سلطانه ابنه عبد الملك المظفر الذى تلقب بسيف الدولة . وكانت سنه ٢٨ سنة . وقد ورث عن أبيه ملكاً واسعاً مستقراً في الظاهر . ولكنه في الحقيقة مهدداً بالأخطار لأنه رغم استصداره من الخليفة هشام مرسوماً بتفويضه في الحكم ، كان يشعر أنه غاصباً . وكذلك كان كل من حوله ، وكان هناك كثيرون جداً في قرطبة ونواحي الأندلس يتربصون به وبآل عامر جميعاً الدوائر (٥٤) .

ولم يكن عبد الملك المظفر لسوء حظ أبيه مؤهلاً للوقوف فى وجه العقبات التى كان لابد من تخطيها . كان ينقصه العمق الإنسانى والتكوين الفكرى . فعلى الرغم من اجتهاد أبيه فى تكوينه إلا أنه لم يكن غير جندى جاهل تربى وسط الجنود دون أن يكون لديه موهبة القيادة . فكان طوال حكمه القصير نهياً بين رجاله وأهمهم صقلبي من موالى أبيه يسمى "طرفه" ووزير قوى مدوارمناور يسمى "سعيد بن القطاع" وكان الشاب إلى جانب ذلك مسرفاً فى

الشراب . لا يكاد يهبط الليل حتى يعقد مجلس الشراب مع رجاله ، وكلهم ثعالب يجتهدون في الفور منه بأي شيء . وفي ساعات الشراب كان يستمع لوشايات الوشاة ويصدر أحكاماً عنيفة ، ففتك بمولاه "طرفة" ثم قتل "سعيد القطاع" في مجلس شرابه على أسوأ صورة . وقد اتصف هذا الشاب بالطغيان والظلم والغدر وأخذ الفراغ يحيط بهذا الشاب، إلا من عتاة الجند والمرتزقين الذين كانوا لا يشعرون تجاهه بالخير أبداً (٥٥).

وقد قام عبد الملك بن المنصور بغزوات كبيرة لا تخلو من مهارة ، ولكنها كانت من طراز غزوات أبيه . أى أنها كانت ضربات قصيرة الأمد والمدى . غزا قطلونية وبرشلونة سنة ٣٩٣هـ — / ١٠٠٣ م وأرغم أميرها "رامون بوريل" الثالث على طلب الصلح . وفي صيف ٣١٥هـ / ١٠٠٥ م غزا أرض ليون ، وفي صيف ٣٩٦هـ / ١٠٠٦ م غزا مملكة نبرة وإحتل بنبلونة، وفي ٣٩٧هـ / ١٠٠٧ م غزا كونتية قشتالة . ثم غزاها مرة أخرى في العام التالي . وفي ١٦ صفر سنة ٣٩٩هـ / ٢١ أكتوبر ١٠٠٨ م وهو في الرابعة والثلاثين من عمره إنتابته العلة وتوفي على أثر التهاب رئوى . بعد أن حكم ٧ سنوات فحسب . كانت سنوات رخاء ونصر . ولكن الناس كانوا يتوقعون كارثة ربما لأنهم كانوا يتمنون زوال العامريين . ومن الواضح أن الذى قضى على عبد الملك كان انهماكه في ملذته.

عبد الرحمن بن المنصور "شنجول" :

لقد خلف عبد الملك بن المنصور أخوه عبد الرحمن الذى تلقب بالمأمون ، ويقال أنه هو الذى قتله . فقد كان شاباً طائشاً قاسياً مجرداً من الصفات الإيجابية المؤهلة للحكم السليم . وكان الناس قد ضاقوا به نزعاً . وكانت أم عبد الرحمن حفيذة لسانشو جرسية ملك نبرة . وكان أبوها سانشو أباركة ذلك الكونت الأرغونى أحد الأمراء المطالبين بالعرش، والذى أسره

المنصور، ثم أطلق سراحه وتزوج ابنته ، وكان قد انضم إلى المنصور آملاً في أن يعينه على الوصول إلى العرش في نبرة^(٥٦).

وكان لابد من الإشارة إلى أن قيام الدولة العامرية في الأندلس لم يكن بطريق شرعى، ولكن مؤسسها محمد بن أبى عامر يعتبر مغتصباً للعرش الأموى في الأندلس ، وكان لابد من قيام ثورة مضادة يسترد فيها الخلافة الأموية من جديد خاصة بعد مقتل عبد الرحمن بن المنصور العامرى على أثر ثورة قرطبة التى وقعت أحداثها فى ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م .

ثورة قرطبة وبداية الفتن الكبرى فى :

١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩م

إن نفراً من المتمردين الباقين من بنى أمية قرروا انتهاز فرصة ابتعاد عبد الرحمن شنجول والجيش . للقيام بالثورة مستعينين فى ذلك "بالخلفاء " أم عبد الملك المظفر، وكانت لاتشك فى أن عبد الرحمن شنجول قتل أخاه - ابنها - " بالسهم " فاتصلت بنفر من شبان من بنى أمية الساعين فى سقوط بنى عامر ، وكان زعيمهم شاباً مغامراً يسمى "محمد بن هشام بن عبد الجبار " وهو من أبناء عبد الرحمن الناصر، فاتفق هذا الشاب مع أنصاره على أن ينتظروا حتى يدخل بعد الرحمن شنجول أرض النصارى لكى يقوموا بضربتهم لأن الجيش يحتاج إلى شهر لكى يعود من هناك . وبالفعل نفذوا المؤامرة فى ١٥ فبراير ١٠٠٩م / ١٦ جمادى الأولى ٣٩٩هـ ، بادئين بالهجوم على قصر قرطبة واقتحموه، وقتلوا صاحب المدينة عبد الله بن أبى عامر ثم بايع محمد بن عبد الجبار لنفسه ، وبايعه أصحابه ، واتخذ لقب المهدي واختار قريباً له يسمى سليمان بن هشام وجعله ولى عهده ، وأرغم هشاماً (الثانى) المؤيد على التنازل . فتنازل بعد أن مكث فى منصب الخليفة ٣٣ سنة. وكان ذلك يوم الأربعاء ١٧ جمادى الأولى ٣٩٩هـ / ١٦ فبراير سنة ١٠٠٩م ، ثم تهدمت قصور الزاهرة وتلاشى أمرها فى أيام^(٥٧) .

وعندما وصلت أخبار الانقلاب إلى الجيش تخلى معظم رجاله عن عبد الرحمن بسبب احتقارهم البالغ له ، ونصحه مولاه " واضح " . حاكم طليطلة أن يظل مكانه . ولكن شنجول كان يحسب أنه إذا ما اقترب من قرطبة خرج الناس مرحبين به ، فسار نحوها ، ورفض زعماء البربر وخاصة محمد بن يعلى الزناتى ، زعيم زناتة أن يوافق عبد الرحمن على اقتحام قرطبة بالقوة ، لأن أولاد البربر وأسراتهم فيها ، وتخلي جميع البربر عنه وتركوه عائدين إلى قرطبة لحماية أسرهم . أما عبد الرحمن ، فما زال يسير حتى وجد نفسه وحيداً وقد تخلى عنه كل الناس . وأنتهى أمره أن قبض عليه رجال محمد بن عبد الجبار فى دير على نهر " أرملط " قرب قرطبة وقتلوه فى ٣ رجل ٣٩٩هـ / ٣ مارس ١٠٠٩ م . وكانت تلك هى النهاية المحزنة التى انتهى إليها أمر بنى عامر^(٥٨) .

والحقيقة أن الثورة كانت على النظام العامرى المستبد كله، فقد كانت النفوس قد ضاقت بذلك النظام الغاشم الذى لم يخدم إلا مصالح آل عامر . ثم جاء عبد الرحمن شنجول بطيشه وفساده، وقلة تدبيره وحيلته؛ فلم يلبث فى المنصب أكثر من ثلاثة أشهر ثم كانت الثورة وانتهى النظام العامرى بمصرعه.

الفئة الكبرى :

من سوء الحظ أن محمد بن هشام بن عبد الجبار كان من أسوأ طراز عرفناه فى شباب بنى أمية بالأندلس . فقد كان طائشاً قليل التدبير والتفكير، سوقى النزعات، لطول ما عاش فى الأحياء الفقيرة، متكرراً بين رعاى قرطبة، ولذلك أحاط نفسه بطائفة ممن كانوا على شاكلته؛ لا يحسنون غير النهب والسلب والسرقة فآذوا الناس أذى شديداً . وبدا بوضوح أن الأمل الذى علقه الناس على هذا الرجل لن يلبث أن يتلاشى .

لقد تولى محمد بن عبد الجبار الأمر دون أن تكون لديه أى فكرة عن الدولة وشئونها ؛ واتخذ لقب المهدي .

وقد أجمع الناس عليه أمر الأمر ، مؤملين أنه يستطيع تدارك الأمور وتسييرها في الطريق الذي سارت عليه إلى الآن . ولكن محمد بن عبد الجبار لم يقم إلا بشئ واحد وهو الإنتقام من العامريين ، والإستمتاع بما ظن أنه من حقوق الخلفاء الأمويين .

ولم يكن الرجل للذي يستدعيه الموقف . فقد كان الوقت وقت انقلاب وفوضى ، ولأمت الحاجة ماسة إلى رجل حازم يمسك بزمام الأمور ، ويقرها في نصابها . ويردع العامة عما أسرفت فيه من الفوضى والنهب والسلب . فالحاجة تستدعي رجل يضع الأمور في نصابها وإعادة هيبة الخلافة إلى البيت القرطبي الإسلامي من جديد .

فكان لابد من النظر في العودة إلى قواعد النظام التي قضى عليها المنصور العامري بقسوته واستبداده . ولكن محمد بن عبد الجبار لم يكن يملك أية موهبة، وكان سفاكاً قاسياً منحط النزعات ، ولم يهده نكاؤه إلى شئ غير الاستبداد بالبربر وأذاهم وإهانتهم عقاباً لهم على تأييد بني عامر ثم الإنتقام من العامريين (٥٩).

وقد أساء محمد بن عبد الجبار التصرف لأنه ناصب البربر العداء ، وكان أولئك البربر قد أتى بهم ابن عامر إلى هذه البلاد مرتزقين في أعداد كبيرة يتزعمهم نفر من خيرة زعماء بربر المغربيين الأوسط والأقصى . وكانوا قد كسبوا مالاً كثيراً واتخذوا الأندلس وطناً لهم . فأراد هذا الرجل أن يقضي عليهم . وكان من واجب ابن عبد الجبار أن يؤمن البربر على مراكزهم ومكانهم ، فقد أتوا إلى هذه البلاد للأشتراك في الجهاد وأبلوا بلاءاً حسناً . وليس ننبهم أن ابن أبي عامر استقوى بهم على بني أمية (٦٠) .

وكان ذلك خطأ جسيماً منه، لأن أولئك البربر كانوا قوة كبيرة، ولم يكونوا كما ظن يعتبرون أنفسهم رجال العامريين. بل أنهم بادروا عقب مقتل عبد

الرحمن شنجول بإعلان الطاعة للخليفة الجديد ، ولو أنه كان على شئ من السياسة لقبل ولاءهم. كما فعل جده عبد الرحمن الناصر عندما تولى وأخذ يستأنف الناس حتى استقر له الأمر .

وبدلاً من ذلك نجد محمداً بن عبد الجبار يحاول استدلال البربر، بل أمر يوماً من الأيام بشيخهم "زاوى بن زيرى الصنهاجى" فمُنِع من دخول القصر وأهين، وكانت النتيجة أن تخوف منه البربر، ووقفوا منه موقفاً عدائياً، فقرر فى أواخر مارس ١٠٠٩م/ رجب ٣٩٩هـ إخراج كل البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور من قرطبة، فرفض هؤلاء الخروج وبدأ الصراع بين البربر والأندلسيين فى عاصمة الخلافة الإسلامية فى الأندلس قرطبة^(٦١).

وكان هذا الإنشقاق فى صفوف الجيش من أسوأ ما أصاب الأندلس، لأن الجيش كان درع المملكة. وهذا الإنقسام كسر وحدة الأمة، وحرّم الدولة من أن تكون لها قوة عسكرية تستطيع الدفاع عنها، وتحميها من التقلبات الداخلية .

ولتوضيح هذه الصورة المزرية نجل فنقول، أنه كان من الممكن أن تنتهى الأمور بمقتل عبد الرحمن شنجول، ابن الحاجب المنصور، والذي كان من أسوأ الحكام - كما ذكرنا - الذين شهدهم تاريخ الأندلس، وعودة الخلافة إلى بين بنى أمية، لولا أن محمداً بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر كان لا يقل عنه سوءاً كما أسلفنا.

وفى الحقيقة أننا سوف نشهد من الآن فصاعداً سلسلة من الخلفاء الأمويين الأقزام ، المتصارعين على السلطة، والمنتهين جميعاً إلى مصير واحد، جاذبين معهم الأندلس إلى هاوية الدمار والانتحار^(٦٢) .

وكان محمد بن هشام بعد أن نجح وأقاربه من بنى مروان فى الوثوب على السلطة ، قد أرسل بعض رجاله إلى سجن العامة ، فأطلقوا سراح من فيه

من اللصوص والمجرمين. وفي تلك الليلة تنازل له هشام المؤيد عن الخلافة ، بعد محاصرة جموع الغوغاء القصر الخلافي؛ فتلقب منذ ذلك الحين بالمهدى .

وسرعان ما أرسل المهدى جموع مؤيديه إلى مدينة الزهراء التي بناها الحاجب المنصور قبل ثلاثين عاماً (سنة ٣٦٨هـ) لحملها على الاستسلام وكانت معقل العامريين. وكانت تنافس قرطبة في العظمة والبهاء بفضل ما إنتقل إليها من الغنائم على يد الحاجب المنصور طول غزواته السبعة والخمسين لبلاد العدو . فأنقضت عليها هذه الجموع الغوغائية وانتشرت في قصورها تنهب ما فيها من مال وتحف ووقائع وعدة وسلاح ونخائر . ثم أمر المهدى بعد ذلك بهدمها ، وحط أسوارها ، وقلع أبوابها ، وطمس آثارها ، فبلغ من تدمير تلك المدينة الجليلة إلى ما لا تفعله الدهور المتعاقبة ، وأصبحت بلقاً كأن لم تغن بالأمس. وفي ذلك يقول المقرئ: "خربت الزاهرة، ومضت كأمس الدابر، وتلاشى أمرها "قلم يرج لفسادها صلاح، وصارت قاعاً صفصفاً، وأبدلت بأيام الترح عن أيام الفرح والصفاء". وقد كان زوال هذه المدينة شاملاً لدرجة أنه لم يترك صدى في التقاليد المحلية ، وحتى أنه أدى إلى توليد الشكوك والمتناقضات حول موضعها الافتراضى .

ولم تكن جريمة تخريب الزاهرة، هي الجريمة الوحيدة التي ارتكبتها المهدى محمد بن هشام، فقد جاء الدور على قرطبة ذاتها ، وكان ذلك في جو التنفيس عن الحقد على البربر في صدر السكان العرب الذين نقموا على هؤلاء ارتفاع الشأن على العامريين، فقامت طائفة من العوام والأسافل وقطاع الطرق واللصوص بمهاجمة دور البربر بالرصافة في الشمال الغربي من قرطبة ؛ وهي دور بنى ماكس بن زيرى، وزاوى بن زيرى وانتهبتها .

وقد أثبت هذا العمل الاجرامى ، أنه كان فاتحة الصراع السافر بين العرب والبربر الذى التهمت نيرانه الأندلس . فقد اتجه البربر بعد ذلك إلى

اصطناع خلفاء من بنى أمية لأسقاط حكم المهدي محمد بن هشام ، بحثاً عن راية شرعية أموية يقاتلون تحتها. وكان أول هؤلاء هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكان يلتف حوله مؤيدو وصنائع الحاجب المنصور ابن أبي عامر من الفتيان (الصقالبة). فبيوع الخلافة خارج قرطبة وتلقب بالرشيد ، ولكنه منى بهزيمة ساحقة على يد جيش المهدي وقبض عليه وأمر المهدي بقتله (٦٣) .

وقد تحول غضب المهدي على أثر ذلك إلى البربر ، فأمر العامة في قرطبةم بتقتيلهم أينما وجدوا وتسارع هؤلاء إلى التنفيذ فوثبوا على البربر وقتلوا عدداً كبيراً منهم ونهبوا ديارهم ، واضطر هؤلاء إلى الخروج من قرطبة إلى الثغر، بعد أن تخربت منازلهم . وقد وصف ابن حزم هذا الخراب بقوله : "وقفت على أطلال منازلنا بحومة بلاط مغيث من الأرباض الغربية، ومنازل البربر المستباحة عند معاودة قرطبة ، فرأيتها قد أمحت رسومها وطمست معالمها وخفيت معاهدها وغيّر ها البلى فصارت صحارى مجدية بعد العمران، وفيافي موحشة بعد العمران والأنس ومآوى للذئاب ومخابئ للصوفس، بعد طول غنيانها برجال كالسيوف ، وفرسان كالسيوف والليوث ... الخ " .

وكان من الطبيعي أن يتزايد حقد البربر على العرب ، ولم يعدموا قزماً آخر من البيت الأموي ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر ، فعقدوا له الخلافة في شعبان سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م ، وتلقب بالمستعين بالله . وقد أطلق عليه أهل قرطبة اسم " إمام البربر " وهو الخليفة الأموي الثالث في خلال شهرين تقريباً .

وسرعان ما اتجه كل من الخيفتين الأمويين؛ المهدي، والمستعين بالله، إلى الإستعانة بالممالك المسيحية في شمال الأندلس في تغليب كفته على الآخر؛ فقد تقدم البربر قاصدين قشتالة للإستعانة بشانجة بن جارسيا بن فرنزلند، عاهل

قشتالة ، ووصلوا إلى وادي الحجارة وهزموا جيش "واضح" الفتى (الصقلبي) صاحب طليطلة والثغر الأوسط، ودخلوها عنوة ، واستباحوا أهلها ووصلوا إلى مدينة سالم ، ولكن "واضحاً" الصقلبي تمكن من إبعادهم عنها، فأرسلوا رسلهم إلى شانجة يطلبون مساعدته على أن يدخل سليمان بن الحكم قرطبة. فوجدوا عنده رسل المهدي محمد بن هشام ورسل "واضح" الفتى يسألانه المساعدة بدورهما، على أن يعطياهما ما أحب من مدائن الثغر. وقد حملا إليه هدايا " منها خيل وبغال وكُمى وما لا يحصى من الطرائف والتحف .

وهكذا انقلبت موازين القوى في العلاقات بين العرب والممالك المسيحية في شمال إسبانيا . فبعد أن كان الملوك الأسبان يطلبون مساعدة الحكام الأمويين في نزاعاتهم ويتيحون لهم بذلك التدخل في الشؤون الداخلية لبلادهم ، أصبح الحكام الأمويين هم الذين يطلبون من الأسبان المساعدة في قتال بعضهم البعض (٦٤).

وكانوا سانشو على مستوى الموقف في الاستفادة من تلك الفرصة المتاحة، إذ رأى القضاء على قوة المسلمين بالاستعانة بالبربر . ثم ينقض بعد ذلك على البربر، فعرض عليهم الاستجابة لطلبهم "على أن يعطوه إذا ظفروا ما أحب من المدائن في الثغر" فقبلوا ذلك. وهنا رد رسل المهدي وواضح رافضاً مساعدتهم.

وسار شنجة على رأس جيش كثيف لمساعدة البربر والمستعنين بالله . واشتبك الجيشان الحليفان مع جيش "واضح" بالقرب من قلعة يقال لها " قلعة عبدالسلام" في وادي شرنبة في محرم ٤٠٠هـ / ١٠١١ م وألحق به الهزيمة . ثم سار إلى قرطبة حيث كان المهدي يحضر الحفائر حول أرباضها ، وهو "لا يفיק من سكر، وبعض الناس يهجونه ويتكلمون بقبيح أفعاله" - كما يقول ابن عذاري - وانتهت المعركة التي نشبت بين الجيشين بهزيمة جيش المهدي هزيمة

نكراء وفرار "واضح" إلى الثغر ووضع البربر السيف على أهل قرطبة، فقتلوا منهم خلقاً عظيماً ، وحرقت كثيرون في الوادي ، وبلغ عدد القتلى عشرة آلاف في رأى بعض الأقوال .. وهرب المهدي إلى طليطلة ليلحق بـ " واضح " في أول جمادى الأول سنة ٤٠٠هـ / ١٠١١م .

على هذا النحو بدا أن الأمر قد استقر لسليمان المستعين في قرطبة ؛ لولا أن المهدي المخلوع وفتاة "واضح" كانا ينويان مواصلة الصراع بالإستعانة بالممالك الأسبانية في الشمال فقد خرج "واضح" من مدينة سالم إلى طرطوشة قريباً من الحدود الفاصلة بين الثغر واقتيم قطالونيا. وعقد حلفاً مع عاهل برشلونة ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول (أرمقند كما يطلق عليه العرب) مقابل التخلي لهم عن مدينة سالم، قاعدة الثغرا الأوسط. فدخلها الأسبان بعد أن أخلاها "واضح" ممن كان فيها من المسلمين، ليقاتلوا البربر. وقد كان أول ما فعلوه أن حولوا جامعاً إلى كنيسة، ووضعوا فيها الناقوس، واشترطوا على "واضح" أن يصرف لكل رجل منهم دينارين يومياً فضلاً عن طعامه وشرابه، بالإضافة إلى مائة دينار لريموند بوريل الثالث " وعلى أن لهم ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكراع ومال، وأن نساءهم (أى نساء البربر) ودماءهم وأموالهم حلالاً لهم " .

وتقدم جيش واضح وحلفائه الأسبان إلى سرقسطة ، فساموا أهلها سوء العذاب ، ومنها إلى طليطلة حيث انضم إليهم المهدي . وبذلك بلغ عدد الجيش ٣٩ ألفاً منهم تسعة آلاف من الإفرنج وزحف الجميع على قرطبة ، فالحقوا الهزيمة بسليمان المستعين وجيشه البربري ، بعد أن ألحق البربر بأعدائهم خسائر جسيمة . إذ قتلوا من الأسبان عدداً كبيراً وعلى رأسهم الملك أرمنجول (أرمقند). وعاد المهدي إلى قرطبة، حيث أخذ لنفسه البيعة من جديد. وبدأت مرحلة جديدة في الصراع الانتحاري في الأندلس .

ذلك أن المهدي أراد استغلال النصر الذي حققه في القضاء على البربر، وزحف بجيشه وبجيش واضح والجيش الأنديسي على البربر وادي "آره Guadiaro" بالقرب من رندة في ٦ من ذي القعدة ٤٠٠هـ / ٢١ يونيو ١٠١١م. ولكنه تلقى هزيمة ساحقة وقتل البربر من الأسبان ما يبلغ ثلثمائة ألف، وغرق منهم كثيرون، وكان من بين القتلى وزير يهودي لملك الإفرنج ريموند بوريل. وعند ذلك امتنع الأسبان عن القتال، وعادوا إلى بلادهم، وبات المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار يواجه البربر وحده في قرطبة (٦٥).

على أن واضحاً الصقلبي كفى البربر مهمة القضاء على المهدي، خصوصاً بعد أن انصرف هذا في إبان ذلك الخطر للجسيم إلى الفسق والفجور فدبر قتله عن طريق طائفة العبيد العامرية يوم ٨ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ. وبعث برأسه إلى سليمان المستعين. طالباً منه ومن حلفائه البربر الدخول في طاعة هشام المؤيد الذي عزله المهدي. ولكن هؤلاء لم يستسيغوا خيانة "واضح" الفتى (الصقلبي) لمولاه. ودخلوا مدينة الزهراء في ٢٣ ربيع الأول سنة ٤٠١هـ / ٤ نوفمبر سنة ١٠١١م. وضربوا الحصار على قرطبة. وحاول واضح الهرب إلى الثغر، ولكن الجند فطنوا له، فقبضوا عليه واجتزأ ابن وداعة القرطبي رأسه يوم ١٥ ربيع الثاني ٤٠٢هـ / سبتمبر ١٠١١م. حيث قتل هشام المؤيد، وأشاع أنه فرّ لوجهه، وعمل سقاًءاً بالمرية.

على هذا خلا الحكم لسليمان بعد قتل المهدي وواضح وهشام المؤيد. وبدأ حكم البربر من قرطبة، فانتقل مع جماعة جيشه البربري إلى مدينة الزهراء بينما أقام بنو حمود العلويون في شقندة، وقسم بعض كور الأنديس بين رؤساء القبائل البربرية أرضاء لهم. الأمر الذي دفع العامريين إلى الهرب إلى شرق الأنديس خوفاً على أنفسهم من البربر، وقاموا لهم دولا في بلنسية وشاطبة ودانية ولورقة وميورقة والمرية. وأخذوا يدبرون المؤامرات لسليمان المستعين.

ولما كانت جميع القوى في الأندلس قد اقتتلت، فقد صار على العامريين الاستعانة بقوى من الخارج. فتطلعوا إلى علي بن حمود أمير سبتة، للقدوم إلى الأندلس، والإستيلاء على الخلافة. ونجحوا في اقناعه بذلك، فلم يتوان عن التوجه إلى الأندلس بحجة الإفراج عن هشام المؤيد، وواجهه سليمان المستعين بجيشه في محرم سنة ٤٠٧هـ / ١٠١٦م: ولكن الهزيمة لحقته. ودخل علي بن حمود قصر قرطبة في ٢٢ محرم سنة ٤٠٧هـ / يوليو سنة ١٠١٦م وأمر بإحضار سليمان المستعين، فضرب عنقه بيده، ثم ضرب عنق أخيه عبد الرحمن، ثم عنق أبيهما الشيخ، وجعل رؤوس الثلاثة في طست وأخرجت من القصر إلى المحلة ينادى عليها: " هذا جزاء من قتل هشاماً المؤيد " .

وقد بويع لعلی بن حمود فی باب السدة من قصر قرطبة فی ٢٣ محرم سنة ٤٠٧هـ / يوليو سنة ١٠١٦م؛ وتلقب بالناصر لدين الله . وبذلك بدأ حكم بني حمود، وبدأت مرحلة جديدة في الصراع الانتحاري بالأندلس. ذلك أن تعصب وتشدد علی بن حمود لحزبه البربري قد أدى إلى انصراف الناس عنه. في الوقت الذي ظهر قزم آخر في البيت الأموي بشرق الأندلس يدعى عبدالرحمن بن عبد الملك بن الناصر، بويع بالخلافة وتلقب بالمرتضى. ومال أهل قرطبة إلى الخليفة الجديد لكراميتهم للبربر. وتبرم لعلی بن حمود خدمه وفتيانہ من صقالبة بنی مروان فوثب علیه منهم ثلاثة هم: منجج ولبيب وعجيب، وقتلوه في حمام قصره في أول ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ / ١٢ مايو سنة ١٠١٧م.

وقد خلفه أخوه القاسم بن حمود . ولكن أمراء شرق الأندلس أعدوا للخليفة المرتضى جيشاً كبيراً لفتح قرطبة؛ وإعادة الخلافة إلى أصحابها الشرعيين من المروانيين. وتوجه هذا الجيش إلى غرناطة لمحاربة بني زيري الصنهاجيين . ولكن في ذلك الحين اكتشف أمراء شرق الأندلس صرامة وحدة في طبائع المرتضى، فخافوا من عاقبة تمككه من البربر، فتخلوا عنه وتركوه

وحيداً ، فلم يجد سوى الفرار . ولكنه قتل من وادي آش ، وبذلك خلص الأمر للبربر^(٦٦) .

غير أن الصراع الإنتحاري استمر بين أسرة بني حمود نفسها ؛ فقد اتفق كل من يحيى وادريس ، ابنا أخى على بن حمود على خلع عمهما القاسم . وجمع يحيى جيشاً فى مالقه من جيرانه البربر زحف به إلى قرطبة ، وأسقط حكم عمه الذى فرّ إلى أشبيلية فى ٢٢ ربيع الثانى سنة ٤١٢هـ / ١٠٢١م . وبإيعه البربر وأهل قرطبة بالخلافة فى أول جمادى الأولى من السنة ذاتها تلقب بالمعتلى بالله . ولكنه لم يهنأ بالخلافة طويلاً . إذ سرعان ما خلعه أهل قرطبة فى ١٢ ذى القعدة سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م ، واستدعوا القاسم من أشبيلية ، فدخل قرطبة بعد أن فرّ يحيى إلى مالقة ؛ وجدوا له البيعة فى ١٨ ذى القعدة من السنة ذاتها ؛ ثم سرعان ما أجمعوا على خلعه فى ٢١ جمادى الآخر سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٣م ، وحاصروه فى قصره أياماً ، حتى إذا ارغموه على مغادرته إلى الربض الغربى منها فى جيشه البربرى ، وقاتلوا البربر قتال الموت ، وألحقوا بهم هزيمة شنعاء . ففر القاسم إلى أشبيلية حيث كان يوجد بها ولداه محمد والحسن ، ولكن أهل أشبيلية أغلقوا أبواب مدينته فى وجهه لكرهتهم البربر ، وطردوا إليه ولديه . فلم يجد بداً من الرحيل إلى شريش . وكان يحيى يتربص هذه الفرصة ، فزحف على شريش واستولى عليها وقبض على عمه ، وحمله مقيداً إلى مالقه .

على هذا النحو فش بنو حماد (حمود) فى البقاء فى قرطبة أكثر من سبع سنوات . ورأى أهل قرطبة أن يعيدوا الخلافة إلى البيت الأموى ، فاختاروا من أمراء المروانية ثلاثة هم : سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار . واجتمع الناس فى جامع قرطبة فى الرابع من رمضان لاختيار واحد : وكان الإتجاه إلى سليمان بن المرتضى ، لولا قدوم عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار فى شرنمة من

رجاله شاهرين سيوفهم ، فبويع له على الفور ، وتلقب بالمستظهر بالله ، ومع أنه كان أفضل الأقدام من بنى مروان الذين ظهروا على مسرح الأحداث منذ مقتل شنجول . إلا أنه لم يستمر طويلاً (شهراً واحداً) فقد حاصره أهل قرطبة في القصر ؛ وأجلسوا في الخلافة محمد بن عبدالرحمن بن عبيد الله الناصر في ٣ ذى القعدة سنة ٤١٤هـ ، الذي تلقب بالمستكفي بالله . وقد حمل إليه المستظهر المخلوع ، فأمر بقتله ، ما قتل محمد بن العراقي الذي كان مرشداً للخلافة بين المروانيين الثالثة ، السابق ذكرهم ، برغم أنه بن عمه ، وكان القتل خنقاً سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤ م .

وهكذا أثبت المستكفي أنه أكثر أسلافه القريبين دموية وسوءاً . وفي الواقع أن المؤرخين الإسلاميين ينعته بأنه كان "عاطلاً من الخصال والفضائل" ويشبهونه بالمستكفي بالله العباسي في الفسق واعتداء كل واحد منهما على ابن عمه ، واتفاقهما في الأخلاق والعهر واللعب ، وأن كل واحد منهما عاش اثنين وخمسين سنة ، وكل واحد ملك نحو سنة وخمسة أشهر ، وتوافق في اللقب ، وبالجمله فهم رذلي قومهما ، وفي أيامه امتد الدمار إلى قصور عبد الرحمن الناصر في قرطبة وقصور الزاهرة .

ولم يلبث المستكفي أن لقي جزاءه . ففي ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥م طلب منه وزراءه الخروج لمقاتلة يحيى بن على بن حمود ، الذي زحف من مالقة يريد العودة مرة أخرى إلى قرطبة ، فتظاهر بالقبول ، ثم فرّ إلى غانية في زى متكرر ، بل يذكر بن عذارى أنه خرج في زى متكرراً إلى غانيتين "لم يميز بينهما" ويبدو أنه اختلف مع رجاله في الطريق على مال ، فقتلوه في بلده اقلبيح .

وعلى هذا النحو ، استعاد يحيى بن على الخلافة في ١٦ رمضان سنة ٤١٦هـ / ١٠٢٥ م . وأقام بقرطبة أربعة أشهر ، ثم عاد إلى مالقة تاركاً

وزيره أبا جعفر أحمد بن موسى على قرطبة . ولكن العامريان ،الموفق مجاهد وخيران انتهز الفرصة للزحف على قرطبة . ونجحا في ذلك ، فأثر يحيى البقاء بمالقة خشية أن يبطش به أهل قرطبة، ولكنه قتل خارج قرمونة في محرم سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٥ م على أيدي رجال أسماعيل بن عباد ، واستمر خيران ومجاهد العامريان في قرطبة نحو شهر ، ثم اختلفا وتنازعا ، وانسحب خيران من قرطبة في أواخر ربيع الآخر سنة ٤١٧هـ / ١٠٢٦ م بينما بقي مجاهد فترة من الوقت وغادرها إلى دانية^(٦٧) .

وقد أجمع أهل قرطبة بعد رحيل الفتيين العامريين على تنصيب هشام بن محمد بن عبد الملك أخى المرتضى خليفة ، وتلقب بالمعتد بالله. ولكن لم يطل عهده هو الآخر بقرطبة ، إذ أخذ أحد الأمراء المروانيين واسمه أمية بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان يحرص على خلع طمعا في الجلوس على كرسى الخلافة مكانه . وثار أهل قرطبة وراء أمية في ١٢ ذى الحجة سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٢ م وحاصروا قصر الخلافة ، وأخرجوا هشام من قصره هو ونساؤه وولده. واجتمع شيوخ قرطبة ووزراؤها برئاسة أبي الحزم بن جهور لبحث المسألة ، فقرروا خلع المعتد بالله ، وإبطال الخلافة ذاتها .ونودى بالأسواق بالألا يبقى في قرطبة أحد من بنى أمية ،وألأ يستضيفهم أحد ، فانتهى بذلك ملك بنى أمية في بلاد الأندلس بعد أن استمر قرابة مائة وخمسة وسبعون عاماً تقريباً (١٣٨هـ / ٧٥٥ - ٤٢٢هـ / ١٠٣٢ م) ترك المسلمون فيها حضارة إسلامية لازالت شامخة تنطق بأمجاد وعظائم الإسلام وحضارته ويفخر بها معظم الأندلسيين أنفسهم .

هوامش الفصل الثالث :

(1) Dozy, R; Stples. F/ G; Spanish Islam, London. 1931, p 397.

(2) Diehl C, Marcais, G; Le Monde Oriental de 395 a 1018 (Hist. du Moyen. Age, tome, 3, Paris, 1936, p. 400.

(3) Cam. Med History, Vol. 3 , pp. 419 – 420.

(4) Diehl Op. Cit pp. 400 – 404.

(٥) ليون بول ، العرب في أسبانيا، ص ١٣٧ .

(6) Can. Med. Hist. vol , P. 422 .

(7) Dozy. op. cit, pp. 492 – 495 .

(8) Camp. Med. Hist. op. cit, p.425 .

(٩) ليون بول، المصدر السابق، ص ١٥٣. وراجع

Diehl , op. cit, P. 411.

(١٠) أحمد مختار العبادي، في المغرب والأندلس، (عصر الخلافة الأموية في الأندلس) وراجع أيضاً: السيد عبدالعزيز سالم، الإسلام وأثره في الأندلس، راجع ثورة ابن حفصون .

(١١) ان عذارى، البيان المغرب، ج ٤ ، ص ١٥٠.

(١٢) حسين مؤنس "السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، المجلة المصرية التاريخية، المجلد الثالث، العدد الأول، مايو ١٩٥٠، ص ٥٩.

(١٣) الطاهر مكي، حضارة الاسلام في الأندلس، عدد خاص من مجلة الهلال، يونيو ١٩٧٦م ، ص ٩٠ – ٩٥ .

(١٤) حسن على حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس في عصر الموحدين، القاهرة. ١٩٨٠، ص ٨٧ - ٩٣. وراجع عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠.

(١٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ٤٧ - ٤٩. وراجع: ليون بول: العرب في أسبانيا، ص ١٥٢ - ١٥٤.

(16) Cam.Med.Hist. Vol, 3, pp. 428 - 430.

وراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٣.

(17) Dozy . op. cit , pp. 583 - 585 .

وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٢.

(١٨) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٤٠ - ٤٣، وأيضاً: الميدى، جذوة المقتبس، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(١٩) المقرئ، نفح الطيب، ج ٢، ص ٧٢ - ٧٣، وأيضاً ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢٠) عبدالرحمن على الحجى، التاريخ الأندلسى، ص ٦٥ - ٧٥ وراجع: الخشنى، قضاة الأندلس، ص ٢٣ - ٢٧.

(21) Dozy ,op. cit , . 397.

وراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٠.

(22) Diehl , Marcais , op. cit, ppl. 400 - 403.

وراجع: ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثانى ١٩٨٣م، المجلد الثالث ١٩٨٥م.

(٢٣) سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، ج ١، ص ٥٢٠. وراجع، أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، (عصر عبد الرحمن الناصر).

(24) Dozy, op. cit, pp. 492 – 495.

وراجع : السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية جـ ١ ، ص ١٤٦ وما بعدها .

(٢٥) أحمد هيكل ، الألب الأندلسي ، ١٧ ، ٢٨ - ٣٥ .

(٢٦) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٢٩ - ٣٣ .

(٢٧) ابن القوطية ، افتتاح الأندلس ، ص ٥١ - ٥٧ .

(٢٨) محمود علي مكي :

Euzayos Sobrelas aportaciones orientales euLa Espania
muslamana, p.130.

(٢٩) عبدالرحمن علي الحجى ، التاريخ الأندلسي ، ص ٦٠ - ٧٠ .

(٣٠) أخبار مجموعة ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣١) لين بول ، العرب في أسبانيا ، ص ١٣٧ ، وراجع سعيد عاشور ،
المرجع السابق ، ص ٥٢١ .

(32) Cam. Md. History, Vol, 3 , p. 424 .

وراجع أيضا : لين بول ، العرب في أسبانيا ، ص ١٣٨ .

(33) Dozy , op. cit, pp. 492 – 493 .

وراجع: سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢١ .

(٣٤) ابن الفرض ، علماء الأندلس ، ص ١٧٩ - ١٨١ ، وراجع: الحميدى ،

المصدر السابق ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ . وأحمد هيكل ، المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٣٥) أخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٥٢١ .

(٣٦) السيد عبدالعزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة الأموية جـ ١ ، ص ١٤ -
١٥٠ وما بعدها .

(٣٧) ابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، ص ١٣ - ١٧. مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص ٣٦ - ٤٠.

(٣٨) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين (آثارهم في الأندلس، ص ١٥٣ - ١٦٣).

(٣٩) ابن عذارى، البيان المغرب، ط ١، ص ٥٤ - ٥٦.

(٤٠) ابن بسام، الذخيرة القسم الثاني، م/١ ص ١٤-١٧. وراجع أيضاً: ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م/٢، ١٩٨٣. ص ٢٦٥-٢٩٣.

(41) Cam. Med. History, Vol, 3 ,p. 424 .

وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٢١.

(42) Dozy, op.cit, pp. 492 - 494.

وأيضاً، لطفى عبد البديع، الإسلام في أسبانيا، ص ٧٣.

(43) Cam.Med. Hist. Vol , 3 p. 425 .

وراجع: لين بول، العرب في أسبانيا، ص ١٥٢.

(44) Diehi, Marcais, op. cit, . 402.

وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٢١.

(45) Cam. Med.Hist. Vol,3, p. 425.

(46) Diehl , Marcais, op. citp. 401.

(47) Dozy, Op. it, p. 511.

(٤٨) لين بول، العرب في أسبانيا، ص ١٥٣. وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١ ص ٥٢٢.

(٤٩) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس، ص ٤٣ - ٤٥.

- (٥٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط ١ ، ص ٥٤ - ٥٦ .
- (٥١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٥٣ - ١٦٣ .
- (٥٢) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، " عصر الدولة العامرية " .
- (٥٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٥ - ١٩ .
- (54) Doze , op. cit, p. 585 .
- (55) Dihel, Marcais
- (٥٦) سعيد عبدالفتاح عاشور ، أوربا للعصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥١٧ - ٥٢٣ .
- (57) Cam. Med.Hist. vol, 3. p. 428.
- وانظر ، عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٣ .
- (٥٨) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ١٧ .
- (٥٩) مؤلف مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، ص ٣٦ - ٤٠ .
- (٦٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٥٧ - ٥٨ .
- (٦١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٥٧ .
- (٦٢) ابن بسام ، الذخيرة القسم الثانى ، ج ٢/ ص ٤٥ .
- (٦٣) أحمد مختار العبادى ، المرجع السابق ، " فى خلافة آل عمار فى الأندلس " .
- (٦٤) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٠٣ .

(65) Cam. Med. Hist. vol, 3, 438.

(66) Diehl , Marcais ,op. cit,p. 404 .

(٦٧) لين بول ، العرب في أسبانيا ، ص ٩٣ - ٩٤ .

الفصل الرابع

عصر ملوك الطوائف

- مُلقب
- امرا بطون وإنقاذ الأندلس.
- معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م
- الأندلس بين يوسف بن تاشفين والسيد الفميطور .
- الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية .
- بابوات روما ومجيش الجيوش لطرده المسلمين من الأندلس .
- زوال دولة المسلمين في أسبانيا بعد ثمانية قرون .

عصر ملوك الطوائف :

بنهاية ملك بنى أمية فى الأندلس ، انتهت معها الأندلس كدولة موحدة مهابة يدين لها الملوك الأسبان فى الشمال بالخضوع والولاء ، ولم يكن لواحد منهم فضل فى هذه الناحية المأساوية الفريدة ، التى انتهت بتخريب الزاهرة ، وانهيار قرطبة وسقوط الدولة الأموية، وتمزق المملكة أشلاء شتى .

كان تمزق دولة الأندلس بأيدى بنيتها على النحو الذى مرّ بنا، من أكبر المآسى التى أصابت الأمة الإسلامية ؛ إذ كان بداية الطريق إلى ضياع هذه القطعة الغالية من الأرض الإسلامية فى يد الممالك المسيحية الأسبانية ، بعد أن كانت هذه الممالك تدور فى فلك الدولة الإسلامية، وتدين لها بالولاء والخضوع. وهكذا يصاب العرب بانقسامهم بأكثر مما يصابوا بتآلب الأعداء ضدهم .

ويمكن فهم الآثار المدمرة التى ترتبت على هذا الصراع الإنتحارى الذى اندفع فى الأندلس بعد موت عبد الملك المظفر ؛ إذا عرفنا أنه أّخر الأندلس قرناً من الزمان. فقد استمرت الفتن أولاً فى الأندلس حوالى ربع قرن ، أى منذ مقتل عبد الرحمن شنجول عام ٣٩٩هـ / ١٠٠٩ م حتى إعلان أبى الحزم بن جهور انتهاء الخلافة وسقوط ملك بنى أمية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٢ م. وقد رأينا كيف أخذت الفرق المتصارعة تستعين بالقوى المسيحية الأجنبية فى الشمال ضد بعضها البعض مما أّتاح لتلك القوى التدخل فى شئون الأندلس الداخلية، بعد أن كان حكام قرطبة هم الذين يتدخلون للممالك المسيحية الأسبانية .

ولم يعد يعلن بن جهور إنتهاء الخلافة، حتى استقل كثير من الأمراء بمدنهم ومقاطعتهم، حتى أصبحت هناك فى الأندلس نحو من عشرين أسرة حاكمة. واستمر من سنة ٤٢٢هـ / ٤٨٤هـ / ١٠٩٧م. وكان السلطان بصفة

عامة للبربر في الجنوب . وخضع الشرق الأندلسي للصقالبة ، وانتثر في المدن الأخرى أمراء وحكام آخرون. بينما كانت الممالك المسيحية تتوحد في الشمال.

وقد صورَ المؤرخ ستانلي لين بول Stanley Lane - Pool أوضاع الأندلس في تلك الفترة تصويراً دقيقاً فقال ^(١) :

" تمزقت الدولة إلى إمارات صغيرة في الوقت الذي كان ألفونس السادس ، يوحد تحت أمرته إستورياس وليون وقشتالة . وقد عرف ألفونس ما ينبغي عمله تماماً ، لقد عرف أنه ليس عليه إلا أن يمد الحبل لملوك الطوائف ليشنقوا به أنفسهم، لأن هؤلاء الجهلة لم ينظروا في العواقب ، ولم يهتموا إلا بأنفسهم ولم يدخروا أي جهد في سبيل إضعاف منافسيهم ، وكانوا يجشون عند قدم ألفونس يستجدون معونته ضد أخوانهم المسلمين . وتقرّبت كل الدويلات الإسلامية إلى ألفونس عن طريق تقديم الإتاوات. وكان ألفونس يزيد فيها كل عام كلما زادت قوته ، لأنها ثمن عطفه وحمايته، وكان ألفونس ينقل خطوطه إلى الأمام في كل فرصة ، ويستولي على الحصون والقلاع واحدة بعد الأخرى ، حتى وثب وثبته التي استولى فيها على طليطلة سنة ٧٨٨هـ . فذب الفرع في صفوف المسلمين بأسبانيا وأحس ملوك الطوائف بالخطر على إماراتهم من السقوط .

وأغلب ملوك الطوائف لا يستحقون الذكر ؛ وأكثرهم جاء وليد الضعف أو المصادفة ؛ وأن يبقى أن أهم هؤلاء هم بنو عباد في أشبيلية . وقد كوّن هذه الأسرة القاضي محمد بن عباد الذي تغلب على القاسم بن حمود حين أراد أن يضم أشبيلية إلى مالقة التي مكن لنفسه فيها. واستمرت إمارة بنى عباد بأشبيلية من سنة ١٤٠هـ إلى عهد ملوك الطوائف. وأخذت تتوسع على حساب جاراتها. فضمت إمارات بنى حمود بالجزيرة ورونده وموردن وأركس ونبله وإمارة بنى جهور بقرطبة ^(٢) .

على أنه وجدت إمارات أخرى مستقلة عن حكم بنى عباد ، مثل إمارة بنى حمود بمالقة ، وبنى زيرى بغرناطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى الأفطس فى بطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، والعامريين ببلنسية ، وبنى هود بسرقسطة ولاردة وقلعة أيوب.

فى ذلك الحين كانت قد تكونت ثلاث ممالك مسيحية فى الشمال الأسباني هى : مملكة كتالونيا، ومملكة أرجون، ومملكة قشتالة. وكان يفصل بينهما وبين الأندلس مجرى نهر التاجة من مصبه إلى منبعه . ثم يتجه خط الحدود بعد المنبع شمالاً إلى سرقسطة، ثم إلى الشرق حتى يصل إلى البحر المتوسط عند مدينة طركونة .

وقد قسّم العرب خط الحدود هذا إلى ثلاثة أقسام : القسم الشرقى وقد سمي بالثغر الأعلى ، والقسم المتوسط الأوسط. وقد سمي بالثغر الأوسط، ثم القسم الغربى . وقد عرفنا من الصفحات السابقة أن الثغور هى مناطق الحدود مع العدو. وهى عبارة عن سلسلة من الحصون تقام بعد نهاية كل فتح . لحماية هذا الفتح ، وليست مهمتها الغزو. وإنما يقوم بالغزو الجند داخل البلاد فيما عرف باسم الصوائف والشوائى. ومهمتها الحماية أيضاً وليست التوسع، الحماية عن طريق الهجوم لا الدفاع ، وضرب العدو داخل أرضه بدلاً من الانتظار حتى يتقدم العدو داخل الأرض الإسلامية .

مناطق الثغور إذن هى مناطق ثابتة لا تتغير إلا كل بضعة قرون حين تتغير الظروف تغيراً جذرياً ، فتتحرك لحساب هذا الطرف أو ذاك. أى لحساب المسلمين أو لحساب الأوربيين.

وقد أخذت مناطق الثغور فى الأندلس تتحرك جنوباً على يد الممالك الأسبانية الشمالية فى أيام ملوك الطوائف . وكان أهم ملوك الأسبان آنذاك هو الفونسو السادس ملك قشتالة . وهو ملك تطبع بالخشونة فى قفار قشتالة

وجبالها . فهو على النقيض تماماً من ملوك وفرسان المسلمين الذين كانوا قد بلغوا في ذلك الحين ، على الرغم من الضعف السياسي نزوة الترف والأناقة والعناية بالثياب الغالية والآلات الحربية المزخرفة بفصوص الذهب والفضة ، فضلاً عن آداب المعاملة وأساليب الشهامة والفروسية . ولذلك حظى الفونسو باحتقار الفرسان المسلمين كهمجي رغم دفع ملوكهم الجزية له . وهذا هو الفونسو الذي سيقود حركة الإسترداد في بلاد الأندلس ضد المسلمين (٣) .

امرابطون وإنفاذ الأندلس :

بينما كان حال المسلمين في الأندلس على نحو ما مرّ بنا ، كان حالهم يتجه نحو الوحدة في البلاد المغرب على يد يوسف بن تاشفين الذي تم له الإستيلاء على كل المغرب الأقصى الشمالي والجنوبي، الأمر الذي دعاه إلى اتخاذ لقب "أمير المسلمين وناصر الدين" ثم أخذ يتطلع إلى مد حدوده إلى الجزائر ، فغزا تلمسان سنة ٤٧٢هـ ، وفتح الريف في العام التالي . وفي عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨٧ م دخل مدينة الجزائر بعد أن قطع في طريقه وهران وتقس وجبال الونشريس ووادي الشلف . ووصل إلى حدود مملكة بجاية وبذلك حقق يوسف بن تاشفين ما وقف دونه المسلمون الأوائل ، ومن قبلهم الرومان . وأهل البلاد أنفسهم : وصاغ وحدة إسلامية تمتد إلى ضفاف نهر السنغال والنيجر ثم في أرجاء المغرب الشمالي من الجنوب إلى الشمال . ومن غربه إلى شرقه . وبذلك انفرد يوسف بن تاشفيه بالفخر وحده لهذا العمل على رأس شيوخ المرابطين ، حيث قاد ووجه منذ عملية تاهييدت إلى عملية للجزائر ، وأقام مجتمعاً جديداً في هذه المنطقة أو في تلك المناطق جميعها على نمط المثال المالكي، الأمر الذي رفع المالكية من مستوى المذهب إلى مستوى الدين ، وأثبت مدى استجابة المغرب لدواعي حضارته الإسلامية ، وإمكاناته المدخرة في خدمة الإسلام (٤) .

وعموماً فوصول الدولة المرابطية إلى هذا الإمتداد على طول البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، تكون قد تهيأت تماماً للقيام بدورها في الصراع مع أوروبا وإنقاذ المسلمين في الأندلس .

ولعل القارئ قد لاحظ من خلال ما تقدم أنه لا يمكن إنقاذ المسلمين في الأندلس غير هذا الكيان الجديد الممثل في دولة المرابطين وعلى يد يوسف بن تاشفين على وجه الخصوص . فمنذ أن سقطت الأندلس في هوة الانقسام والتشرزم والصراع الإنتحاري، وتمزقت بين ملوك الطوائف. فبينما كانت حركة الاسترداد المسيحية للأندلس تجري على يد سانشو الكبير ثم على يد ولده فرناندو الأول ومن بعده الفونسو السادس ، كان عبدالله بن ياسين يظهر بين قبائل الملثمين في " أزقي " مركز قبيلة المتونة ، ثم يخرج منها ليؤسس رباط السنغال . ثم يتوسع من هذا الرباط جنوباً وشمالاً ، ويتولى بعده يوسف بن تاشفين، فيمد حدود الدولة شمالاً وشرقاً في الوقت الذي كان فيه الفونسو السادس يقوم بهذا العمل على حساب الدويلات الطائفية جنوباً . فكان كلاً من الخصمين كان يقترب من الآخر على غير تدبير ، حتى إذا ما استكمل يوسف بن تاشفين فتوحاته شرقاً في الجزائر حتى " وجدة " سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨٧ م ، كان الفونسو السادس يثب وثبته التي استولى فيها على طليطلة سنة ٤٧٨ / ١٠٩٢ م . وبذلك أصبح الخصمان وجها لوجه^(٥).

وذلك أن سقوط طليطلة كان نذيراً لكل ملوك الطوائف بالمصير الذي سوف ينتظرونه وينتهون إليه . وفي الوقت نفسه ملأ النفوس رعباً . " حتى انقطع الرجاء من استيطان الأندلس " . وعندئذ هب الجميع للبحث عن منقذ ، وتركزت الأبصار على المرابطين طلباً للإغاثة .

ويختلف المؤرخون حول من طلب الإغاثة : هل هم الفقهاء أم الأمراء ؟ فترى بعض المصادر أن المعتمد بن عباد " أمير أشبيلية " حين أدرك ألا قبلاً له

بالوقوف في وجه الزحف المسيحي الذي يقوده الفونسو السادس ، قرر الاستعانة بالمرابطين . وقد حفره ابنه الراشد من أن يطمع المرابطون في ملكه ، وينتزعونه منه ، فرد قائلاً : " لأن أكون سائق جمال في صحراء أفريقية ، خير من أن لرعى الخنازير في " قشتالة " (٦) .

على أن المصادر الأخرى تذكر أن طلب النجدة إنما فرضته الجماهير الأندلسية على حكامها ، فتبناه الأمراء مدارة لجماهيرهم . إذ تروى أن اجتماعاً عقد في قرطبة دعا إليه فقهاء الأندلس ، وقرروا الاستعانة بالمرابطين . وكلف للفقهاء أبا الوليد الباجي بالطواف على أمراء الطوائف بدعوتهم إلى هذه الفكرة . وكان ضغط الفقهاء أمراً لا ينبغي التغاضي عنه .

على أن غالبية ملوك الطوائف كانت تتوجس خيفة من دعوة المرابطين للقدوم إلى الأندلس ، وكانوا يحتجون بأن "السيفين لا يجتمعان في غمد واحد" ، أي أنهم لا يجتمعون أبداً مع المرابطين في غمد واحد هو "الأندلس" . ونصحوا المعتمد بن عباد بمدارة للفونسو السادس ومصانعته وإجابته لما يطلب (٧) .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الإحساس بالمجتمع الأندلسي كان يجمع بين المسيحيين والمسلمين رغم اختلاف الدين . ويرون أن هذا الشعور هو الذي دفع الأندلسيين إلى عدوة المرابطين . وهؤلاء ينسون أن غرض وهدف الفونسو السادس كان طرد المسلمين من الأندلس ، واسترداد شبه الجزيرة الأيبيرية من أيديهم ، وبالتالي لم يكن هناك مثل هذا الإحساس ليربط بين لفريقين . ولكن الاستعانة بالممالك الأسبانية كان أمراً اعتيادياً من جانب أمراء الطوائف آنذاك . بل أن المعتمد بن عباد سبق له أن حالف الملك الفونسو السادس ضد زميله ملك طليطلة ، على أنه بعد أن أحسن بأن ملكه ذاهب إلى يده ، فضل - كما قال - " أن يكون راعي غنم في أفريقية على ألا يرعى الخنازير في قشتالة " (٨) .

وعلى العموم فإن ضغط الفقهاء نجح في حمل أمراء الطوائف على الاستعانة بالمرابطين ، وكان الذين أوفدوا وفودهم سنة ٤٧٩هـ — / ١٠٩٣ م إلى يوسف بن تاشفين أربعة أمراء هم : المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، وابن الأفطس ، صاحب بطليوس ، وعبدالله الزيرى صاحب غرناطة ، وأخوه صاحب مالقة .

وعندما وصلت الدعوة إلى بن تاشفين شاور أخوته وابن عمه ، فأصبح رأيهم الذي كان أشبه بفتوى دينية، على أن " من واجب المسلم إغاثة أخيه المسلم " . ثم استشار بن تاشفين فقهاء المغرب فأفتوه : " بأن مجاهدة الإفرنج فريضة " وبذلك بدأ فصل جديد في الصراع بين العرب وأوروبا في الأندلس .

معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م :

عندما انتهى الأمر إلى يوسف بن تاشفين بضرورة محاربة الفونسو السادس، باعتباره فريضة جهاد ضد المشركين، فرضته الأحوال المتردية والتشرزم السياسى فى بلاد الأندلس، قرر عبور البحر والمحيط من أفريقيا إلى الأندلس فى عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م، فكان حدثاً من أحداث التاريخ الكبرى وعلامة بارزة فى تاريخ الصراع بين العرب وأوروبا . إذ سينهى عهداً من التمزق والضعف وحالة التردى للمسلمين فى الأندلس امتد نحو (٨٠ عاماً) أى ما يقرب من قرن من الزمان (٣٩٩-٤٧٩ هـ) . ويعيد الأندلس إلى سابق عهدها : قلعة عربية موحدة تقف فى وجه أوروبا على مستوى متكافئ ، وتتزعزع منها الإحترام ، وتكبل لها الضربات وتلحق بها أفدح الهزائم ^(٩) .

وتعتبر قوة المرابطين من قوى التجديد فى العالم الإسلامى فى ذلك الحين، وهى تمثل فى المغرب الإسلامى ما ممثلته دولة السلاجقة فى المشرق الإسلامى ، من نهضة وبعث ، وتتفق فى ظهورها مع ظهور تلك الدولة . وقد لعبت نفس الدور الذى لعبته أيضاً، مع فارق واحد هو أن دولة السلاجقة

حاربت امبراطورية هرمة دبت في أواسلها السوس الذى ينخر فى العظم ،
هى تلك الإمبراطورية البيزنطية حينما كانت فى إحدى مراحل ازدهارها فقربت
نهايتها . بينما حاربت دولة المرابطين قوة بازغة ودولة فنية هى قشتالة التى
هددت بانهاء صفحة المسلمين فى الأندلس ، فازالت خطرهما، وأضعفت قوتها،
ثم تصدت للدولة المسيحية الأخرى التى رفعت لواء الزعامة ، وهى أرجونة ،
فألحقت بها الهزائم، وأعادت الثقة للمسلمين فى قدرتهم على إحراز انتصارات
على أوربا مرة أخرى، بعد أن نسي الناس هذه الإنتصارات فى ظل الإنقسام
وملوك الطوائف .

ولعلك تتفق معى أيها القارئ الكريم، على أن دولة المرابطين قامت
على مبدأين هامين - كما ذكرنا من قبل - هما: مبدأ الجهاد ومبدأ الوحدة. فأما
مبدأ الوحدة فقد حققت هذه الدولة ما لم يستطع المسلمون الأوائل تحقيقه، ولا
الرومان أنفسهم الذين سبقوا المسلمين إلى هذه البلاد. فلقد صاغت دولة
المرابطين وحدة إسلامية تمتد إلى ضفاف نهر النيجر والسنغال جنوباً، وإلى
ساحل المحيط الأطلسى غرباً وتشتمل على أرجاء المغرب الشمالى من شرقه
إلى غربيه. أما بالنسبة لعامل الجهاد : فنحن أمام دولة قدست الرباط منذ نشأتها،
وغيرت بينتها عدة مرات، من الصحراء إلى جبال المغرب، ثم إلى جبال
الأندلس، بكل ما كان يتطلبه هذا التغيير من تكيف مستمر. وكان الجهاد ركناً
من أركان مذهبها، وقد أملى عليها مواقفها السياسية جميعها؛ وهو مصدر
إعجاب المؤرخين بها - مصدر إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء^(١٠).

فقد كان مبدأ الجهاد الدينى بالشكل الذى دأبت به دولة المرابطين؛ من
الأسباب التى جعلت هذه الدولة امتداداً للدولة الإسلامية الأولى، والتى اتصفت
بالدين والطهر، إذ اتصف ملوك دولة المرابطين بالتقوى والورع والخشوع
والإقبال على التفقه فى الدين. والإعتماد على الفقهاء والقضاة بشكل يكاد يكون
كلياً . وتوسعهم بالتالى فى تطبيق مبدأ الشورى . وقد بلغ من استقامة هؤلاء

الحكام . واستقامة دولتهم ، أن أطلق بعض الباحثين على دولة المرابطين اسم " الدولة القديسة " . ولا يوجد من أرخ لها دون أن يعجب بها في قرابة نفسه ويجعلها بكل ما تحمل الكلمة من معنى .

وكما ذكرنا من قبل في شأن اختلاف الفقهاء والأمراء الأندلسيين في استقدام المرابطين للتصدي للفونسو السادس ملك قشتالة؛ يذكر بعض المؤرخين أن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين كان يعد العدة للتدخل في شئون الأندلس حتى ولو لم يستجد به ملوك الطوائف . لقد نقل عن يوسف بن تاشفين قوله : " لأن عشت لأعبد جميع البلاد التي ملكها الروم إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بها . ولا علم عندهم برخاء العيش " (١١) .

ولهذا السبب أخذ المعتمد بن عباد يماطل في تنفيذ الاتفاق الذي أبرمه مع يوسف بن تاشفين ، وكان يقضى بتسليم المرابطين " الجزيرة الخضراء " بينما المعتمد بن عباد ينتظر ويفكر في الأمر ، فوجئ قوات أشبيلية بقوات المرابطين تحرق بهم بعد عبور المضيق ، وتستولي على الجزيرة . وعندما عارضه الراضى بن المعتمد في ذلك، رد عليه داود بن عائشة قائد الجنود "وعدتمونا بالجزيرة الخضراء ، ونحن لم نأت بأخذ بلد ، وإنما آتينا للجهاد ، فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا فالذي نقدر عليه نصنع " . فلم يجد أمير أشبيلية بداً من التسليم بالأمر الواقع (١٢) .

وعلى هذا ، اتخذت طلائع المرابطين من الجزيرة الخضراء معسكراً كبيراً ، وقاعدة عسكرية تتدفق عليها قواتهم . ثم اتجهت بقيادة بن سليمان داود بن عائشة صوب أشبيلية ؛ فانضمت إليها قوات المعتمد بن عباد . والمتوكل بن الأغطس ، وبعض قوات ابن صمادح صاحب المرية ، وصاحب غرناطة والثغر الأعلى ، وابن ذى النون وابن عزون " حتى لم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج " .

ومن الطريف أن منظر المرابطين في البداية كان صدمة لأهل الأندلس الميسورين، الذين يعيشون عيشة مترفة، والذين لم يرقهم من قبل خشونة وجلافة الفونسو السادس وجنوده، وهزأوا بقذارة أظفاره ورائحة ثيابه. فعندما هرعوا لرؤية المرابطين من كل مكان، تعجبوا لهيئاتهم، واحتقروا زيهم ونغماتهم، واستصغروهم، وقدرُوا أنهم سيكونون "طعماً للسيوف، وغرضاً للحتوف، وهدفاً للرماح، ونهباً للسلاح" وفي الوقت ذاته لم يرق للمرابطين للبزخ الذي يعيش فيه الأندلسيون، فقد وصف يوسف بن تاشفين الترف الذي يعيش فيه المعتمد بن عباد، وقصوره الكثيرة الفخمة بأنه: "مضيع لما في يده من الملك، لأن هذه الأموال بهذا القدر، قد أخرجت في الترهات، وإن هذا لمن لفحش الإستهتار". مع أن المعتمد بن عباد كان من أفضل الملوك، وكان مفخرة عصره ثقافة وفروسية. وقد دل على بعد نظره بإستجاده للمرابطين.

وعلى صدمة هذا اللقاء بين مجتمع البداوة والحضارة، لم تمنع الجميع من الشعور بالحماس لعودة الوحدة إلى صفوف المسلمين، ووصل ما أنقطع من تاريخ الأندلس منذ وفاة المنصور بن أبي عامر، الذي ألقى الفزع والياس في قلوب ملوك الأسبان^(١٣).

وأحس المعسكر المسيحي بالخطر، وكان الفونسو السادس يشدد الحصار في ذلك الوقت على سرقسطة، فاضطر إلى رفع الحصار. وبدأ يحشد القوى الأوربية كلها وراءه، ودوت أصوات استغاثته في أرجاء أوروبا كلها، فرفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم وخف الفرسان من إيطاليا ومن وراء جبال البرانس ومن قشتالة وأرجونية وغاليسية وليون واستورياس وأخذت قوات الفونس السادس تتقدم جنوباً لملاقاة المسلمين.

وهكذا كانت قوى العرب وأوروبا تحتشد لهذه المعركة التاريخية العظيمة التي جرت في رجب سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ودخلت التاريخ تحت

اسم " معركة الزلاقة " ويتفق المؤرخون على أن الفونسو السادس هو الذى بدأ بالهجوم ، اعتداداً بقوته من جهة ولإخاذ العرب على غرة من جهة ثانية . وكانت قوة المسلمين قد اتجهت إلى بطليوس وعسكرت فى منطقة يقال لها " فحص الزلاقة " وهو اسم حرّقه المسلمون بتقديم اللام على القاف ، إذ أن أصله الأندلسى " أزقاله " ، ويسميه الأسبان أيضاً " سكر الياس " وهو اسم يحمل معنى بلاط الشهداء ، كما يقول الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة وقد انقسمت القوات الإسلامية إلى معسكرين ، معسكر الأندلسيين ومعسكر المرابطين ، وفقاً لما كان متبع بالنسبة لأمرائهم ^(١٤) .

وكانت خطة الفونسو ، التخلص أولاً من الأندلسيين ، الذين كان يراهم أضعف الطرفين الحليفيين ، فإذا قضى عليهم أضعف قوة الطرف الآخر المتمثل فى المرابطين . وبالفعل استطاع أن يلحق الهزيمة بالقوات الأندلسية ، وأخذت تتقهقر إلى أسوار بطليوس فأرسل إليها يوسف بن تاشفين فرقة من القوات المرابطة بقيادة داود بن عائشة لشد أزرها . كما أرسل فرقة أخرى بقيادة سيد بن أبى بكر ، تتكون من جنود زناتة ومغراوة ، وأخيراً سار بنفسه على رأس جيش لمتونة فهاجم معسكر العدو من الخلف وأضرّم فيه النار ، فاضطرت قوات الفونسو السادس إلى الارتداد لإنقاذ المعسكر من الوقوع فى يد المرابطين . وعندئذ انقلب الأندلسيون من الفر إلى الكر ، وأصبح جيش الفونسو بين شقى الرحى .

وقد لعب الفن الحربى المرابطى دوره فى تقرير مصير المعركة ؛ فبينما اعتمد جيش الفونسو السادس على الفرسان فى الزرد والدروع ، تحركهم روح الشجاعة الفردية والفروسية ؛ إعتد المرابطون على حيل حربية أخرى . فقد أقاموا صفّاً من الإبل بمثابة درع يتقدم قواتهم المهاجمة ، ويوقع الرعب فى صفوف الأعداء . ويثير الاضطراب فى خيولهم . واستعانوا بالقذائف من السهام والرماح ، يصبونها إلى الخيول فتسقط بالفرسان ، حتى

صار كل فارس أوربي مشغولاً بفرسه يجر عنانه والخيول منتصبية على أقدامها الخلفية . وقد روى أ. عبد الله بن عنان الذي شهد ميدان المعركة حديثاً ، أنه لكثرة ما أطلق من سهام في أثناء المعركة ، مازال منها باقياً إلى الآن ؛ بحيث يستطيع أى سائح إذا حفر الأرض بيديه أن يحصل على سهم . وقد وقع عبد الله عنان فعلاً على بعض هذه السهام في أرض المعركة^(١٥) .

أما الحيلة الأخرى التي استخدمها المرابطون فهي الطبول . فيذكر المؤرخ بيدال " Pidal " أنهم استعانوا بطبول هائلة لم تكد تدق حتى صمت الأذن بدويها المزعج . وألحقت الرعب في قلوب الفرسان والخيول على السواء . ولا شك أنهم اقتبسوا طريقة الطبول من القبائل الزنجية الواقعة إلى جنوب حوض السنغال ، كما يرى بعض المؤرخين ، لأن الطبول تلعب في الفن الحربى عند الزنوج دوراً كبيراً في المعركة.

وقد انتهت بذلك نتيجة المعركة بانتصار المسلمين وهزيمة الفونسو السادس ، وأصيب الفونسو نفسه في إحدى ركبتيه.

وقتل الكثيرون ، وهرب إلى تل قريب نحو ٥٠٠٠ ألف فارس جرحى ، فقدوا خيولهم ، وعليهم الدروع والأواح السيقان تتقل حركاتهم ولا يستطيعون خلعها والفرار خفافاً خوفاً على حياتهم . بينما كان المسلمون يجمعون الغنائم تحت أبصارهم . وأخيراً تسللت فلول الجيش القشتالى تحت جنح الظلام ، مخلفة ورائها للمرابطين نصراً عظيماً .

ترك يوسف بن تاشفين العدو يهرب من أمامه ، ولم يتعقبه ، مما أثار ذلك جدلاً عند المؤرخين . ولكن من الواضح أن الأحوال في المغرب حتمت عودته ، لسبب وفاة أمير الملتزمين الأكبر ، أبى بكر بن عمر ؛ فقد كان يوسف عاملاً على المغرب ، وهو أحق بأن يخلف أبى بكر بن عمر في زعامة دولة المرابطين^(١٦) .

وكان من جراء هزيمة الفونسو السادس وانتصار المرابطين في معركة الزلاقة نتائج خطيرة ، كان لها تأثيرها في مرحلة الصراع المقبل بين العرب وأوروبا . فقد استرد الأندلس ثقته بنفسه ، وأحسن بأن أيام المنصور بن أبي عامر الزاهرة قد عادت من جديد ، وفي الوقت نفسه استقرت هيبة الملثمين في نفوس الناس بعد أن كانوا يستهينون بهم في بداية الأمر ، ويتوقعون أن يصبحوا طعماً للسيوف . بل استقرت هيبة المرابطين أيضاً في نفوس الأندلسيين ، أعنى هنا الأسبان النصارى ؛ " فأشربوا منذ تلك الواقعة خوفاً وانكماشاً " كما تدعمت هيبتهم أيضاً في المغرب . حيث قرئت رسائل النصر من فوق منابر المغرب حتى مدينة المهدية والقيروان . وترددت أصدااء النصر في المشرق أيضاً ؛ إذ يقال أن تهنئة وصلت من الإمام الغزالي . وقد حمل يوسف بن تاشفين بعد هذا النصر لقب "أمير المسلمين وناصر الدين " . واستتبع هذا اللقب الإتصال بالخلافة العباسية طلباً لصحة شكل الإمارة من الناحية الشرعية ؛ لأن المرابطين كانوا مالكية يحتم مذهبهم استمداد الشرعية من الخلافة . وقد أفتى الإمام الغزالي بنبابة ابن تاشفين .

وبناء على ما سبق ، اضطر يوسف بن تاشفين إلى العودة لبلاد المغرب ، بعد أن جمع أمراء الأندلس غداة الزلاقة في مجلس عام . وأوصاهم بالاتفاق والائتلاف وتوحيد الكلمة ، لأن المسيحيين لم يتجرأوا على المسلمين ، إلا للذي كان من تشنيتنا ، واستغاثة البعض بهم على البعض .

كما ترك بالأندلس ثلاثة آلاف مقاتل للمرابطة في الثغور وحماية الأندلس ، وأسند قيادة هؤلاء الجنود إلى أحد قادة الزلاقة وهو سيد بن أبي بكر^(١٧) .

على أن الأمور أخذت تسير بعد ذلك في الأندلس وفقاً لميزان القوى الجديد الذي أحدثه عودة المرابطين . فصحيح أن نصر الزلاقة كان نصراً

ساحقاً، ولكن عودة يوسف بن تاشفين إلى المغرب جعلت هذا النصر غير حاسم. ويجب علينا أن نذكر أن عبور المرابطين إلى الأندلس، لم تكن بغرض الفتح، وإنما كان بغرض الإنقاذ. وكان الاتفاق بين ملوك الطوائف يوسف بن تاشفين على أن يأتي بغرض الجهاد فقط. " وألا يتعرض لأحد من رؤساء الأندلس، وألا يقبل من رعاياهم أحداً ولا قولاً ولا يأخذ منهم بلداً ". ثم كان على يوسف بن تاشفين التعجيل بالعودة إلى المغرب لظروف وفاة أمير الملتئمين الأكبر^(١٨).

وقد ترتب على ذلك أن وجود الملتئمين في الأندلس بعد معركة الزلاقة، لم يكن بالحجم أو الثقل الرادع للممالك المسيحية في الشمال، في الوقت الذي أحست فيه هذه الممالك بالخطر على نفسها. وأخذت تنظم قواها من جديد لإزالة آثار الزلاقة، بينما ركن ملوك الطوائف إلى الإسترخاء واعتماداً على المرابطين. وانصرف كل أمير إلى بلده، وانصرفوا أيضاً عن الجهاد إلى منازعاتهم الإقليمية. واضطر قائد الجيوش المرابطين في الأندلس سيد بن أبي بكر إلى الكتابة إلى يوسف بن تاشفين يشكوا من الأوضاع التي يعانيها الجنود المرابطون في الثغور، ويقول: " إن الجيوش في الثغور تقوم على المكابدة تجاه العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكد، وملوك الأندلس في بلادهم وأهلهم في أرغد عيش وأطيبه ". وأصبحت البلاد في الواقع في حالة لا تمكنها من الدفاع عن نفسها.

في تلك الظروف أخذ الفونسو السادس يعاود الكرة من جديد. فخرج غازية حتى وصل إلى قرب أشبيلية، وأخذ الأسبان في حصن لسيط، المعروف في اللغة الأسبانية باسم حصن أليدو، وهو واقع في أرض الإسلام بين مرسية ولورقة، يعيشون في منطقة مرسية ويهددون المعتمد بن عباد في أشبيلية من جهة الشرق.

وهكذا، عادت الظروف تحتم العودة على يوسف بن تاشفين من جديد. وكان المعتمد بن عباد هو الذى استدعاه للمرة الثانية. فقد عبر إلى المغرب وقابله قائلاً: "وجنتك إحتساباً واجتهاداً واعتصاماً للدين وقد اشتد خطر النصارى من حصن لبيب، وعظم أذاهم، ولا جهاد أعظم منه، ولا أثقل فى الميزان"^(١٩).

على كل حال عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس مرة ثانية سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨م. ونزل بقاعته التى تنزل له عنها للمعتمد بن عباد هووى الجزيرة الخضراء. وكتب إلى ملوك الطوائف لإرسال جيوشهم؛ ثم غادر الجزيرة إلى مالقة، ثم إلى المرية ودخل لورقة وهناك لحقت به قوات المعتمد بن عباد، وتجهت القوات المتحالفة إلى حصن لبيب على مسيرة نص يوم من مدينة لورقة حيث فرضت الحصار. وتوافدت آنذاك قوات غرناطة ومالقة والمرية وشقورة وبسطة وجيان ومرسية. واستمر الحصار أربعة أشهر حتى جاء الشتاء، فارتد يوسف بن تاشفين إلى لورقة. وفى تلك الأثناء تقدم الفونسو السادس إلى الحصن، فأنفذ المحاصرين فيه، ثم نك الحصن دكاً، وانسحب إلى طليطلة حتى لا يشتبك مع المرابطين فتكرر هزيمة الزلاقة، وبذلك انتهى خطر هذا الحصن على أشيلية وعلى المعتمد بن عباد.

على أنه فى أثناء الحصار تبين ليوسف بن تاشفين ضرورة إزالة حكم ملوك الطوائف. وتوحيد الأندلس تحت حكم المرابطين. ذلك أن المنازعات تجددت هؤلاء الملوك أثناء الحصار وتكشفت العدول، فلم يزد الرؤساء إلا توحشاً، ولا الرعية إلا تسلطاً. وقد اتهم المعتمد بن عباد أمير مرسية ابن رشيق بمؤازرة الأعداء، فاعتقله يوسف بن تاشفين، فانسحب جنوده. وفى تلك الظروف رأى ابن تاشفين الارتداد إلى لورقة، ولكن خوف الفونسو السادس من الاشتباك مع ابن تاشفين مرة أخرى دعاه إلى العودة إلى طليطلة كما ذكرنا بدلاً من التقدم إلى لورقة. فكان انتصار لبيب هو أثر من آثار معركة الزلاقة وما بنته من رعب فى قلوب الأسبان من لقاء المرابطين^(٢٠).

وقد عمد بن تاشفين على أثر ذلك إلى خلع ملوك الطوائف واستخاص السلطة في يده. وكانت جماهير الأندلس وفقهاؤها يلحّون عليه في ذلك . فلم يكن المرابطون - كما ذكرنا - دعاة جهاد فقط . بل كانوا دعاة إصلاح أيضاً . وكانوا امتداداً للدولة الإسلامية الأولى . ومن ثم كانت إصلاحاتهم الاجتماعية والاقتصادية تسير في أعقاب جيوشهم ، فكانوا يقومون بالغاء الضرائب ولا يفرضون إلا ما أمر الله به في كتابه وسنة نبيه ؛ ولذلك كانت الرعية في الأندلس تتردد على معسكرات المرابطين شاكية متظلمة ، طالبة العدل والإنصاف الذي يتمتع به المسلمون في المغرب . وعندما كان بن تاشفين يحاصر حصن لبيط . كانت الرعية تتوافد عليه شاكية مظلمتهم من جور أمرائها وتعسفهم . وكان ينصت إليهم في عطف مما أوغر صدور الأمراء عليه .

غير أن يوسف بن تاشفين أراد قبل أن يخلع ملوك الطوائف إرهاب القوى الأسبانية في الشمال . حتى لا تنتهز فرصة انشغاله بقتال هؤلاء الملوك ، فتوجه له ضربة من الخف . فأطبقت جيوشه على طليطلة وحاصرتها ، وعاشت في نواحيها ، ووصلت في زحفها إلى المدن في الحدود الشمالية . كما حاصرت قلعة رباح التي تسيطر على الطريق المؤدى إلى مملكة قشتالة (٢١) .

ثم زحفت هذه القوات إلى غرناطة لاتصال أميرها عبد الله بن بلكين بالأسبان ودفع الجزية لهم . فعزلته في عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩١ م كما استوت على البيرة ، وجيان ومالقة ، والمنكب فقضت بذلك على ملك بنى زيرى في الأندلس . وأحس المعتمد بن عباد بالخطر ، فقام بتحصين أشبيلية ، وطلب معونة الأسبان ، فاستفتى المرابطون الفقهاء في خلعه ، فأفتوا بذلك ، واستولت قوات المرابطين على أشبيلية في رجب سنة ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م . كما استولت على قرطبة وقرمونة ورندة والمرية وبطليوس وشلب وبائرة والسهلة ودانية وشاطبة وبياسة وأيده وحصن بليط وشقورة ؛ وأخذوا يهددون بلنسية وغيرها . وبذلك تم توحيد الجبهة الجنوبية في الأندلس تحت حكم المرابطين .

وفى تلك الأثناء ظن الفونسو السادس أن الفرصة مواتية للانتقام لهزيمة الزلاقة فحين استتجد المعتمد بن عباد به أرسل جيوشه بقيادة البرهانس لنجدته ، ولكن المرابطين سارعوا إلى لقاء هذه الجيوش بقيادة الأمير إبراهيم بن اسحق للمتونى ، عند حصن المدور . ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة القوات القشتالية وإيلاتها . وكانت لهذه الهزائم تأثيرها فى اضعاف مملكة قشتالة .

ولم يلبث المرابطون أن تهيأوا لنضال آخر فى شرق الأندلس . وكان الشرق الأندلسى فى تلك الحين قد أوشك على السقوط فى يدى القوى المسيحية بسبب تفتته بين أمراء المسلمين ، استقل كل منهم ببلد أو حصن . وأقام لنفسه دولة متسمياً باسم كبير . فكان هناك من أمثال هؤلاء " تلييد الدولة " ، صاحب لاردة ، " سيد الدولة " صاحب طرطوشة و " حكام الدولة " صاحب شانت بريبة وغيرها من الأسماء كثيرة تحت نفوذ صغار الملوك . ولم يكن بشرق الأندلس من الكيانات الإسلامية الكبيرة غير دولة بنى هود فى سرقسطة . وقد تعاقب عليها ثلاثة أمراء على جانب كبير من الأهمية هم : للمقدّر بالله (٤٤١ - ٤٧٤ هـ) الذى وحد الإمارة وعقد أحلاقاً مع جيرانه الأسبان أعانت دولته على البقاء ، ثم للمؤتمن (٤٧٤ - ٤٧٦ هـ) والمستعين (٤٧٨ - ٥٠١ هـ) وقد تمكن من هزيمة قوات الفونسو السادس أكثر من مرة ؛ كما اكتسب ود يوسف بن تاشفين ، فلم يعزله ، كما عزل غيره من أمراء الطوائف ، بل كتب له خطاب ، أمان من العزل .

على أنه فى تلك الأثناء كانت القوة المسيحية قد أخذت منذ معركة الزلاقة ، تتقدم صوب حوض الإيبرو . وتشد الضغط على بنى هود بسرقسطة ، بينما كانت سفن جنوه وبيزا تغير على موانئ الشرق الأندلسى . ولم يتنبه يوسف بن تاشفين ، الذى كان مشغولاً بالجهاد فى الجنوب ، إلا والخطر قد أحرق بهذا الأقليم ، ليتهدد بلنسية فى الصميم (٢٢) .

وقصة بلنسية تثير فى المؤرخين الإسلاميين كوامن الحزن . لأنها مأساة هزت للعالم الإسلامى فى ذلك الحين ، وأفزعت المسلمين فى المغرب والأندلس . فقد كانت ضحية مؤامرة بين الفونسو السادس والقادر بن ذى النون صاحب طليطلة (التي كان سقوطها سبباً فى استدعاء المرابطين لإنقاذ الأندلس). ذلك أن الاتفاق كان قد تم بين الملك الأسباني وأمير طليطلة على أن يسلمها الأخير له. مقابل تعويضه عنها ببلنسية، بعد انتزاعها من أميرها المسلم عثمان بن عبد العزيز . وقد استطاع الفونسو السادس هزيمة بن عبد العزيز وتولية القادر بن ذى النون عليها رغم إرادة أهلها (٢٣) .

وقد ظل القادر أميراً على بلنسية حتى تقدم المرابطين صوب مرسية واستولوا عليها، وتدفعوا صوب دانية وشاطبة، فأصبحت قواتهم تطأ إقليم الشرق، وتجاور إمارة بلنسية من الجنوب وذلك نشأ موقف جديد .

ذلك أن أهالى بلنسية انتهزوا فرصة وجود المرابطين فى الشرق ، فأعلنوا دخولهم فى طاعتهم ، ثم صاروا على القادر فقتلوه، وولوا عليهم القاضى جعفر بن جحاف، فصار أميراً على بلنسية ورمزاً لتطهير المدينة من الخيانة .

على أن هذه الثورة كانت بمثابة تحدى للقوى الأسبانية التى أعانت القادر بن ذى النون على بلنسية . وقد هبت هذه القوى لإعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه والانتقام من أهل بلنسية ، وكان على رأس هذه القوى فارس أسباني من أشهر من يعتز بهم التاريخ السياسى الأسباني ، ويحيطونه بهالات أسطورية ؛ وهو الذى عرف باسم " السيد القمبيوطر " أو " السيد للقميطور " وكان هذا الفارس هو الذى تصدى له يوسف بن تاشفين .

الأندلس بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور :

على طول ملحمة الصراع بين العرب وأوروبا على المسرح الأسباني برز أبطال عظام أنتجتهم الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والتاريخية التي نشئوا فيها. وقد ظهر هؤلاء الأبطال في كلا الجانبين العربي والأوربي ، على السواء فرأينا في الجانب الإسلامي ، موسى بن نصير ، وطارق بين زياد ، والمسح بن مالك الخولاني ، وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي . وعبد الرحمن الداخل ، والحكم بن هشام الرضوي ، وعبد الرحمن الأوسط ، ثم عبد الرحمن الناصر . والمنصور بن أبي عامر وغيرهم ؛ أما الجانب الأوربي ، فرأينا فيه شارل مارتل ، ويليو وشارلمان وسانشو الكبير وفرناندو الأول والفونسو السادس (٢٤) .

على أن أهم ما اهتم به تاريخ أسبانيا لقومي، وأحاطه بهالات الأساطير، هو من عرف باسم " السيد القمبيطور " . ومن ثم فلا يتأتى أن تعرض بالدرس لتاريخ الصراع بين العرب ولوروبا في الأندلس أن يغفل شأن هذا القاموس لو يهمل أمره، ليس فقط لأنه بطل من أبطال الإسترداد المسيحي لأسبانيا؛ وإنما لأنه قطع شطراً من حياته في القتال في صفوف المسلمين .

والإسم الأصلي للسيد القمبيطور هو لنزيق (رودريجو). وقد تعرف القراء المتابعون لهذه الدراسة على هذا الاسم عند الفتح العربي لأسبانيا لأن صاحبه كان ملك القوط الذي انتزع منه العرب أسبانيا (الأندلس) . ومن هنا نسب المؤرخون إلى الأخير القول بأن الأندلس ضاع على يد لنزيق وسيعود إلى المسيحيين على يد لنزيق آخر . وطبعاً أثبت التاريخ أنه كان فعالياً في التفاؤل، لأنه مات بعد أن أثخنه القتال ، والأندلس مازال في يد المرابطين (٢٥) .

ومن الطريف أن السيد القمبيطور لم يكن ملكاً على أية جهة من الجهات وإنما كان مجرد فارس من الفرسان . ذلك أنه في أثناء الحروب

الطويلة التي دارت بين ملوك أسبانيا النصرانية بعضهم وبين المسلمين ، ظهرت في صفوف جيشهم أو جيوشهم طائفة من الفرسان نوى القدرة والكفاءة الفردية ، ساعدة على ظهورهم ظروف المجتمع الإقطاعي السائد في ذلك الحين ، وقد نسجت حولهم الأساطير . فظهر في الجانب الإسلامي على الحدود الإسلامية في آسيا الصغرى " السيد البطال " وفي المغرب " أبو زيد الهلالي " و " الزناتي خليفة " وفي الجانب الأوربي ، ظهر الإنجليزي جون هوكود ، والأسباني ، ريموند القرطبي ، والقشتالي ، لذريق أو السيد القمبيطور .

وهؤلاء يمثلون مجموعة من القادة المستقلين من الفرسان، منفصلة عن التبعية لملك من الملوك: وتطلق عليهم المراجع العربية اسم " رؤساء الحرب " ويعرفون في المراجع الأجنبية باسم ، كوندتيوري Condottior . وقد كثرت مجموعاتهم في أسبانيا وإيطاليا وفرنسا في العصور الوسطى ، والتحموا بأحد جوانب الصراع بين البابوية والإمبراطورية، وبين المرابطين والممالك المسيحية في أسبانيا . فهم مرتزقة العصور الوسطى.

ولم تعرف أسبانيا نظام الفرسان إلا متأخراً من غرب أوروبا. وقد درج ملوكها على اختيار الفرسان من أبناء المزارعين وصغار الناس ؛ لا من أبناء النبلاء كان الحال في فرنسا مثلاً . ولذلك كان النبلاء يحتقرونهم وكان السيد القمبيطور من أبناء الأصاغر . وقد عاداه النبلاء الفرسان لهذا السبب ، وكان لهذا أثر بعيد في تاريخه.

وقد بدأ القمبيطور حياته في بلاط الملك فردينادو، أو (فرناندو) الأول كفارس من فرسان ابنه الأمير سانشو الذي رسمه فارساً سنة ١٠٦٣م . وكانت قشتالة نذاك في صراع وحروب مع جارتها أرجونة ، فاشترك السيد القمبيطور في هذه الحروب . وعن طريق هذه الحروب المعقدة ، التي أحيانا تأخذ شكل أحلاف مسيحية إسلامية ضد أحلاف مسيحية أو أحلاف مسيحية

إسلامية أخرى . حارب القمبيطور إلى جانب المسلمين في أول معركة ينكرها له التاريخ^(٢١).

ذلك أن دولة بنى هود في سرقسطة آنذاك كانت قد تمكنت من الاحتفاظ باستقلالها عن الحروب والصراعات بين الممالك المسيحية . فدخلت فسي محالفات مع هذا الطرف ضد الطرف الآخر لتضمن الدفاع عنها عند تعرضها لأي هجوم . فقد تحالفت في البداية مع مملكة أرجونة ؛ وكانت تدفع لها الجزية ، ثم تحولت إلى حلف قشتالة - ليون . فتعرضت بذلك لعداء أرجونة . وقد انتهزت هذه الأخيرة فرصة سير فرناندو الأول نحو أشبيلية سنة ١٠٦٣م . فسيرت جيوشها لمهاجمة سرقسطة ، ولكن فرناندو الأول عجل بإرسال ابنه سانشو لمساعدة سرقسطة ، وكان في فرسانه السيد القمبيطور ، فدارت عن بلدة "جرلوس" معركة حامية بين الجيش الإسلامي للمسيحي لسرقسطة وقشتالة . وكان على رأسه المقتدر أحمد بن هود وسانشو والسيد القمبيطور - وبين جيش أرجونة ، على رأسه الملك راميدو أو (رنمير) . انتصر الجيش الإسلامي للقشتالي على جيش أرجونة لانتصاراً كبيراً حتى ليقال إن راميدو قتل في المعركة . وهكذا كان أول قتال للسيد القمبيطور في صفوف المسلمين .

وفي الفترة التالية دخل للصراع بين الممالك الأسبانية وبعضها البعض طوراً آخر ، ذلك أن فرناندو الأول مات بعد معركة جراوس بعامين بعد أن قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة . فتولى سانشو عرش قشتالة ، وتولى الفونسو السادس عرش ليون ، وتولى جارسيا عرش جليقية (غاليسيا) . وسرعان ما نشبت الحرب بين الأخوة ، ولكن سانشو بمساعدة القمبيطور هزم أخويه وضم إليهما أملكهما . ولجأ الفونسو إلى أمير طليطلة المسلم ، المأمون بن ذي النون ، فأكرم لجوءه وعاش عنده مكرماً حتى سنة ١٠٧٢ م .

وقد رد الفونسو السادس على هذا الجميل فيما بعد بالإستيلاء على طليطلة!! ذلك أن وجوده في هذه الإمارة طوال عامين قد مكنه من معرفة

مواطن الضعف والقوة فيها . وقد انتفع بهذه المعرفة عندما آل إليه ملك قشتالة وليون . ففي سنة ١٠٧٢م، قتل سانشو الثانى عند أسوار سمورة . ولم يجد رجال قشتالة وليون بداً من استدعاء الفونسو السادس من منفاه فى طليطلة وتوليته العرش طبقاً للقانون . فاستدعاه القمبيطور ، وجعله يقسم بين يديه فى جمع حافل من رجال قشتالة وليون، أنه لم يكن له ضلع فى قتل أخيه سانشو الثانى . ولكن الفونسو السادس لم يكد يستقر على العرش حتى عزل القمبيطور من قيادة الجيش . لما لاقاه على يديه من الهزيمة أثناء قتاله مع أخيه سانشو الثانى (٢٧) .

ومنذ ذلك الحين أخذ السيد القمبيطور ينزع إلى الإستقلال فى تصرفاته . فمع أن الفونسو السادس ، استبقاه فى خدمته إلا أنه دخل فى الصراع الدائر بين أشبيلية التى كان يحكمها المعتمد بن عباد وبين غرناطة وعلى عرشها عبد الله بن زيرى : وانتصر لأشبيلية على الرغم من أن غرناطة هى التى كانت متحالفة مع الفونسو السادس ، بل حارب فى صف المعتمد بن عباد ضد جيوش بلده قشتالة ، وانتهى الأمر بغضب الفونسو السادس عليه وإصدار قرار بنفيه خارج البلاد (٢٨) .

وقد كان هذا القرار بالنفى قراراً قاسياً ، إذ كان يتعين على المنفى ترك أملاكه والخروج مع أتباعه ومحاولة الالتحاق بخدمة سيد آخر ، وهذا ما فعله السيد القمبيطور . إذ خرج من قشتالة سنة ١٠٨١م . ومعه نحو ٣٠٠ فارس من أتباعه ، وعرض نفسه على المؤتمن يوسف بن هود، أمير سرقسطة ، فقبل . وبذلك بدأت صفحة جديدة فى الصراع المعقد بين الدويلات الأندلسية وبين الدول المسيحية لعب فيها السيد القمبيطور دوراً هاماً . ذلك أن القمبيطور أدى خدمات جليلة لبنى هود طوال السنوات الخمس التى قضاها فى خدمتهم، ولم يتردد فى محاربة أرجونة وبرجلونة لحسابهم . وكانت إمارة سرقسطة حين دخلها القمبيطور بين شقى الرحى بين صاحب كتالونيا وبرشلونة وأرجونة

منجهة ، وبين صاحب قشتالة من جهة أخرى. وقد قاد القمبيطور جيوش يوسف المؤتمن بن هود إلى النصر ، فهزم للكونت رامون برنجار صاحب كتالونيا عند المنارة وأسرّه ، ثم أطلق سراحه ، فعل نجمه وتناقل الناس قصص بطولته وفي الوقت نفسه فإن وجوده في سرقطة جعل الفونسو السادس يتجنب الهجوم عليها لينيقها ما أذاق طيطة فما بعد.

وقد كان أثناء خدمته لبنى هود أن تسمى باسم " السيد " فقد كان أفراد الجيش الإسلامي ينادونه (بياسيدى) وقدمهم في ذلك جنده الأسبان فصاروا يخاطبونه بـ " ميوتيد " Mīocid . أى يا سيدى. فلزمته هذه التسمية من ذلك الحين واشتهر بها في التاريخ ، أما كلمة القمبيطور فقد نالها أثناء مبارزته مع فارس نافارى حين كان في خدمة سانشو ، وفاز بها " كامبيادور " Campeador ومعناها : الفارس النبيل . ومن هنا عرف بالسيد النبيل (السيد القمبيطور) .

وبعد معركة الزلاقة التى انتصر فيها يوسف بن تاشفين على الفونسو السادس سنة ١٠٨٦م. إنتقل السيد القمبيطور إلى الفونسو السادس من جديد، ذلك أن هزيمة الزلاقة هزت نفسه على الرغم من أنه لم يشترك فيها إلى جانب أخوته المسيحيين. فترك خدمة بنى هود، وصالح للفونسو السادس فى أواخر سنة ١٠٨٦ م . وجعله هذا قائداً على فرقة قشتالة مهمتها العمل فى شرق الأندلس . فبدأت مرحلة نضالية جديدة (٢٩).

فقد اتجه السيد للقمبيطور إلى تحقيق أطماعه فى بلنسية متمرداً مرة أخرى على الفونسو السادس وفرض حمايته على القادر بن ذى النون . ولكن أهل بلنسية ، خلعوا القادر وولوا مكانه للقاضى جعفر بن جحاف . فكان فى هذا تحدياً للسيد القمبيطور ، فحاصر المدينة حصاراً شديداً. ولكن المرابطين أرسلوا جموعاً كبيرة تحت قيادة الأمير أبى بكر ابراهيم اللمتوني ، وأدرك القمبيطور الخوف من قوة المرابطين؛ فبعث يستجد بالفونسو السادس ، واقترب المرابطون من بلنسية . وتراعت لأهلها طلائع الإنقاذ فإزداد دفاعهم عن بلادهم.

على أن انسحاب القائد المرابطى على هذا النحو كان سبباً فى سقوط بلنسية فى يد السيد القمبيطور. فقد أيقن أهل بلنسية بالهلاك ، فى الوقت الذى زادت فيه المجاعة داخل المدينة، ولم يجد القاضى بن جحاف بداً من التسليم شرط ألا يؤذى القمبيطور أهل المدينة ، ودخل السيد المدينة فى مايو سنة ١٠٩٤ م ليخطب فى أهلها باللغة العربية ؟! معلناً عزمه على أن يحكم بالعدل والإنصاف" وقررت أقعد لسماع ظلماتكم يومين فى الأسبوع، الاثنين والخميس. وإذا وجد أحداً منكم مظلوماً ، فليأتى أى يوم أراد ، فسيجدنى سميعاً ، ذلك لأتنى لا أنفق وقتى مع النساء أو على الشراب وسماع الغناء كما يسمع ويفعل أصحاب الأمر فيكم ، أولئك الذين لم تكونوا تستطيعون رؤيتهم إذا أمست حاجتكم إلى ذلك . وأريد أن أكون لكم رفيقاً، أحميكم كما يحمى الصديق صديقه والقريب قريبه . ومهما وقع بينكم من منازعات وخصومات فسأقضى بينكم بالحق" (٣٠) .

بهذا الخطاب، أصبح السيد القمبيطور أميراً على بلد إسلامى، وكون إمارة من العسير تكييفها ، فلم يكن رئيس " دولة " لها كيان ونظام، وإنما كان قائد جماعة مرتزقة فيها القشتالى والليونى والمسلم والمسيحى . لم يكن داخلاً فى نطاق دولة كبيرة يعمل لحسابها. بل كان يعمل لحسابه الخاص. وإن كان بعض المؤرخين اعتبره أمير طوائف آخر استبد بناحية بلنسية. وإن كان أميراً مسيحياً وهو أمر فى ذاته طريف فى ذلك العصر الحاوى لكل طريف غريب فى بلاد الأندلس .

ومهما كان الأمر، كان سقوط بلنسية فى يد القمبيطور إيذاناً بمرحلة جديدة بينه وبين المرابطين دخلت التاريخ تحت عنوان : " الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور" ذلك أن صراعاً عنيفاً نشب بين المرابطين فى دانية ومرسلية وبين القمبيطور فى بلنسية. وهو صراع اصطبع بالأساطير . فقد صورت المراجع الأجنبية المواقع التى خاضها القمبيطور على أنها انتصاراً

كلها ، وصورت كفاح المرابطين بأنه هزائم متلاحقة . فقد ذكر المؤرخان بيدال ودوزي أن محمد بن عائشة حاول أن يسترد بلنسية بجيش تعداده ١٥٠ ألف فارس ، وثلاثة آلاف راجل وعسكر عند مدينة كوبرته Cuetra ولكن القمبيطور خرج إليه وهزمه بعد قتال دام عشرة أيام وكبده خسائر فادحة . وقد تصدى المؤرخون العرب لهذه القصة بالشك ، فقد ذكر البعض أنه ليس من المعقول أن يهزم القمبيطور جيشاً قوامه ١٥٠ ألف فارس وثلاثة آلاف راجل من المرابطين ، بقيادة بن عائشة مدوخ الفونسو السادس . وأنه لو حدث ذلك فعلاً ، فما كان الذي يمنع القمبيطور بعد ذلك من الانقضاض على دانية ومرسية ؟ بل وإخراج المرابطين من شرق الأندلس نهائياً وفرض سيطرته الكاملة عليها ؟.

من الواضح أن القوات المرابطية التي اقتربت من بلنسية كانت قوات قليلة العدد بقيادة أحد رجال بن عائشة ؛ بدليل أنه عندما أراد القمبيطور بعد ذلك أن يتوسع خارج بلنسية ، لقيته قوات المرابطين بقيادة بن عائشة ففاوضته وقاومته - كما يقول دوزي نفسه - الأمر الذي يبين أن هذه الحروب كانت مجرد اشتباكات ومناوشات فقط، تبادل فيها الطرفان للهزيمة والنصر ، وليست معارك فاصلة^(٣١) .

فقد حصل القمبيطور على نصر في " بيرين " سنة ١٠٩٤ م . حين سار يوسف بن تاشفين قوة كبيرة من قواته إلى شاطبة شمال مرسية ، ولكن القمبيطور استتجد بملك أرجونة ، وعقد معه تحالفاً واستطاع بفضل هذا التحالف الحاق الهزيمة بقوات المرابطين عند بلدة بيرين Berien ، ثم الاستيلاء على قسبة " مريبطر " سنة ١٠٩٨ م .

على أن المرابطين لم يلبثوا أن انتقموا لهذه الهزيمة بمعركة "كونسويجرا - Consuegra في نفس العام ١٠٩٨م، حين أطبقت قوات محمد بن الحاج على

قوات الفونسو السادس عند هذا الموقع وأنزلت به هزيمة ساحقة وقتلت ديجو ابن القمبيطور ، الذى كان فى التاسعة عشر من عمره ، وملاّت قلب أبيه للمغامر بمرارة الألم الذى لم يعرفه من قبل .

كذلك تمكنت قوات المرابطين من الحاق الهزيمة الثانية بالعدو "القمبيطور" على مقربة من جزيرة شقر Alcira فكانت فجيرة السيد فى ابنه ، ثم هزيمته فى "شقر" من الأسباب التى عجلت بوفاته سنة ١٠٩٩م بعد أن ظل سيد بلنسية خمس سنوات (٣٢).

على أن وفاة القمبيطور أعفته فى الحقيقة من تلقى الصدمة الثالثة بضياح بلنسية ذاتها. إذ سار محمد بن مزلى أعظم قوات المرابطين إلى بلنسية لاستعادتها وقد حاولت "خيمينا" زوجة القمبيطور الدفاع عنها. ولكنها لم تستطع، وبعثت تستجد بالفونسو السادس، فأقبل لنجدتها بقوات كبيرة ، ولكنه عندما رأى حجم قوات المرابطين، أدرك أنه لا فائدة من قتالهم، فانسحبت خيمينا من البلد، وعاد الفونسو السادس إلى طليطلة. وتبينت القوات المدافعة عن المدينة قلة جدوى المقاومة. فأحرقت البلد حتى جعلتها كومة رماد . وخرجت ودخلت قوات المرابطين المدينة فى منتصف رجب سنة ٤٩٥هـ / أوائل يوليو ١١٠٢م ، واعتزلت خيمينا فى دير سانبرودى كاردينا الذى دفنت فيه رفات القمبيطور .

وبانتهاء المرابطين من أمر السيد القمبيطور ، بطل الملاحم الأسبانية . على هذا النحو ، وباستردادهم بلنسية ، بقى أمر الفونسو السادس ملك قشتالة ، وبطل حركة الإسترداد المسيحى للأندلس " وقد كان حظ هذا الملك مع المرابطين هو الهزيمة على الدوام. فقد رأينا هزيمته فى الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م . ومع أن المرابطين شغلوا بعدها بالجهاد فى الشرق الأندلسى ضد السيد القمبيطور ، إلا أنهم لم يغفوا عن أمر الفونس السادس . بل وقفوا له بالمرصاد وبينما كانوا يوطدون أقدامهم فى منطقة مرسلية ودانية . ويتطلعون

إلى استعادة بلنسية ، اشتبكت قواته مع قوات قشتالة عند بلدة "جيان" وأوقعت بالفونسو الهزيمة؛ ومزقت شر ممزق سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م . فكانت زلقة أخرى فى آثارها العسكرية. ثم ألحقت الهزيمة بقوات الفونسو مرة أخرى عند كونيسويجرا - كما ذكرنا - عام ١٠٩٨ م / ٤٩١ هـ. وواصلت انتصاراتها ، فاشتبكت فى معركة حامية مع قوات الفونسو عند كاونكة (قونكة) الذى تسميه المراجع العربية " البرهانس" وهو فارس ليونى كبير (٣٣) .

وفى عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م ، توفى يوسف بن تاشفين بعد أن ثبت لواء الإسلام فى أرض الأندلس ، وأجج للحرب المقدسة التى خبت جذوتها فى عهد ملوك الطوائف ، وأعاد للوحدة الإسلامية التى كانت قد تمزقت . وأعاد الأندلس مرة أخرى إلى القوة فى التعامل مع أوروبا . وكسر المد الإستردادى الذى قادته قشتالة تحت ملكها الفونسو السادس . وأضعف مملكته . ولكنه لم يقدر له أن يرى نهاية عدوه الفونسو السادس . بل قدر لولده على يوسف بن تاشفين أن يجنى ثمرة هذا النضال وهو ما حدث عن أقليمش . فلم يكد يوسف بن تاشفين يختفى من المسرح السياسى ، حتى ظن الفونسو السادس أن انتصار المرابطين كان بسبب يوسف بن تاشفين ، وليس بفضل النظام السياسى والاجتماعى الذى أرسوه فأخذ يتجراً على الحدود .

على أن على يوسف بن تاشفين ، بعد تلقيه البيعة فى المغرب ، سارع إلى الانتقال بسرعة إلى الأندلس لاشعار العدو بأنه قائم فى الميدان ، وأسند أمر الأندلس إلى أخيه أبى الطاهر تميم ، وأمره بالغزو .

وقد اختار أبو الطاهر حصن اقليمش الذى كان العدو قد استولى عليه فى أعقاب استيلائه على طليطلة من يد أسرة ذى النون . وكان هذا الحصن قد سقط فى يد العدو مع أكثر الحصون الداخلة فى حوزة طليطلة . وقد اتجه إليه الطاهر فى ١٠ رمضان وضرب الحصار حوله فى ١٤ شوال وشلّت المفاجأة

العدو ، فانهارت مقاومته . واقتحم المثلثون السور ودخلوا المدينة، وسارع فرسان العدو إلى الاحتماء في قصبة المدينة .

وقد لعب " المدجنون " (وهو الاسم الذى يطلق على المسلمين الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى فى الأراضى الأندلسية المحتلة . ويقابل الاسم الذى يطلق على المسيحيين الذين كانوا يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية فى الأندلس وهو اسم " المستعربين " لعبوا دوراً هاماً فى مساعدة القوات المرابطية . كما كان يفعل المستعربون فى مساعدة القوات المسيحية فى حركة الإسترداد الأسبانية (٢٤) .

وعندما علم الفونسو السادس بسقوط مدينة إقليش، حشد قوات كبيرة استعداد بها لإنقاذ واسترداد المدينة. ولكن فتى صغيراً من المدجنين، كان أسيراً، هرب إلى جيش أبى الطاهر، وأبلغه بأخباره . وهنا كما يقول الأمير أبو الطاهر تميم فى رسالته إلى أخيه على بن يوسف بن تاشفين . " استدنييت القائد بين المجريين ابن عائشة وابن فاطمة وعبأنا الجيش ، وتحركنا مع الفجر يوم الجمعة، وكان العدو فى دروع كالبرارى ، ورماح كالصوارى كأنما سجنوا فى الحديد واشتبكت الطوالع ، ثم تواقف القوم فبرز فارس من العرب ، فطعن فارساً منهم ، فأنراه من مركبه . ثم اختلطت الخيل فما نجا من العدو إلا أقلهم، وملأنا الأيدى بالسلب خيلاً وبغلاً وسلاحاً ومالاً ، مما طرحه العدو ساعة الفرار ، أما الحامية التى اعتصمت بالمدينة فأنها استسلمت بحيلة دبرناها وأخذناها وقتلناهم.

كانت موقعة إقليش زلقة أخرى بطلها الأمير أبو الطاهر تميم، وهى تشبه واقعة كونسويجرا فى تأثيرها على الملك الفونسو السادس (٢٥).

وهكذا بعد أن افتتح يوسف بن تاشفين عهده بهذه الانتصارات الرائعة. وثبت هبة الدولة المرابطية، بعد أن كان العدو الأسباني يتوقع زوالها. واصل

أبنائه من بعده هذه الانتصارات أبو الطاهر يوسف ، وعلى يوسف على العدو الأسباني في الأندلس .

على أن خطورة انتصارات المرابطين في المغرب الإسلامي (أى بلاد الأندلس) هى أنها تمت فى مناخ اندلاع ما اصطلح عليه المؤرخون بـ "الحروب الصليبية" التى اشتعلت فى المشرق الإسلامى فى ذلك الحين . فاعادت التوازن إلى ميزان القوى إلى حين .

الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية :

إذا كان الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس قد انتهى بهزيمة مسيحيوا الأندلس على يد الطاهر بن يوسف بن تاشفين أواخر القرن الخامس الهجرى، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (٤٩١هـ — ١٠٩٨م) واستقر الوضع فى الأندلس بنجاح المرابطين . فإن الغرب الأوربى قد نقل دائرة الصراع إلى الشرق فى بلاد الشام تحت شعار "الحرب المقدسة" والتى عرفها المؤرخون بـ " الحروب الصليبية" ولسنا هنا بصدد متابعة هذه الحروب فى الشرق ولكن نتناول مايسمى بالحروب الصليبية فى بلاد الأندلس . وهى لا تتفصل أبداً عن دائرة الصراع بين المسلمين والغرب الأوربى ، فأى مكان أو زمان فهو صراع بين المسلمين والأوربيين مع اختلاف التسمية لهذه الحرب أو تلك .

ففى الوقت الذى كنا نتحدث فيه عن أحوال المسلمين فى الأندلس وصراعهم مع القوى الأوربية هناك . فإننا الآن نتناول هذا الصراع تحت اسم " الحروب الصليبية ضد المسلمين فى الأندلس" .

فلم تعبر الروح الصليبية عن نفسها تعبيراً عملياً فى الشرق الأدنى فحسب ، بل ظهرت هذه الروح العدائية ضد المسلمين فى المغرب (أى بلاد الأندلس) أيضاً حيث دارت منذ القرن الحادى عشر الميلادى - كما أسلفنا -

حرب بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين من الأندلس .

ومن الملاحظ أن المؤرخ ابن الأثير، قد ربط بين الحرب الصليبية في الشرق وبينها في الأندلس، مما يوضح أن هذا المؤرخ الواسع الأفق ربط ربطاً قوياً بين أطراف الحركة الصليبية في أسبانيا وصقلية وشمال أفريقيا والشام .

والواقع أن استيلاء المسلمين على أسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادي وإقامة دولة إسلامية قوية بها ، كان أمراً لا يمكن أن تقبله الكنيسة الغربية أو شعوب أوروبا المسيحية . فأسبانيا كانت من أولى البلاد الأوروبية التي وصلتها للمسيحية، وظلت تحتل مكانة كبيرة في العالم المسيحي الغربي بفضل ما صار فيها من أماكن مقدسة في نظر المسيحيين يحجون إليها من مختلف أنحاء العالم الأوربي الغربي لذلك ظلت القوى المسيحية في غرب أوروبا تتحين الفرصة المناسبة لاسترداد هذا الجزء المفقود من الوطن المسيحي . وحسبنا ما قام به شارلمان في حرب ضد المسلمين في أسبانيا في أواخر القرن الثامن الميلادي/الخامس الهجري. وهي الحرب التي حرصت أغنية رولان في القرن الحادي عشر الميلادي على إكسابها طابعاً صليبيّاً واضحاً (٣٦) .

والملاحظ أن المسلمين في الأندلس، لم يستطيعوا مطلقاً في وقت من الأوقات أن يسيطروا سيطرة تامة على شبه جزيرة أيبيريا : وإنما ظلت بعض الجهات وبخاصة في الشمال الغربي خارجة عن نفوذ المسلمين، فقامت بها أربع دويلات مسيحية هي : مملكة ليون ومملكة نافاري، وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة (٣٧) . ومن هذه الوحدات المسيحية انبعث الخطر الذي ظل دائماً يهدد المسلمين في الأندلس . في الوقت الذي تدهورت فيه الخلافة الأموية في قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣١م ولم يلبث أن وصل التوسع المسيحي على حساب المسلمين في الأندلس درجة خطيرة في عهد الفونسو السادس -

كما أسلفنا من قبل - وهو ملك ليون وقشتالة (١٠٥٥ - ١١٩٠) وهو الذى أوغل فى وادى نهر تاجة حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥ م، وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معاقلهم فى الأندلس^(٣٨).

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥ م دوى هائل فى أرجاء العالم المسيحى الغربى. إذ استثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من أسبانيا . أما فى الجانب الإسلامى، فإن ضياع تلك المدينة ، التى هى من أهم البلاد وأحصنها^(٣٩) هز المسلمين جميعاً فى المشرق والمغرب . وجعل مسلمى الأندلس يفكرون فى طريقة فعالة لوقف الخطر المسيحى من ناحية ، واسترداد ما فقدوه من أراضى وبلاد من ناحية ثانية. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف فى الإستعانة بالمرابطين - كما ذكرنا آنفاً - فى شمال أفريقيا .

وإذا كنا قد توقفنا باستيلاء المرابطين على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة. فإنه بزوال دولة المرابطين من شمال أفريقيا وحل محلها دولة الموحدين؛ فإن الموحدين قد فكروا بوصفهم ورثة المرابطين فى ضم الأندلس إلى ملكهم، واستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح فى ذلك سنة ١١٤٦م^(٤٠) .

وفى ذلك الوقت كان المسيحيون فى أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً فى شخص ألفونسو الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤م) وقد استطاع ألفونسو الأول هذا أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين فى الأندلس حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة ١١٣٤م عندما كان يستعد على رأس حملة لمواجهة المسلمين^(٤١). ولم تقتصر جهود المسيحيين فى تلك الفترة على ما قامت به أرغونة وملوكها ، إذ استطاع ريمون برنجار الرابع ، كونت برشلونة ، أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨م . أما فى الجهة الغربية ، فقد تمكن ألفونسو الأول ملك البرتغال من التوغل داخل الأراضى الإسلامية وراء نهر تاجة^(٤٢) .

وثمة أهمية خاصة تسترعى الانتباه ، للجهود الصليبية التي قام بها الفونسو الأول هذا ضد المسلمين بالأندلس ، وهو أنه استعان سنة ١١٤٧م/ ٥٤٣ هـ بأسطول صليبي يحمل جماعة من الأنجليز والفلمنكيين والألمان كانوا في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية ، فاستوقفهم الفونسو الأول ، وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التي غدت عاصمة مملكة البرتغال الناشئة^(٤٣) . وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية لذلك العصر على المشرق الإسلامي والأراضي الفلسطينية ، بل شمل أيضا بلاد المغرب وأسبانيا ، فأسهم الصليبيون الفرنسيون والألمان والأنجليز في فتح لشبونة . كما اشترك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس . هذا في الوقت الذي مد فرسان الداوي والإسبترارية نشاطهم إلى وادي نهر ابرو في أسبانيا فضلاً عن بلاد الشام^(٤٤) . ولم تلبث هيئة الرهبان السسترثيان أن أقامت لنفسها مركزاً في أسبانيا سنة ١١٤٩م/ ٥٤٥ هـ . حيث قامت قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من ناحية ولحرب المسلمين من ناحية ثانية ، ثم تكاثرت بعد ذلك في أسبانيا المنظمات الدينية ذات الصبغة العسكرية ، مثل هيئة (ست يوحنا) أو ست جوليان) التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢م / ٥٤٧ هـ . والتي اتخذت بعد ذلك سنة (١٢١٨) اسم منظمة القنطرة ؛ وذلك عندما استولى المسيحيون على بلدة القنطرة الواقعة على نهر تاجة ، واتخذها أولئك الفرسان مركزاً لنشاطهم الديني والعسكري^(٤٥) .

ولم تتردد البابوية في تشجيع تلك المنظمات الدينية التي نهضت في أسبانيا بالدور نفسه الذي قامت به هيئة الداوية والإسبترارية والتيتون في بلاد الشام . بل إن الفضل يرجع إلى البابا إسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفت أسبانيا وهي منظمة سننجاو .

وبفضل نشاط هذه الهيئات وجهودها إشتدت حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس ، كما أخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل

منها حرباً صليبية مقدسة - في نظر الأوروبيين - لا تقل أهمية في نظر الأوروبيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة في المشرق الإسلامي^(٤٦). وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين في أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه حرب محلية متفرقة بين حكام المسلمين والمسيحيين ، وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين. ظلاً يتقاسمان النفوذ ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوربا طوال عدة قرون (الأندلس) ^(٤٧) .

وفي هذه الحروب أظهر الموحدون (ورثة المرابطين) مقاومة عنيفة حتى أنزلوا هزيمة ساحقة بالفونسو التاسع ملك قشتالة سنة ١١٩٥م / ٥٩٠هـ في موقعة الأرك^(٤٨) . على أن البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨-١٢١٦م) وهو صاحب الفضل في إثارة الحملة الصليبية في أسبانيا وتشجيع المتطوعين من أهالي البلاد الغربية على المشاركة في الحرب الدينية . ضد المسلمين - لم يستطع أن يسكت على هزيمة الأرك . ولم يلبث هذا الباب أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس ، فاجتمع عدد كبير من فرسان أوربا للمشاركة في تلك الحرب تحت زعامة رئيس أساقف ناربيون^(٤٩) . وكان أن تضافرت في تلك الحرب جهود ملك أرغونة وملك نافاري ، وملك قشتالة ، مما ساعد على انزال هزيمة كبرى بالموحدين في موقعة العقاب سنة ١٢١٢م^(٥٠) . ولم تقيم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس . وأخذت المدن والمعقل الإسلامية في أسبانيا تتساقط الواحدة بعد الأخرى في قبضة المسيحيين ، بحيث لم يتبق للمسلمين في أسبانيا عند منتصف القرن ١٣ م سوى مملكة غرناطة الصغيرة في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة الأيبيرية . وفي تلك الرقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر ، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان بلغت نحواً من قرنين ونصف^(٥١) .

على أن حركة التوسع المسيحي في أسبانيا أخذت تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين في القرن الثالث عشر الميلادي ؛ فلم يكد فرديناند الثالث ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٢م) يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠م ، حتى فتح قرطبة ، المقر الرئيسي السابق للخلافة الأموية بالأندلس سنة ١٢٣٦م . وحوّل جامعتها إلى كتدرائية^(٥٢) . وفي سنة ١٢٤٤م استولى فرديناند الثالث على أشبيلية من المسلمين ؛ كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠م ، وبذلك وصل إلى شاطئ المحيط الأطلسي في حين استولى خليفته الفونسو العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦م بمساعدة جيمس الأول ملك أرغونة^(٥٣) . هذا في الوقت الذي وصلت فيه البرتغال سنة ١٢٦٢م إلى حدودها الحديثة ، بعد أن انتزعت إقليم الجرف (الغرب) من المسلمين .

وهكذا لم يبق للمسلمين سوى مقاطعة غرناطة - كما أسلفنا - ولم تلبث أن تعرضت مملكة قشتالة للضعف في أواخر القرن الثالث الميلادي ، فجاء ذلك مشجعاً للمسلمين في محاولة لاسترداد سلطانهم المفقود . بالأندلس . وكان أن عبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير ، حيث انضم إليه أمير غرناطة وأخذ المسلمون يحاصرون طريف^(٥٤) وهنا أحست قشتالة بالخطر ، فأسرع ملكها الفونسو الحادي عشر (١٣١٢-١٣٥٠م) إلى تهدئة الموقف الداخلي في بلاده ، ثم تقدم سنة ١٣٤٠م لحرب المسلمين ، فنجح في أنزال الهزيمة بهم ، واستولى على بعض معقلهم ، مما جعل أمير فاس ينسب إلى أفريقية^(٥٥) .

وكان الفونسو الحادي عشر يطمع في الإستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول أمدادات في المستقبل من مسلمي أفريقية إلى أخوانهم في غرناطة . ولكن الوباء الأسود الذي انتشر في أوروبا سنة ١٣٥٠م والذي شل حركة الحكام والمحكومين ، حال دون تنفيذ ذلك المشروع .

وإذا كان المسلمون قد وجدوا في ضعف قشتالة منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ضماناً لبقائهم في غرناطة. حيث ظلوا قابعين في تلك الركن الجنوبي من شبه الجزيرة يسالمون جيرانهم المسيحيين ، ويدفعون لهم الجزية ، اتقاء خطرهم ، فإن الموقف تبدل بعد توحيد قشتالة وأرغونة وزواج فردناند الكاثوليكي ملك أرغونة (١٤٧٩ - ١٥١٦) من إيزابيلا ملكة قشتالة (١٤٧٤ - ١٥٠٤). ويبدو أن مسلمي غرناطة في القرن الخامس عشر ، غرهم الهدوء النسبي الذي ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم المسيحيين فانقسموا على أنفسهم، وبددوا جهودهم في محاربة بعضهم بعضاً دون أن يعملوا حساباً للقوة المسيحية الموحدة التي قامت على حدودهم . وفي الوقت الذي اشتد النزاع في غرناطة بين أبي عبد الله الزغبي من ناحية ، وأبيه أبي الحسن وعمه الزغل من ناحية أخرى ، حتى ارتقى أبو عبد الله الزغبي بين أحضان المسيحيين وقصد قرطبة حيث تحالف مع فردناند الخامس وإيزابيلا ، في ذلك الوقت كان الملكان الكاثوليك - فردناند وإيزابيلا يعدان العدة لطرد المسلمين نهائياً من غرناطة^(٥٦).

وأخيراً بدأ الهجوم المسيحي على غرناطة سنة ١٤٨١م ، فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى في أيدي المسيحيين . ولم يتحرج أبو عبد الله الزغبي في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ المسلمين في الأندلس من مخالفة الأعداء وإحباط الجهود التي بذلها عمه الزغل في مقاومة النفوذ المسيحي^(٥٧). وكان الأوروبيون قد تعلموا من العرب استخدام البارود والأسلحة النارية؛ فلجأ المسيحيون في أسبانيا إلى طعن المسلمين بسلاحهم، واستخدموا ذلك السلاح الجديد في انتزاع حصن لورة ثم لوثة من المسلمين. أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل شجاعة قائدها حامد الزغبي؛ فلجأ المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها؛ وحضرت إيزابيلا بنفسها لتثير الشجاعة في قلوب رجالها، حيث نفذت الأقوات في المدينة

فاستسلمت للغزاة المسيحيين^(٥٨) وفي سنة ١٤٨٨م جدد فرناند هجماته على المسلمين فهاجم "بسطة" التي استمرت تقاوم الحصار ستة أشهر أنزلت فيها خسائر جسيمة بالمهاجمين حتى سقطت أخيراً سنة ١٤٨٩م^(٥٩).

وبسقوط "بسطة" أدرك الزغل أنه لافائدة من المقاومة، وأن دولة المسلمين بالأندلس زالت ، فعبر البحر إلى فاس حيث أساء إليه سلطانها وعذبه تعذيباً وحشياً، ثم سمل عينيه وتركه يهيم في الأرض شريداً^(٦٠).

ولا زالت غرناطة تقف وحدها بأيدي المسلمين ، وأخذ أميرها أبو عبدالله ينتظر الدائرة، التي لن تلبث أن دارت عليه ، وكان الزغبي أضعف من أن يواجه جيوش فرناند وإيزابيلا - حليفه القديمين - ولكن أهل غرناطة بزعماء الفارس موسى بن أبي الغسان صمموا على المقاومة، حتى اضطرت غرناطة إلى إلقاء السلاح قرب نهاية ١٤٩١م ، بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط محيط المسلمين، وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة المزعومة من ممالك مصر، أو سلاطين العثمانيين^(٦١). وبذلك زالت دولة الإسلام في أسبانيا.

وهنا نؤكد أن تلك الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا إنما كانت في حقيقة أمرها حلقة أخيرة في سلسلة الحروب الصليبية التي شنها الغرب الأوربي على المسلمين في الشرق والغرب على السواء^(٦٢).

وهكذا أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشي الذي حل بمن بقي في البلاد من المسلمين . ولم تنته هذه الموجة إلا في القرن السابع عشر ، بعد أن عذب من المسلمين من عذب، وشرد من شرد ، وقتل من قتل . حتى لقد ثبت أن جملة من نفى من مسلمي الأندلس عقب سقوط غرناطة ، بلغت ثلاثة ملايين نسمة. وأغلق الستار على الصراع الصليبي الإسلامي في الأندلس على هذا النحو .

هوامش الفصل الرابع :

- (1) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 425 .
وراجع : لين بول ، العرب في أسبانيا، ص ١٥٤ .
- (2) Dozy . op. cit , p. 511 .
وراجع أيضاً : سعيد عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٢٢ .
- (3) Dozy . op. cit , p. 139 .
وراجع أيضاً : لين بول ، المرجع السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ .
- (٤) ابن عذاري ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢ . وانظر :
السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد
الثالث، العدد الأول، مايو ١٩٥٠ ، ص ٥٩ - ٦١ .
- (5) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 438 .
وراجع أيضاً : عاشور، المرجع السابق، ص ٥٢٨ .
- (6) Barker, the European Inheritance, Vol, I, pp. 376 – 377.
- (7) Painter , A Hist. of the Middle Ages, p. 193 .
وانظر : عاشور، المرجع السابق، ج ١ ، ص ٥٣٠ .
- (8) Tout , the Empire and the papacy, pp. 466 – 467.
- (9) Chapman, A Hist . of Spain, p. 58 .
وانظر : أحمد مختار العبادي ، في تاريخ المغرب والأندلس ، (عصر ملوك
الطوائف) .
- (10) Tout op. cit, pp. 367 – 368 .
- (11) Watts, Spain, London , 1893 , pp. 67 – 68.
وراجع: عاشور، المرجع السابق، ج ١، ص ٥٣٣ .
- (12) Cam. Med Hist. Vol. 6 , p. 393 .

- وانظر : أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، (عصر ملوك الطوائف) .
- (١٣) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ص ١١٨ - ١١٩ . وابن عذاري المصدر السابق ، ج ٢ ، ٧٥ - ٧٧ .
- (14) Dozy . op. cit , pp. 694 - 695 .
- وراجع: عاشور ، المرجع السابق، ج ١ ، ص ٥٣٣ .
- (15) Watts, Op. cit, p. 67.
- (16) Chapman, op. cit. pp. 70 - 71, and See am. Med. Hist, vol, 6, 393.
- (١٧) محمد عبد الله غنان وتحقيقه لكتاب ابن الخطيب (الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول ، القاهرة، ١٩٧٣م ، ص ١٣٤ .
- (١٨) محمد عبدالله غنان ؛ دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الأول، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٢٤٣ وما بعدها .
- (١٩) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٢٣ - ٢٢٥ . وراجع أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ص ١٢٩ - ١٣٠ وما بعدها .
- (20) Watts , op. cit, p. 105 .
- (21) Stephenson; Portugal , pp. 18 - 19.
- وراجع: عاشور ، المرجع السابق، ج ١ ، ص ٥٣٦ .
- (22) Panter, A Hist of the Middle Ages, pp. 193 - 194.
- (٢٣) المقري ، نفح الطيب ، المجلد الثاني ، ص ١١ - ١٣ .
- (٢٤) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٩ ، وراجع أحمد مختار العبادي، المرجع السابق ، (مرحلة الصراع بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور .

(25) Huici Miranda, A; Histoire musulmana de Valencia Ysuregion. Tomo, II, P.7, Ynota I.

(26) Alfonso El Sabio; primera Cronica general de Espana tomo, II, publicadopor Ramon Menendez pedal, Madrid, 1955, 562.

(٢٧) كمال السيد محمدأبو مصطفى ؛ تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية حتى سقوطها في أيدي المرابطين، رسالة ماجستير غير منشورة، اشراف الدكتور السيد عبد العزيز سالم، كلية الآداب-جامعة الاسكندرية، ١٩٨١م، ص ١١٧-١٢٧ .

(٢٨) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث ،المجلد الأول ،الدارالعربية للكتاب ، ليبيا- تونس ١٩٨١ ، ص ٩٧- ٩٩ .

(٢٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٤ ، ص ٣٢ ، ١٤٩ . وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٤.

(30) Menendez Pidal ; op. cit ,pp. 428 – 429.

(٣١) ابن عذارى ، جـ ٤ ، ص ١٥٠ ، اعمال الإعلام ، القسم الأندلسي، ص ٢١٣ .

(٣٢) محمد عبد الله عنان ، دول للطوائف، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ . وراجع: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٣ .

(33) Cam. Med Hist. Vol. 3 , p. 394 .

وانظر: سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٤ .

(٣٤) أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، (حالة الصراع بين الموحدين والسيد القمبيطور) .

(٣٥) ابن الخطيب ، الإحالة فى أخبار غرناطة، م/ انجقيق محمد عبد الله عنان،
لقاهرة، ١٩٧٣م ، ص ١٣٤-١٣٧.

(٣٦) : سعيد عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٩٢-١٩٣. جـ ٢،
ص ٢٤٨.

(37) Tout , The Empire and the papacy, p. 366 .
وراجع ، عاشور، المرجع السابق، جـ ١، ص ٥٣٧.

(38) Dozy, Spainsh Islam , pp. 569- 592 .

(39) Champ. A Hist of Spain p. 72.

(٤٠) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٤٧٨هـ .

(41) Cam. Med Hist. Vol. 6 , p. 407 .

(42) Tout , op.cit, p. 470 .

(43) Stephenson , Portugal , pp. 18- 19 .

(44) Panter ; A History of the Middle Ages,P. 194.

ونظر، عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١، ٥٣٤، نفسه " الحركة الصليبية ،
جـ ١، ص ٧٢.

(45) King ; The Knights Hospitallers in the Holy Land, p.133.

(46) Tout , op. cit , 470 - 471.

وراجع، عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١، ٧٣.

(47) Chapman , op. cit , pp. 94 - 95 .

(48) Tout , op. cit ,p. 471.

(49) Com . Med. Hist. Vol, 6, 409 .

(٥٠) د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، السياسة الصليبية للبابا أنوسنت
الثالث ، الاسكندرية ، ط ٢٠١٠م .

وراجع : Panter , op. cit, p. 105.

(51) Com . Med. Hist. Vol, 6, 416 .

(٥٢) لين بول :العرب فى اسبانيا ، ص ١٨٤ - ١٨٥

وراجع ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٧٤.

(53) Tout The Empire and the papacy p . 473.

(54) Com . Med. Hist. Vol, 1, p. 415 .

(55) Lodge, The Close of the Middle Ages , p. 471.

(56) Watts , Spain , pp. 182 – 183 .

(٥٧) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٥٦٥.

(58) Cam . Op. Cit , pp. 290 – 297.

(59) Ibid . Vol , 6, p. 489 , and See, Watts, op. cit, pp. 297 – 298.

(60) Cam. Med. Hist .Vol, 6,p. 489 .

وانظر ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ج ٢ ، ص ١٢٥٦.

(٦١) لين بول :العرب فى اسبانيا ، ص ٢٠٥ .

وراجع ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٢٥٦.

(٦٢) لين بول : العرب فى اسبانيا ، ص ٢١٣ .

الفصل الخامس

حضارة الأندلس الإسلامية

- تمهيد
- اختلاف الآراء بين المؤرخين حول أصول الحضارة الإسلامية.
- تصدى العرب للدفاع عن عروبة الأندلس .
- تقسيم المؤرخين للحضارة الإسلامية في الأندلس، إلى ثلاث مراحل تاريخية.
- اللغة العربية والقرآن الكريم كأساس في الحضارة الإسلامية.
- مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس .
- ١ - مجال التشريع - القضاء في الأندلس .
- ٢ - المجال الأدبي (الشعر، النثر ، المطبوعات) .
- ٣ - الحياة التربوية والتعليمية في الأندلس .
- ٤ - في مجال العمران .

إن الحديث عن حضارة الإسلام في بلاد الأندلس يجعلنا نقف على طبيعة بلاد الأندلس قبل دخول الإسلام فيها، وكيف كانت تعيش هذه البلاد، في شكل إمارات وممالك مسيحية متجانسة في بعضها ومتنافرة في البعض الآخر، وكان يسودها نظام الإقطاع الظالم في قوانينه وتشريعاته، التي تجعل من السيد سيداً ومن للعبد عبداً، حتى أننا عند تعرضنا لتناول تاريخ أسبانيا على نحو ما مرّ بنا في الفصول السابقة وجدنا جيش المسلمين لم يعاني كثير في فتح هذه البلاد من جنوبها إلى شمالها ومن شرقها إلى غربها باستثناء بعض الممالك المسيحية، خاصة تلك التي كانت في الشمال والشمال الغربي على وجه التحديد.

وعتماً دخل الإسلام بلاد الأندلس، وساد نظام الإسلام السياسي والديني والاجتماعي رأى أهالي الأندلس أن حياتهم في كنف الإسلام أفضل لهم بكثير من حياتهم في كنف نظام إقطاعي فاسد ظالم، ولتفتح الأندلسيون بهذا الدين الجديد فدخل فيه أعداد كبيرة اعتنقوا الإسلام عن رضا نفس وراحة ضمير.

ولعل ما دفع الأندلسيين إعتناق الإسلام والترحيب به في معظم بلاد الأندلس يرجع إلى أسس ومقومات هذا الدين القائم على العدل والرحمة والمساواة وتسامح بين الناس. وهذا ما جعل الإسلام يبقى في الأندلس كنظام سياسي ثمانمائة عام نعم فيه الأندلسيون بحياة كريمة وظف الإسلام في الأندلس حضارة لازال العالم الإسلامي وغير الإسلامي يتغنى بها حتى اليوم في شتى مناحي الحياة.

لقد ارتفع الأندلس حضارياً في العصور الوسطى إلى درجة كبيرة، عالية المستوى عما كانت عليه قبل دخول الإسلام فيها. حضارة إسلامية في الأندلس، اعترف بها الأصدقاء والأعداء على حد سواء. فهي الأندلس التاريخ وهي الأندلس الحضارة وهي الأندلس المفقودة وهي الأندلس الموجودة، وهي أيضاً في نظر المؤرخين الأسبان: هذا الأندلس، مركز وفنار أشرق ذات يوم،

وكانت إشرافاته مطمح الأطماع، ومحط الأبصار، النهمة الجامعة إلى العلم، بل في أى فرع من فروع المعرفة. "آه. كم كانت هذه الفترة زاهية ومقدسة"^(١).

ولا أهداف إلى حصر ما قبل في هذه الحقبة التاريخية لأن ذلك ليس سراً^(٢) بل هو شائع في كافة الكتابات المتعلقة بهذا العصر الإسلامى فى الأندلس الذى امتد طوال ثمانمائة عام تقريباً (١٣٨هـ / ٨٩١هـ). وإنما السر الحقيقى، هو ذلك التنازع والخلاف فى تحديد الأسباب والعوامل التى أدت إلى قيام هذه الحضارة. وليس ذلك بالأمر الشاذ، فالحضارة الأندلسية بما سطرته على جبين التاريخ سواء فى مجال الكم أو الكيف جديرة بأن تثير الخلاف بين المؤرخين، وأن تبعث على الجدل والنقاش الدائمين، وذلك أيضاً أحد أسرار عظمتها الخالدة.

يضاف إلى ذلك النهاية المأسوية التى أطاحت بهذه الحضارة بأن سكبت المزيد من الزيت على نار الآراء المشتعلة، وفتحت منابر وصنابير عدة من الأبحاث والدراسات التى تناولتها.

إنصبت جهود الباحثين والدارسين فى مجال الحضارة الأندلسية على إبراز أصولها. ودرجة تطورها وكذلك علاقتها بالثقافة والحضارة القوطية والرومانية. ومدى صلتها بالثقافة الشرقية، ودورها التأثيرى على الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى، ومدى التأثير فيما بعد على النهضة الأوربية الحديثة. وفى كل مجال من هذه المجالات تباينت آراء العلماء واختلفت، وحاول كل منهم تأييد وجهة نظره التى يجذبها فالمستشرقون عامة، والأسبان منهم خاصة، يحاولون إضفاء دور هام للأحوال الثقافية والحضارية السائدة فى أسبانيا القوطية، كما يحاولون أسناد دور أساسى فى هذه الحضارة إلى العوامل البيئية الأسبانية إلى حد التطرف الذى يقلل من شأنها، إن لم ينكر دور العرب المسلمين فى صنع هذه الحضارة.

ويزداد الحديث في أسبانيا يوماً بعد الآخر عن أهمية الفترة السابقة على عصر الرومان والقوط في بناء الحضارة الإسلامية في الأندلس . ويؤكد ذلك - على سبيل المثال - الدكتور / سلفادور غوميس - دون الاعتماد على وثائق واضحة : فيقول خلال حديثه عن الفلسفة الإسلامية : " ليس من البسهل على الإطلاق الإشارة إلى وثائق تاريخية للدلالة على هذا التأثير بالنسبة للفلسفة الأسبانية الإسلامية . وذلك لسببين رئيسيين هما : الإهتمام المتزايد لعدد كبير من المؤرخين العرب لإخفاء ما في أصولهم وكتاباتهم مما يرجع لأسبانيا قبل الإسلام ، وذلك بغرض عدم إثارة الشك حول معتقداتهم وأفكارهم . ومن هنا فإن اجتهادهم في الصمت عن كل ما هو أسباني أصلاً في كتاباتهم ومعتقداتهم يعتبر شيئاً بديهياً " .

أما السبب الثاني : فإنه يأتي من أن الكثير من المصادر الثقافية الإسلامية تتحدث عن أسبانيا، لا عن الطريق المباشر للأسبان - ولكن عن طريق مصادر شرقية استطاعت أن تنقل هذه الأفكار في مضمون ثقافي مختلف عن الأسباني . بمعنى أنه أصبح من الصعب جداً - على سبيل المثال - التفريق بين ما خلفه الرومان في الحضارة الإسلامية عن طريق بيزنطة، أو عن طريق المستعمرات الرومانية الموجودة في أسبانيا (٣) .

ويواصل نوغاليس عرض أفكاره قائلاً : إذا كان قد سمح بالقول بأن حضارة أسبانيا الإسلامية تتمتع بصفات خاصة ، وشخصية مستقلة ، فعلى أن نحلل إلى أي مدى تأثرت هذه الشخصية بالعوامل البيئية المحضة، أو بالمناسخ الذي ربطها بأناس نوى سجايا مختلفة، ويذهب في هذا إلى الاستشهاد بما قاله سانشيث البرنوس في كتابه "أسبانيا قبل الإسلام - أسبانيا الإسلامية" والذي عرض فيه أعداد العرب الذين قدموا إلى شبه جزيرة أيبيريا في بداية الأمر حتى يصل إلى قول المؤرخ الأسباني P. Perez بأنه " لم يدخل في التركيب الاجتماعي للمسلمين الأسبان من العناصر العربية الأصلية إلا جرعات متناهية

فى الصغر^(٤) ثم يواصل نوغالىس حديثه إلى أن يختمه بعبارة سانثيث القائلة: "نتيجة لهذا فمن المفروض أن التأثير العربى فى العادات والثقافة كان سلبياً خلال عشرات وعشرات السنين فى بلد كاسبانيا ذات الأصل والحياة والثقافة الغربية^(٥) .

وما يتعلق بفكرة الأصل الأسباني لمسلمى الأندلس ، يقول جوليان ريبيرا J.R. "أن العرب الذين دخلوا شبه جزيرة أيبيريا أيام الفتح ، إنما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كآسرى . وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل . وكانت الأسبانيات الجانب الآخر فى تكوين ذلك الأسر - وانجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربى ولى الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير ، مما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالأسبانيات . وليس من المبالغة القول بأنه قد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية فى الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات ، وإذا كان الولد - فى الحقيقة - ابناً لأبيه كما هو ابناً لأمه ؛ وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه ، كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك ؛ أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا فى الجنس الأسباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربى تمتزج بدمه الأسباني ، الذى يكاد يكون خالصاً " ^(٦) .

ويتصدى المؤرخون والكتاب العرب للدفاع عن عروبة الأندلس ، وعن نسبة الحضارة الأندلسية إلى الحضارة العربية ، وحتى لا تفقد هذه الحضارة ذرة ثمينة ولؤلؤة نادرة ، وعقداً فريداً مثلما هى الحضارة الأندلسية ، فينبغى الدكتور أحمد هيكى للرد على خوليان ريبيرا مفنداً نظريته فى معظم أجزائها التى وإن كانت تعتبر بالأندلسيين ، وتحاول كسبهم إلى التراث الأسباني . إلا أننا لا نستطيع أن نجرد الأندلسيين من عروبتهم . ولا نستطيع

أن نسلم بالتجربة التي أجراها على الأسرة الأموية وحاول من خلالها أن يثبت نوبان الدم العربى فى الدم الأسباني . وذلك أننا لا نتصور أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم فى المشرق . ولأننا لا نتصور أن الوفود إلى الأندلس كان من نصيب الرجال دون النساء . ولأننا أيضاً لا نتصور أن كل عربى فى الأندلس كان ينبج دائماً من أسبانيات ، وأن نتاجهم دائماً كان من الرجال الذين يتزوجون بدورهم من أسبانيات. وهكذا.

ويذكر البعض، أنه إذا كان الأندلسيون من حيث الأصل شعباً تجرى فيه دماء عربية، ودماء أسبانية، وأن كانوا مولدين جنساً، فهم عرب فى قوميتهم، وأنهم عرب فى عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم، كما أنه ليس لنا إلا أن نشكر المستشرق الأسباني ومن جراه إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيون، ومحاولة إلصاقهم بهم وضمهم وتراثهم إلى ما للأسبان من تراث .

أما عن تأثير حضارة ما قبل الإسلام فى أسبانيا الإسلامية فيقول بعض المؤرخين: " أنه لم يجد المسلمون فى البلاد المفتوحة حضارة كاملة أو متكاملة، وإنما بقايا حضارة غاربة، تعيش منعزلة منزوية ، وعناصر متعددة ، كل واحد منها يخشى الآخر، ويستعبد القوى منها الضعيف - كما أسلفنا فى مقدمة هذا الفصل - كما أن العصر القوطى السابق على العصر الإسلامى فى الأندلس بكل أحواله لم يخلف وراءه حضارة متميزة فى أى جانب ، لا نعرف له ثقافة ولا كتابة ولا أدباً. والمكتبات قليلة، ولدينا عنها إشارات شاحبة، بل إن بعض المؤرخين يؤكد على أنه لم يصلنا منها شئ ، ويظن أنه كانت ملحقة بالأديرة^(٧).

ولست فى مجال عرض لباقي الآراء التى وصلت إلى حد دراسة الأدب الأندلسى، كجزء من الأدب العباسى إمعاناً فى دمج الحضارة الأندلسية ضمن الحضارة الشرقية، التى فرضت نفسها على التاريخ كحضارة أندلسية ليست شرقية ولا غربية وأنها اتشحت بثيابها الخاصة ، واكتست

الأندلس الإسلامية سياسياً وحضارياً

ملاحظتها المستقلة التي تميزها عن الحضارات المعاصرة لها أو التي استمدت أصولها منها .

ويمكن تقسيم الحضارة الأندلسية إلى ثلاث فترات رئيسية دون أن يعنى ذلك الفصل بين هذه الفترات، اللهم بغرض الدراسة لا أكثر .

الفترة الأولى: ويمكن تعريفها بأنها مرحلة التكوين، وهي الممتدة من عام ٩٥هـ - ١٨٠هـ / ٧١٤ - ٧٩٦م .

الفترة الثانية: مرحلة النمو والتطور وهي الممتدة من عام ١٨٠هـ - ٣٠٠هـ / ٧٩٦ - ٩١٢م .

الفترة الثالثة: مرحلة النضج والإزدهار وهي ما بعد عام ٣٠٠هـ / ٩١٢م حتى غروب شمس المسلمين في الأندلس ١٤٩١م . لتخلف وراءها تلك الحضارة التي أعجب بها الصديق والعدو معاً .

أولاً: مرحلة التكوين: وتبدأ بعودة القائد موسى بن نصير وطارق بن زياد على بلاد المشرق ، وتولى عبدالعزيز بن موسى بن نصير أمور الأندلس في عام ٩٥هـ / ٧١٤م؛ وتستمر حتى نهاية عصر الأمير هشام بن عبدالرحمن الداخل المتوفى سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م وهي فترة شغل تاريخها السياسى كثير من الحروب ، والغزوات لاستكمال فتح الأندلس . أو فى محاولات فتح جنوب غاليا (فرنسا) - كما أن هذه الفترة قد حفلت بالثورات الداخلية والصراع بين القبائل العربية والبربرية - كما أسلفنا فى فصول الكتاب السابقة .

وشهدت هذه الفترة كذلك من الناحية السياسية ، استقلال الأندلس عن جسم الدولة الإسلامية حينما تمكن عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ من الاستيلاء على قرطبة، وقضائه جل فترة حكمه فى صراع مع العناصر المناوئة وتثبيت عرش بنى أمية فى الأندلس.

ومع هذا ، فإن هذه الفترة هي التي شهدت وضع البذور الأولى للحضارة الإسلامية في الأندلس. حيث أن الجيوش التي دخلت إلى الأندلس، وإن كانت في غالبيتها من البربر الذين صحبوا العرب إلى الأندلس : هؤلاء الآخرين قد حملوا معهم بطبيعة الحال ثقافة البيئة العربية الممتلئة في الثقافة الدينية من حفظ للقرآن أو بعض سوره وأجزائه ، وحفظ بعض الأحاديث النبوية . وكذلك بعض ما كان يجرى في بلادهم الأصلية (العربية) من أشعار أو أحاديث أدبية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرب الفاتحين كانوا يمثلون الجيل الرابع من المسلمين العرب . وأقصد بذلك أن الفتح الإسلامي للأندلس قد تم خلال الأعوام العشرة الأخيرة من القرن الأول الهجري . أى ما يزيد على قرن من الزمان منذ ظهور الديانة الإسلامية وما يقرب من ٧٥ عاماً من الاستقرار في بلاد الشام ومصر وبلاد الرافدين ومرووراً بشمال أفريقية .

وعلى هذا، فإن الأجيال التي دخلت بلاد الأندلس هي التي تربت ونمت في أحضان تلك الأجواء الثقافية النامية في تلك البلاد (مصر والشام والعراق). ومن ناحية أخرى فإن الفترة السياسية كانت تشهد نوعاً من الاستقرار في عهد الخليفتين ، عبدالملك بن مروان والوليد بن عبدالملك ، وشهدت تبعاً لذلك نوعاً من الازدهار في المشرق. وقد يساعدنا هذا ، على تصور الحالة الثقافية التي جاء بها العرب إلى أسبانيا مع الفتح مباشرة أو بعده .

من ناحية أخرى، يتفق المؤرخون على أن الجيوش الإسلامية التي توجهت للفتح العربى في شمال أفريقية، وبعد ذلك الأندلس كانت مصحوبة بمجموعة من الصحابة والتابعين، وأن لم يكن ذلك مؤكداً من وصول بعض الصحابة إلى الأندلس. إلا أنه من المؤكد عبور بعض التابعين؛ اختلف المؤرخون في أعدادهم وأسمائهم. وينقل الحميدى عن عبد الله بن حبيب (١٧٩هـ - ٨٥٣/٧٩٦م) ملاحظة يقول فيها: "ودخل الأندلس من التابعين،

سوى منت لا يعرف نحو من عشرين رجلاً ، بهؤلاء وغيرهم إلى موسى بن نصير ^(٨) .

وعبارة بن حبيب " سوى من لا يعرف " تبين أن هناك غيرهم دخلوا إلى الأندلس، وربما جاء بعض التابعين بعد الفتح بغرض المشاركة في الجهاد، والدعوة أيضاً .

ولقد كانت المهمة الأساسية لهؤلاء التابعين هي نشر الدين الإسلامي ، واللغة العربية بين المسلمين الجدد ، وفي تلك الأراضي التي افتتحها المسلمون . ومن هنا فإنه من الممكن القول : - دون المبالغة - أن الحياة الفكرية في الأندلس قد بدأت بعد أقوام قليلة من الفتح، وأنها " اتسمت بطابع البساطة، وتركزت في تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي ^(٩) . ومع بدايات القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ، شهدت منطقة شمال إفريقية والاندلس، ثورة البربر ضد العرب ، مما حدا بالخلفاء الأمويين إلى إرسال جيوش عربية كثيفة إلى هذه المناطق لإخماد هذه الثورات وعبرت منها إلى الأندلس قوات كثيرة العدد ، منها الطبقة المعروفة تاريخياً باسم " بلج القشيري " وكان جلها من عرب الشام. وتمكنت هذه القوات من إخماد ثورة البربر في الأندلس، وساهمت في تكثيف الوجود العربي هناك، ومن ثم سرعة تعريب هذه المنطقة .

كما أن هذه الفترة من ناحية أخرى ، قد شهدت في بلاد المشرق الإسلامي، ازدياد ثورات الخوارج والشيعة . واحتدم الصراع بين الدولة والخارجين عليها ، وفي ظل هذه الظروف ربما كانت البلاد ، المغرب والاندلس ملجأ أقل خطراً . فلجأ إليها بعض الفارين من وجه الدولة، يحملون معهم آرائهم وأفكارهم الدينية ، وانتقلت هذه الأفكار ، بطبيعة الحال إلى الأندلس لتلعب دورها في الصراع الدائر هناك، ولتساهم في نفس الوقت في توليد الأفكار ، وتصارع الآراء الذي يشكل الأساس - دائماً - لبناء الحياة الفكرية والتطور الثقافي ^(١٠) .

وإلى جانب هذه العوامل التي نعتقد أنها جذبت الكثير من العرب وغيرهم إلى أسبانيا، فإننا نضيف إلى ذلك طبيعة وجغرافية الأندلس، بموقعها ومناخها، والتي لقيت قبولا كثيراً من العرب حتى أنهم شبهوها في كتاباتهم وأشعارهم ببلادهم الأصلية. وأطلقوا على المدن الأندلسية أسماء مدنهم الشامية، ويقول عنها أبو عبد الله البكري: الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وتكاثرها، هوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها وهوائها^(١١).

وعلى هذا، فلقد جذبت الأندلس إليها أعداداً هائلة غير معروفة من العرب. نستطيع أن نلمسها في صيحاتهم للمدوية في أرجاء الأندلس، وثوراتهم التي لا تكاد تنقطع، كما نتبين ذلك في السرعة الكبيرة التي تم بها انتشار الإسلام في الأندلس، وتحويل الغالبية العظمى من سكانه إلى الدين الجديد.

ويمثل انتشار الإسلام واللغة العربية في الأندلس خطوة هامة في مجال قيام حضارة إسلامية أندلسية. وتجمع كل المصادر التاريخية على سرعة هذه العملية بصورة لافتة للنظر بحيث نجد أنه حين حلول الخليفة عمر بن عبد العزيز أخلاء الأندلس من المسلمين - كما ذكرنا من قبل - خوفاً عليهم أو خشية تغلب العدو عليهم كما يقول بن القوطية^(١٢) أو لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين ". على ما يقول صاحب الأخبار المجموعة^(١٣) رد عليه السمع بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم، وشرف معاقلم؛ وذلك في عام مائة من الهجرة/ ٧١٩م، أي بعد خمس سنوات فقط من انتهاء عملية الفتح، وعودة القائد بن موسى وطارق إلى المشرق الإسلامي، وتحليل ذلك يرجع في المقام الأول حسب آراء المؤرخين إلى قضاء الإسلام على الأوضاع السيئة التي كانت سائدة في العصر القوطي بحيث لم تعد هنالك طبقة متحكمة متمثلة في الأسر الحاكمة والنبلاء. وزال سلطان الكنسية ونفوذ رجالها، وانتهت عبودية الأرض وأسرع العبيد لكي يتحرروا من العبودية إلى اعتناق

هذه الديانة من جهة أخرى ، فإن بعض الولاة اعتبروا نشر الإسلام رسالتهم الأساسية . ومثالنا على ذلك : الوالى عقبة بن الحجاج السلولى الذى كان صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة فى نكاية المشركين ؛ وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ، ويرغبه فيه ويبصره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذى هو عليه . فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل الفا رجل^(١٤) . ولقد كانت السياسة التى اتبعها الولاة مع السكان الأصليين ، والقائمة على تركهم أحراراً فى معتقداتهم ذات أثر كبير فى تأليف قلوبهم ؛ ودعوتهم بطريقة غير مباشرة إلى اعتناق الإسلام . ويعترف بذلك المؤرخ الإسلامى " التاميرا " Altamera ، حيث يقول : " بأن العرب لم يحترموا فقط ، بصورة مؤكدة العقائد الدينية وإنما احترموا أيضاً الحياة الخاصة للشعوب التى خضعت لهم وصارت تحت سيادتهم " .

ثم يواصل قائلاً : " لقد واصلت غالبية الشعب الأسبانى تحت الحكم الإسلامى ، حياتها العادية ، بما كان لها من كونهات وقضاة وقساوسة وحافظوا على كنائسهم . وباختصار شديد حافظوا على كل استقلالهم المبنى ، ولم يأخذ منهم الأمراء والحكام الجدد ، إلا الجزية الشرعية المفروضة " ^(١٥) .

غير أننا لا نعرض هنا - الآن - مجالات الحضارة الإسلامية الأندلسية إلا بعد أن نعرض للمرحلتين الأخريين :

المرحلة الثانية : وهى مرحلة النمو والتطور ، والتى امتدت ما يقرب من قرن وربع قرن تقريباً ، وقد حدث اختلاط وتفاعل بين المسلمين من العرب والبربر من جهة وبين شعوب البلاد الأصليين من الأسبان بمختلف دياناتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية . وكان نتيجة لسماحة الدين الإسلامى ومبادئه أن تقبل السكان الأصليين عن رضى وقناعة العرب بدياناتهم الجديدة ، اللهم قيام البعض بالثورات والاضطرابات الداخلية من قبل الممالك المسيحية المعروفة فى أشبيلية وليون وطليلة ونافارى وغيرها .

لم تكن الثورات التي قامت من قبل الملوك المسيحيين أو غيرهم من أصحاب الأطماع في الحكم عائقاً في سبيل الأخذ بأسباب النهضة والتقدم وتحسين أوضاع الناس في الأندلس .

لقد بدأت المرحلة الثانية في بناء الحضارة الإسلامية الأندلسية على وجه الدقة في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل وابنه الحكم بن هشام (١٨٠هـ - ٢٠٦هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢) وحتى نهاية عصر الإمارة في عهد الأمير عبدالله بن محمد (٢٧٨هـ / ٨٩١م) . حيث قام الأمراء بحركة إصلاح داخلي برزت فيها معالم الحضارة الإسلامية الأندلسية في صورتها المميزة ، والتي تؤكد على الإطار العام للحضارة الإسلامية .

وكنا قد عرضنا لأهم مظاهر تلك الحضارة التي نمت وتطورت في ثوبها الجديد، ودخلت بيوتات الأندلسيين ، بل وتأثر بها الأعداء أنفسهم خاصة في مجال العمارة وفنون الحرب والقتال ، حتى أنه في بعض المواجهات العسكرية كان الأعداء قد اقتبسوا البارود والنار والقاذفات الإسلامية ضد المسلمين أنفسهم حتى أن بعض المؤرخين ذكر أن الملوك المسيحيين قد حاربوا المسلمين في الأندلس ببعض أسلحتهم .

وعلى الرغم ، أننا قد عرضنا في أعقاب كل أمير جانباً من الحضارة الإسلامية الأندلسية في كافة المجالات، إلا أننا سوف نعرض لتلك المجالات بصورة واضحة جلية في السطور والصفحات القادمة.

المرحلة الثالثة : وتشتمل على الفترة الممتدة من ٣٠٠هـ / ٩١٢م، إلى نهاية عصر الخلافة الأموية، وقيام عصر ملوك الطوائف المشنوم الذي نعتبره أداة ومعول هدم بدأ في هذا العصر وانتهى بدعوة البابوية الغرب الأوربي بضرورة طرد المسلمين من الأندلس، فأعلنوا الحرب المزعومة (المقدسة) من أجل استرداد الأندلس من أيدي المسلمين، ومحاولة طمس آثارهم في الأندلس مهما كلفهم هذا الأمر .

ومع هذا العمل الإجرامى العدوانى من قبل الغرب الأوروبى فى محاولة لطمس الهوية الإسلامية فى الأندلس ، إلا أن الحضارة الأندلسية ظلت شامخة معلنة عن نفسها فى عقر دار الأعداء ، وقد قبلها المعتدلون منهم ونفروها الحاقدون عليها . وإليك أيها القارئ الكريم بعض معالم تلك الحضارة العريقة السامية .

أولاً - فى مجال التشريع الدينى :

لاشك أن هذه العلوم هى أول ما تردد على أرض الأندلس (اسبانيا) لأن أقوال التابعين وأحوالهم ، وآرائهم فى توزيع الغنائم والأسلاب ، هى المصادر الأولى للعلوم التشريعية على أرض الأندلس . وبعد فترة الفتح ، فلا شك فى استمرارية هذه القواعد أو الآراء وسريانها على عصر الولاة إلى أن نلتقى بالقضاة الأوائل الذين حفظت المصادر التاريخية أسماءهم من أمثال : مهدي بن مسلم وعنتر بن فلاح ، وخالد بن يزيد التيجي ، ومعاوية بن صالح الحضرمي . أما الأول من هؤلاء فقد وضع نصاً نثرياً فقهياً سنشير إليه عند الحديث عن النثر ، يقر فيه مجموعة من القواعد التشريعية الهامة ؛ والتي يجب أن تسود فى مجال الفقه والتشريع . أما معاوية بن صالح الحضرمي ، فقد تمتع بشهرة واسعة ، وخاصة فى الشرق فى علم الحديث ، وهو أحد الأوائل الذين نشروا هذا العلم على أرض الأندلس .

تبنت الأندلس فى مجال التشريعى المذهب الأوزاعى ، وهو مذهب عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعى والمولود عام ٨٨هـ / ٧٠٧ م . وقضى معظم حياته فى بلاد الشام . وتوفى سنة ١٥٧ هـ / ٧٧٧ م ، ودفن فى بيروت .

كان الأوزاعى من أبرز الفقهاء الذين ظهوروا بالشام ، وكان يرى اتباع السلف . ولا يبدى برأيه إلا فى حالة عدم وجود نص . وكان يعتمد على أقوال السابقين ، حيث يقول : أصبر نفسك على السنة . وقف حيث وقف القوم ، وقل

بما قالوا وكف عما كفوا ، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما يسعهم^(١٦) .

وأول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس هو صمصعة بن سلام المتوفى سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م ؛ وهو فقيه من أصحاب الأوزاعي ، وكانت الفتية (الفتيا) دائرة عليه أيام الأمير عبد الرحمن بن معاوية^(١٧) . بينما يرى بعض المؤرخين ، أن أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس هو قاضي "البيرة" أسعد بن عبد الرحمن السبئي المتوفى سنة ١٥٠هـ / ٧٦٧م^(١٨) .

عاش هذا المذهب في الأندلس فترة طويلة ؛ على الرغم من أنه اعتباراً من عهد الأمير هشام الرضى والحكم الأول، فإن المذهب المالكي كان قد بدأ يأخذ طريقه إلى الحياة التشريعية في الأندلس . إلا أن المذهب الأوزاعي ظل محتفظاً ببعض الأوفياء له من أمثال : زهير بن مالك البلوى المتوفى سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤م . والذي كان فقيهاً على مذهب الأوزاعي على ما كان عليه أهل الأندلس قبل دخول بني أمية إليها^(١٩) .

ومع دخول الأمويين واستقرار الأوضاع لهم في الأندلس ازداد انسياب العلوم للشرقية إلى الأندلس ، ومنها بطبيعة الحال المزيد من العلوم التشريعية ؛ ورحل الأندلسيين إلى الشرق وتعلموا على مالك بن أنس بالمدينة وعادوا معهم كتابه المشهور "الموطأ" وبدأوا في نشر مذهبه في الأندلس ابتداءً من عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن . وأوائل من حملوا هذا العبء ، الغازي بن قيس ، المتوفى سنة ١٩٩هـ / ٨١٥م . وزيد بن عبد الرحمن المعروف بشبطين "والمتوفى سنة ٢٠٤هـ / ٨١٩م ، وعيسى بن دينار ، قاضي طليطلة المتوفى سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م . وأخيراً تلك الشخصية البارزة ، يحيى بن يحيى الليثي المتوفى سنة ٢٣٤هـ / ٨٤٨م ويقول بن فرحون عن عيسى بن

دينار ويحيى الليثي: "وبه ويحيى انتشر علم مالك بن أنس ، ورجعت الفتيا إلى رأيه " (٢٠) .

ثانياً - في المجال الأدبي :

تكمن الصعوبة حقيقة في تحديد بدايات النشاط الأدبي على أرض الأندلس ، سواء في مجال الشعر أو في مجال النثر، ويرجع ذلك إلى اختلاف الآراء في هوية الأندلس ، وإلى أن القائلين شعراً أو نثراً خلال هذه الحقبة إنما طرأوا على الأندلس ، ولهم أصولهم الشرقية الواضحة .

وما دما قد تحدثنا عن يحيى بن حكم الغزال . فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسي الذي بدأ يستقل عن الفكر المشرقي ، ويظهر في صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر في تطوره في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط.

أما النثر الذي ظهر في الأندلس ، فلم يكن نثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو غيرهما من جهابزة الشعراء العرب ، وقد نشأ الشعر الأندلسي محاكياً للشعر المشرقي . عندما ثبتت أقدام المسلمين في الأندلس كان عصر الشعر العربي الإسلامي الخالص قد انقضى بذهاب بني أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة . وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبي نواس وبشار بن برد ، وأبي تمام ابن الرومي وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيداً جداً في تكوين مدرسة مماثلة في الشعر الأندلسي . فنجد عند كبار الشعراء في عصر الأمراء من أمثال " ابن عبد ربه ، ومؤمن بن سعيد ، ويحيى بن حكم الغزالي ، ومحمد بن يحيى القلظاط صوراً شعرية متشبهة من شعر أولئك الفحول وأبو تمام بالذات ، كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة

معانيه وديباجته العربية الخالصة ،ويلى أبى تمام فى ذلك ابن الرومى ابن المعتز .وأما الأول فقد فتن فيه الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها - وأما الثانى ، فأعجبتهم فيه الضمة والرقعة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع . وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة.

على أنه تجدر الإشارة إلى أن الفروق التى كانت بين الأدب المشرقى الإسلامى وأدب الأندلس يرجع إلى عاملين أساسيين :

أولهما : الحالة السياسية للفترة وما اعتراها من صراعات وحروب متواصلة .

وأما الثانى : فهو الإيغال فى البعد تاريخياً ، حيث نتناول بالدراسة فترة تبتعد عنا بما يقرب من اثنى عشر قرناً من الزمان .

ولنا أن نتصور أنه كما صاحب جيوش الفتح الإسلامى عدد من علماء الدين ، فإنها ولا شك قد ضمت جوانحها بعض الأدباء والشعراء والقصاصين، أو بعض حملة نصيب من الثقافة السائدة حين ذاك فى بلاد الحجاز والشام ومصر ،والذى عرضنا لهم ،وكان هذا القدر من الثقافة - ولو كان قليلاً- الأساس الذى تطورت عليه فيما بعد الثقافة الأندلسية .

وكذلك لا شك فى أنه قد ورد إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامى واستقرار الأمر بعض ممن كانوا يقرضون الشعر ، وحفظت لنا المصادر قليلاً من أشعارهم . ومن هؤلاء الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار ؛ وجاء إلى الأندلس واليا فى سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢ م على عهد هشام بن عبد الملك. وكان الصراع فى الأندلس محتد بين القيسية واليمينية، وكان هشام يميل إلى القيسية ؛ فلما اشتد عليه الأزمات شاور العباس بن الوليد، فنصحه بالعودة إلى- تأييد

اليمنية، وقال له : " يا أمير المؤمنين ليس يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح أوله، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القطمانية^(٢١) يشير ذلك إلى نصر اليمنية للأمويين في معركة مرج راهط .

وعلى هذا ، ولّى هشام حنظلة بن صفوان الكلبي على أفريقية وأمروه أن يولى بن عمه أبا الخطار على الأندلس ؛ فكان ذلك سنة ١٢٥هـ — ومن الطبيعي أن هذا الأمير الشاعر قد قرض الشعر على أرض الأندلس واستشهد في إدارته للبلاد أو صراعه مع الخارجين على سلطته ، حتى أن بعض المؤرخين لقبه " بعنترة الأندلس"^(٢٢).

وممن طرأ على الأندلس من الشعراء في هذه الفترة أبو الأجر جعونة بن الصمة؛ الذي عرف بهجائه للصمويل بن حازم زعيم القيسية ، وأحد زعماء الأندلس المعروفين، ويقول عنه الحميدى نقلاً عن ابن حزم، وإذا ذكرنا أن الأجر جعونة بن الصمة لم نباريه إلا جريراً والفرزى لكونه فى عصرهما . ولو أنصف لاستشهد بشعره، فهو جار على أوائل مذاهب العرب لا على طريق المحدثين.

وكان لهذا الشاعر سمعة فى بلاد المشرق ، حتى يقال أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسى ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعره (أى من شعر جعونة) وذلك حين التقيا معاً فى العراق^(٢٣) .

إلى جانب ذلك هناك بعض الأبيات التى قيلت فى الصراع الذى كان يجرى هناك . ومنها مثلاً ما أورده المصادر حين الحديث عن الصمويل بن حاتم وأثناء حصاره فى سرقسطة ، أرسل فى طلب النجدة فقام إليه بعض العرب ومعهم عبد الله بن خالد، وعبيد الله بن عثمان وهما رأس الأموية فى الأندلس . فلما بلغوا وادى طليطلة بلغهم أن الحصار اشتد وأضر

بالصمويل . فقدموا رسولا من قبلهم وقالوا له . أدخل فى جملة المحاربين للسور ، فإذا قربت منه أرم بهذه الحجارة وفى كل واحد منها بيتان وهما :

أتاك الغوث وانقطع الحصار
عليها الأكرمون وهم تذار^(٢٤)

ألا أبشر بالسلامة يا جدار
أتتك بنات أعوج ملجعات

أما الصمويل نفسه فتحفظ لنا المصادر ببيت من الشعر قاله حين رأى ماله ينتهب على يد الطائيين بعد انتصار عبد الرحمن الداخل وهو :

ألا إن مالى عند طى وديعة
ولا بد يوماً أن ترد الودائع^(٢٥)

وإذا كان المصادر مجدية فيما احتفظت به من أخبار شعراء الفترة الأندلسية، فليس ذلك مما يدفع إلى القول بعدم وجود هؤلاء الشعراء أو خلو الفترة الأندلسية من قرض الأبيات، وذلك بأن الظروف المضطربة والصراع القبلى، والتنافس والتنازع والأثرة عوامل مشجعة للناس على الصياغة والنظم. فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة الأرض الجديدة المغيرة لطبيعة بلاد العرب . وأثر ذلك فى تفجير ينابيع الشعر لأمكن لنا أن نتصور البداية التى ارتقى عليها بعد ذلك الشعر الأندلسى .

الفترة الثانية : وتأتى هذه الفترة ، وهى تتسم بوصول أفواج جديدة من العرب إلى الأندلس ، مع ظروف سقوط الدولة الأموية فى المشرق ووصول عبد الرحمن الداخل إلى قرطبة سنة ١٢٨ هـ / ٧٥٥ م . وتزداد الشواهد الأدبية، وتكثر الأبيات الواردة فى المصادر.

ومن أهم شعراء هذه الفترة ، الأمير عبد الرحمن الداخل نفسه والذى كان شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً ، ولم يكن من الغريب أن يأتى شعر الداخل مصوراً لجوانب حياته المتقلبة والمتباينة . فنظم فى الغربة والحنين إلى الوطن، كما أنه نظم فى الفخر والحماسة وكفاحه الفذ من أجل إقامة دولة أموية

فى الأندلس خلفاً لتلك التى بادت فى الشام " ودمشق". وهذه الأبيات فى الحنين إلى الأهل :

أقر من بعضى السلام لبعضى	أيها الراكب الميمم أرضى
وفؤادى ومالكىه بأرض	إن جسمى كما تراه بأرض
وطوى البين عن جفونى غمضى	قدر البين بيننا فافترقنا
فعمسى باجتماعنا سوف يقضى ^(٢٦)	قد قضى لله بالفراق علينا

وهو الذى صاغ تلك العلاقة الفريدة بين نخلة زرعها العرب فى أرض الأندلس فجاءت يتيمة نوعها هناك غريبة ، وبين حالتها فأنشد قائلاً :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن باد النخل
فقلت : شبيهمى فى التغرب والنوى	وطول التناى عن بنى وعن اهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة	فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى ^(٢٧)

ولعبد الرحمن الداخل أشعار أخرى فى المصادر التاريخية. منها ما قاله حين كتب إليه بعض من وفد عليه من قریش يستقصره فيما يجريه عليه ، ويسأل للزيادة ، ويستطيل عليه، فكتب عبد الرحمن الداخل يقول :

شأن من قام ذا امتعاضى	منضى الشفرتين تصلا
مجاب قفرا وشق بحرا	ساميا لجة محلا
فبز ملكا وشاد عزا	ومنبرا للخطاب وفصلا ^(٢٨)

وهناك من ينسب إليه هذه الأبيات مع اختلاف فى الكلمات حين ذكروا له تفاخراً ما كان من الخمر بين يزيد مع عبد الله بن على بن عبد الله العباسى^(٢٩) .

وذاث يوم كان عبد الرحمن الداخل خارجاً إلى الثغر فى بعض غزواته فوقعت غرائيق (طيور مائية بيضاء اللون ، طويلة السيقان ، لها قنارع ذهبية اللون) فى جانب، عسكره ؛ وأتاه ما كان يعرف كلفه بالصيد يعلمه بوقوعها . ويشهيه بها، ويحضه على اصطياها ، فأطرق عنه قليلاً ثم جاوبه :

دعنى وصيد وقع الخرائق
فإن همى اصطيد المارق
فى نفق كان أو فى حلق
إذا إلتظت هواجز الطرائق^(٣٠)

وحتى لا نسترسل فى الحديث فى مجال الأدب عن عبد الرحمن الداخل ، فإننا لبعض الشعراء الآخرين من أمثال : عاصم بن زيد العبادى المعروف باسم "أبو المخشى" وكان والده ممن وفد على الأندلس فى فترة الولاة ، ونزل منطقة لبيرة. ونشأ أبو للمخشى فى المنطقة الأندلسية، وقرض الشعر حتى أصبح ألمع شعراء عصره؛ بل بلغ إلى أنه كان شاعر للدولة المروانية فى الأندلس .

وأشعار هذا الرجل التى وصلت إلينا قليلة . وتروى المصادر ميله لعبد الرحمن الداخل ومدحه له. كذلك اتحيازه لسليمان بن عبد الرحمن مما عرضه لغضب هشام بن عبد الرحمن، وكان بين الأخوين بعض المناقشة .

ويقال أن هشماً تمكن من الشاعر فقطع طرف لسانه وسمل عينيه. وكانت تجربة قاسية صاغها الشاعر أيقناً حرة مؤثرة، حركت قلب عبد الرحمن الداخل لمواساته ، وأغضبته على ابنه هشام ، ويقال أن الأمير هشام نفسه قد ندم على فعله وحلول تعويض الشاعر ما أمكن .

ويرى مؤرخو الأدب ، أن الشاعر أبا للمخشى يمثل الشعر الأندلسى فى فترة التأسيس أصدق تمثيل. فهو يمثل فى ظهور بعض السمات الأندلسية الخاصة من تجديد فى الموضوعات ، ومحاولة التجديد . كما أنه يمثل فى مسيرته البدوية المحافظة المقلدة لأشعار عرب ما قبل الإسلام . ويستدلون بأبياته التى حاول فيها معالجة تجربته الجديدة فى فقدان البصر . ومن أجمل ما قال هذا الشاعر :

وهم ضافنى فى جوف ليل
فبتا والقلوب معلقات
كلا موجيهما عندى كبير
واجنحة الرياح بنا تطير

وله أبيات أخرى كثيرة حللها أحمد هيكل فى كتابه "الأدب الأندلسى" (٤١). أورد له دكتور / محمود على مكى ترجمة كاملة ومعظم ما حفظ من أشعاره فى رسالته عن المؤثرات الشرقية فى الثقافة الأندلسية (٣٢). ولن استطرد أكثر من ذلك فى شعراء تلك الحقبة والذين كثر عددهم، ليشمل أمراء البيت الأموى، من أمثال: هشام وابنه الحكم الأول، وليضم أيضاً بعض الشخصيات المعروفة من أمثال عباس بن نصاح الجزيرى. والشاعر أبو الحسين وإينته حسانه التميمى. ويكفى ذلك للدلالة على أسس الإنطلاقة الشعرية قد توطدت، وأن راحلة القوافى قد بدأت مسيرتها لتتسنى للشعر الأندلسى مجاريه ضمن واحات الشعر العربى .

وفى عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبى الأندلسى وهو شعر يصاغ فى عامية أهل الأندلس، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربى وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والأيبيرية والرومانية . فإن الأندلسى كان يقول : " كيروكاس دالما " ، (اريد كأس ماء) ، وهى " ألما حزين دام اليوم " (نفس حزينة اليوم) ، " اشتريت من السوكوسبانية بلانكا " (اشتريت من السوق غطاء فراش أبيض) ... وهكذا.

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس. وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف، على يد زجالين موهوبين أشهرهم أبو بن قزمان.

بعد ذلك ، ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسي ، فكانوا يأخذون مركز " إحدى الأغاني الشعبية باللغة الأسبانية الدارجة ، وينسجون في منواله أربعة أشطار أو خمس تنتي بذلك المركز الذي يسمى " خرجة " أو أربعة أبيات أخرى عربية تنتهي بنفس للخرجة .. وهكذا.

السحر حق
وأنا به أشهد
أضل العشق
مهجتي ولا ينفذ
واين صبقوا
كم غريدة تنشد

فجر ضياء بالغ الجمال
عندما يطلع يبعث الحب
فجر له ضوء ساطع جميل
عندما يأتي طالباً للوصل

وقد انتقل الموشح الأندلسي إلى بلاد الإسلام كلها، وأصبح نوعاً جارياً من الشعر، يجمع بين العربية الفصيحة والعلمية الدارجة. وكان أول ظهوره على يد "مقدم بن معافى القبري" الضرير الذي نشأ في أيام عبد الرحمن الأوسط.

أما النشر: فإن طبيعة الأمور تحتم وجود ثروة نثرية كبيرة على الرغم من ندرة ما وصل إليها من نصوص نثرية ، ونعتمد في قولنا بوجود ثروة نثرية على أساسين واضحين ، أولهما : الحاجة الملحة إلى استخدام الكلمة الحسنة ، والأسلوب الواضح في مجال الدعوة إلى الإسلام ، وأقامة الشعائر وخاصة الصلاة الجامعة أيام الجمع والأعياد. أما الأساس الثاني : فهو الحاجة الملحة إلى استعمال الكلمة لها للحث على الحروب الأهلية أو شجبتها ،

كما أن الكتابة كانت حاجة ملحة في هذه الفترة تتطلبها ظروف الفتح والحكم والإدارة ؛ كما تتطلبها مناسبات رسمية وأخرى شخصية مثل كتابة العهود ، أو وضع شروط الصلح أو توجيه بعض المكاتبات .

وأول نثر عربى ابتدعه خيال المؤرخين ليرتبط بأرض الأندلس يتمثل في تلك الخطبة الرائعة التى نسبت إلى طارق بن زياد ، والتى القاها لاشعال حماسة جنوده قبل اللقاء الحاسم فى معركة وادى لكة. وتتكون تلك الخطبة فى صيغتها التى وصلت إليها عن عبارات ذات صبغة عربية قحة (خالصة) ، ولكلماتها رنين قوى ، وأفكارها أفكار حربية ، تشجع الجنود على النصر وتحذرهم الهزيمة . لكن هذا النص الأدبى رغم أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بأرض الأندلس ، لا يمكن تضمينه هذه الدراسة ؛ وذلك للشك الكبير فى صحته تاريخياً . وعدم وجود أدلة قوية على نسبه لطارق بن زياد ، وذلك لأن قائله ، وإن كان قد قاد عملية الفتح ، إلا أنه عاد الى المشرق بعد ذلك . وظل هناك حتى نهاية حياته. وهناك أيضاً بعض النصوص المنسوبة إلى موسى بن نصير وإلى مغيث الرومى. لكن تلك النصوص مثله مثل نص طارق بن زياد تتعرض لكثير من النقد ، ويعتقد أنها كتبت بعد عصرهم ونسبت إليهم.

ومن النصوص النثرية الأولى التى وصلت إلينا ، صيغة الكتاب الذى قدمه عبد العزيز بن موسى بن نصير إلى تدمير حاكم منطقة مرسية، وتحدد فيها نوع المعاملة التى يجب أن تسود بين الفريقين، ويبدأ الكتاب بالصيغة التالية:

"بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله ونمته أن لا ينزع عن ملكه ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم يقتلون، ولا يسبون أولادهم ولا نساؤهم ، ولا يكرهون على دينهم ... الخ (٢٢) .

أما النص الآخر الذى تتجلى فيه روعة الأسلوب مع وضوح الفكرة فهو المنسوب إلى صياغة القاضى مهدى بن مسلم، قاضى عقبة بن الحجاج السلولى، والذى تولى الأندلس فى سنة ١١٦هـ، وظل بها حوالى ٥ سنوات، إلى أن استشهد فى جهاده فى أرض خاله. والرسالة من صياغة القاضى، والذى طلب منه وإليه الحجاج كتابة العهد، فكتب رسالة ذات مستوى لغوى سليم، موضحاً بها بعض النقاط الهامة فى "المساواة بين الخصوم بنظرة استفهامه ولطفه ولحظة استماعه" وأن يفهم من كل أحد حجته ومايدلى به، ويستأنى كل عيبى اللسان، ناقصى البيان، فإن استقصاء الحجة ما يكون لحق الله تعالى عليه قاضياً، وللواجب فيه رغباً فقد يكون الحجة بحجته وأبلغ فى منطقته، وأسرع فى بلوغ المطلب، وألطف حيلة فى المذهب وأنكى نكاءً وأحضر جواباً من بعض، وإن كان غير الصواب مرماه، وخلاف الحق منهاه" (٣٤).

وكذلك احتفظت لنا المدونات بجزء من رسالة يوسف الفهرى آخر ولاية الأندلس والتى وجهها إلى عبد الرحمن الداخل حين نزل بأرض الأندلس يعرض عليه بعض الشروط لكى يتجنب الحرب. ولكن فشلت هذه الرسالة فى إحلال الصلح بين الطرفين، وذلك بسبب غرور كاتبها خالد بن يزيد. ويروى لنا كتاب أخبار مجموعة أن خالداً حمل كتاب يوسف إلى عبد الرحمن، وكان أدبياً عاقلاً، إلا أنه زل، وكان هو مملى الكتاب، فأن له العجب وقديماً ما أهلك دين الرجال ودنياهم، فقال: يا أبا عثمان: لتعرقن إبطك قبل أن تخير فيها جواباً فغضت أبو عثمان وسبه وفشلت الوساطة، وأخذ خالد بن يزيد أسيراً (٣٥).

ومن كتاب هذه الفترة، لدينا أسماء خالد بن يزيد، وأمىة بن يزيد، وكانا من كتاب يوسف بن عبد الرحمن الفهرى؛ ثم انتقلا بعد ذلك إلى خدمة عبد الرحمن الداخل.

وتصف الكتابات الأدبية نثر هذه الفترة الأولى من تاريخ الأدب الأندلسي، بأنه كان يحمل الخصائص الفنية للنثر الشرقي، كما أنه نثر يميل إلى الإيجاز، ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتحميلها؛ ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويل أو الألقاب المتعددة مثلما هو الحال بالنسبة للعصور التالية:

وكما كان وصول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس علامة بارزة في تطور الشعر، فهو كذلك أيضاً في مجال النثر، لأن الأمير كان شاعراً جيداً وناثراً مفحماً، ومما ينسب إليه قوله حين قتل المغيرة ولد أخيه الوليد:

يا عجبى ألا من هؤلاء القوم، سعيينا فيما يضاعفهم في مهاد الأمن والنعمة، وخاطرنا بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه إلى مطلوبنا، ويسر الله تعالى به حتى أمنوا ورددت عليهم أخلاق النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بأنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحه الله تعالى..... (٣٦).

وقد احتفظت لنا المصادر بالكثير من النصوص النثرية المتعلقة بعبد الرحمن الداخل، ومنها خطبة قالها بعد انتصاره في معركة المصارة سنة ١٣٨هـ - ٧٥٥م: ورسالة منه إلى سليمان الأعرابي، حاكم برشلونة الذي أعلن العصيان وتحالف مع شارلمان.

ولم تقتصر الحياة الفكرية في الأندلس خلال ذلك التاريخ البعيد على تلك الشواهد الأدبية شعراً أو نثراً. وإنما بدأت العلوم الإسلامية التي كانت قد نضجت في الشرق في الإنسياب نحو الأندلس. فبدأت قليلة تشق طريقها بثبات إلى هناك إلى أن حضرت مجرى واسماً انتقلت خلاله معظم هذه العلوم والآداب لتعيش على أرض الأندلس. ولتصبغ هناك بطبيعة هذه الأرض وسجايا الناس ولتتحول إلى جزء لا يتجزأ من الحضارة الأندلسية.

ومن أوائل من حملوا العلوم الإندلس نجد زياداً بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٩٩هـ، وهو أول من أدخل إلى الأندلس فقه مالك بن أنس،

وكانوا قبل ذلك على المذهب الأوزاعي^(٣٧) . وهو " أول من أظهر سنة تحويل الأودية في الإستسقاء ^(٣٨) .

وفي أيام عبد الرحمن ابن معاوية دخل الغازي بن قيس الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس رحمه الله ، وبقراءة نافع بن أبي نجيم وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الأندلس ، وكان قد جمع علم العرب إلى علم الدين . وكانت رحلتها من الشرق إلى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، ودخل الأندلس قبل دخول الإمام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من جلة أهل العلم ، ورواة الحديث . وكانت له مكانة عظيمة لدرجة أنه سئل محمد بن وضاح : هل جمع أهل الأندلس علم معاوية بن صالح؟ فأجاب بالنفي ، فقليل له : وما منعكم من ذلك ؟ قال : قدم بلدا لم يكن أهله يومئذ أهل علم فقليل له أضعتم والله علماً عظيماً ^(٣٩) .

وانتهت إلى الأندلس أمهات الكتب في النحو منذ أواخر القرن الثاني الهجري، فادخل جودي بن عثمان العبسي المتوفى سنة ١٩٨هـ كتاب الكسائي، وكان قد رحل إلى الشرق . وأخذ عن الرياضي والفراء والكسائي^(٤٠) .

كذلك بدأ استخدام علم التنجيم في هذه الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس حيث أن هشاماً بن عبد الرحمن الداخل حينما تولى، حيث طلب المنجم في الجزيرة الأيبيرية، فقال له: لست أشك أنك قد عذبت بأمرى إذ بلغك، فناشدتك الله ألا أخبرتني بما ظهر لك، فقال له "الضبي المنجم" ناشدتك الله ألا أعفيتني من هذا، فأعفاه، فلما كان بعد أيام كشف عنه . فقليل له خاطر بعث فبعث فيه وقال له: إن الذي أسألك : لست والله أصدق به على الحقيقة، ولكن أريد أن أسمع من ولئني أوردت على ما يغني ، لا أعاقبك ولاكسونك ولأحبونك ، وأكافئك كما كنت أكافئك على أن تورد على ما يسرني ، فقال له الضبي: ما بين الستة

والسبعة. فأطرق عنه ساعة ، ثم رفع رأسه إليه فقال له : يا ضبى والله لو أنها سجدة فى سبيل الله لهانت (٤١) .

الحياة التربوية فى الأندلس :

لاشك أن عمية التطور الثقافى والفكرى التى أشرنا إليها قد مضت فى طريقها معتمدة على انتشار اللغة العربية والإسلام ، وتعمقها فى نفوس أهل الأندلس . كما أنها قد صاحبها نشاط تربوى وتعليمى ، يحسن بنا أن نشير إليه ، باعتباره مظهراً من مظاهر الحضارة الأندلسية . كما أنه الأساس الراسخ الذى بنيت عليه هذه الحضارة .

بدأت الحياة التعليمية فى الأندلس بعد الفتح مباشرة وتمثلت فى بداية الأمر بتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى ، وقام بهذه المهمة مجموعة من العلماء الدينين الذين رافقوا الجيوش الإسلامية فى عبورها إلى أرض شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) أو من هاجر إلى هناك بعد الفتح .

اتجه التعليم - كما هو طبيعى ومنطقى- فى بداية الأمر إلى الكبار، سواء من سكان الأرض الأسبانية أو من البربر حديثى العهد بالإسلام ، وهو أمر كان يحرص عليه الذين اهتموا بتعليم لغة الفاتحين من أجل مصالحهم الخاصة ، أو ممن اعتنوا بالإسلام ، وحاولوا معرفة لغة دينهم .

وفى نفس الوقت فإنه لم تنقضى فترة طويلة حتى بدأت فى الظهور أجيال جديدة من أبناء الفاتحين وزوجاتهم الأسبانيات (المولدين) ومع هذه الأجيال تجلت الحاجة إلى تعليم الأطفال اللغة العربية والقرآن الكريم .

ولدينا من البيانات التاريخية ما يثبت وجود الكتب فى الأندلس على عهد الولاة حيث يحكى أن الصميل بن حاتم قد مرّ يوماً بمعلم يعلم الصبيان وهو يقرأ "وذلك الأيام تداولها بين الناس" ودار بينه وبين المعلم جدل

غريب يمكن أن نفسره بأكثر من معنى^(٤٢). كما أن الزبيدي في كتابه طبقات النحويين ، ينقل لنا نصاً قيماً عن الغازي بن قيس . المتوفى سنة ١٩٩ هـ / ٨١٤ م . يمكن لنا أن نستنتج منه أنه في أيام دخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ؛ كان الغازي يمارس التأديب ، بل أن هذه المهنة كانت شائعة؛ ويمارسها عدد كبير من الناس وأن هؤلاء كانوا يشعرون بأنهم يمارسون حرفة معينة ؛ يجب أن يتقاضوا في مقابلها أتعاباً، ويتجمعون للدفاع عنها^(٤٣) .

وما من شك في أن عدد الذين تعلموا خلال هذه الحقبة كان كبيراً ، وبعض هؤلاء هم الذين أتيح لهم على عهد عبد الرحمن الداخل القيام بالرحلة إلى الشرق وعادوا- كما أشرنا- حاملين معهم مزيداً من الثقافة إلى الأندلس مما دفع بهذه الحضارة الأندلسية خطوات على طريق التطور والارتقاء .

في مجال العمران :

مما يلفت النظر في دراسة هذا الجانب من جوانب الحضارة الأندلسية عدم قيام المسلمين هناك بتأسيس مدن خاصة بهم رغم أهمية هذا العمل في الاستقرار في البلد الجديد وتحويله إلى العربية لغة والإسلام ديناً. وتفسير ذلك تفسيراً علمياً يتطلب دراسة مستقلة عن دور المدينة الإسلامية في تعريف الأوطان الجديدة ونشر الإسلام بها ، وخاصة أن الأمثلة السابقة لا تحدد لنا بالضبط ، لماذا تم بناء هذه المدن ، ففي العراق ، وهو بلد كثيف السكان تم بناء البصرة والكوفة. أما بلاد الشام فلم تبني بها مدن جديدة . ومصر حظيت ببناء الفسطاط ، وإفريقية بالقيروان أولاً ثم تونس بعد ذلك.

وجاء بناء المدن في الأندلس فيما بعد في فترة ازدهار الحضارى ، وتمثل في إقامة أماكن خاصة للخلفاء مثل الزهراء والزاخرة أو إقامة مدن بحرية مثل مدينة المرية .

أما مظاهر العمران التي قام بها المسلمون هناك فتتمثل في إنشاء المساجد حيث تجمع المصادر التاريخية على أن أول شئ أقامه موسى بن نصير هو مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء التي يقول عنها الأندلسي: "إنها أول مدينة افتتحت في ذلك الوقت وبها على باب البحر مسجداً " مسجد الرايات " ويقال إنه هناك اجتمعت رايات القوم للرأى" (٤٤).

كما ان حنش بن عبد الله الصنعاني - أحد التابعين الذين لا خلاف عليهم حول دخولهم الأندلس مع الفتح - قد قام بتأسيس عدة مساجد هناك. فيذكر الحميدى حين يترجم له أنه: غزا الأندلس مع موسى بن نصير، وله بها آثار ، ويقال: إن بناء جامع سرقسطة من ثغور الأندلس من بنائه ، وأنه أول من اختطه (٤٥). كذلك تذكر بعض المصادر الأندلسية إلى تأسيس حنش الصنعاني، بالتعاون مع غيره مساجد مدن: البيرة ، وقرطبة، وسرقسطة، وربما غيرها (٤٦).

وإذا كانت هذه المساجد قد أقيمت خلال مرحلة الفتح نفسها فإنها استمرت بعد ذلك طوال التاريخ الأندلسي ، فاهتم للولاة والأمراء والأفراد بها. ومثالنا على ذلك قيام عبد العزيز بن موسى بن نصير أول وال في الأندلس. ورغم أنه لم يحكم إلا بضعة شهور ، إلا أنه قام ببناء مسجد أشبيلية أمام داره، وهو المسجد الذي قتل فيه حين خرج لإمامة المسلمين (٤٧).

وما يقوله " النباهي " عن معاوية بن صالح أنه " من القضاة المتقدمين ، خرج من الشام إلى الأندلس فوصلها ١٢٣ هـ . فاستوطن مدينة مالقة ، وبنى بأسفل قصبتها مستجداً هو منسوب إليه حتى الآن (٤٨).

وغذا لم تكن حاضرة لدينا المعلومات الفنية عن مساجد هذه الفترة البعيدة من التاريخ الأندلسي، إلا أن أرادة الله لم تشأ أن تحرمها من الخلود حين هيا لها

عبد الرحمن الداخل لكى يبدأ فى بناء مسجد قرطبة الجامع، والذي أصبح فيما بعد مفخرة فى البناء المدنى الأندلسى. وكان وما يزال ذرة غالية فى مجال فن البناء الإسلامى والحضارة الأندلسية خاصة والإسلامية عامة .

بدأ عبد الرحمن الداخل بناء هذا المسجد سنة ١٧٠هـ / ٧٨٦م وجلب إليه الأعمدة والرخام للمنقوش بالذهب واللازورد ، وتوفى قبل إتمامه ، وأكماله لابنه هشام ، وزاد فيه أمراء بنى أمية وخلفاؤهم من بعد - كما أسلفنا - حتى غدا أعظم مسجداً فى بلاد الأندلس ، وبلغ ما أنفق عليه عبد الرحمن الداخل وحده زهاء ثمانين ألف دينار^(٤٩)، وفى بضع المصادر مائة ألف دينار .

واتجه المسلمون إلى الاهتمام بتحسين المرافق للقائمة . فقد تنبه الوالى السمع بن مالك الخولانى إلى تهدم قنطرة قرطبة بعد أن استشار الخليفة عمر بن عبدالعزيز، الذى أمر بتجديد بنائها من صخر سور المدينة وأن يبنى سور المدينة بالطوب اللبن، إذ لا يجد له صخرا ، فوضع - أى السمع - أساس بناء القنطرة فى سنة إحدى ومائة (١٠١هـ)^(٥٠)، وعدت هذه القنطرة والمسجد الجامع من أهم معالم مدينة قرطبة . وإذا كان هذان البناءان من وضع فترة التأسيس الحضارى ، فإن المدينة لم تضاف إليها بعد ذلك إلا الزهراء وتميزها بالعلم حيث يقول الشاعر عنها :

باربع فاقت الانهار قرطبة

منهن قنطرة الوادى وجامعها

هاتان ثنتان والزهراء ثالثة

والعلم افضل شئ وهو رابعها^(٥١)

وشهد عصر عبد الرحمن الداخل إهتماما بالمدينة، وركز اهتمامه على قرطبة التى حاول أن يجعل منها صورة لمدينة دمشق الإسلامية فى بلاد الشام حيث مجد أمجاده.

"قحصنها بالمنشآت الضخمة والرياض اليبانة، وكان أول ما أنشأ بها على عهده" منية الرصافة "التي أنشأها في شمال غربي قرطبة، وأنشأ بها قصراً تحيط به الحدائق، وجلب إليه مختلف الغروس والبذور والنوى من الشام وأفريقية وأسماها الرصافة تخليداً لذكرى الرصافة التي أنشأها جده هشام بن عبد الملك في الشام؛ واتخذها مقاما ومنتزها ومقراً للإمارة . وكانت حدائق الرصافة " أما " لحدائق الأندلس ، ومنها انتشرت غروس الشام وأفريقية .

وفي سنة ١٥٠هـ. بدأ عبد الرحمن بانشاء سور قرطبة الكبير واستمر العمل فيه عدة أعوام. كما أنشأ في قرطبة وباقي مدن الأندلس مساجد محلية عديدة .

وهكذا وضعت الأسس التي تطور عليها فن العمارة الأندلسية لكي يثمر بعد ذلك عقوداً من الأعمال الفنية والمعمارية الخالدة والتي انتظمتها كتب تراث المسلمين الفني والمعماري .

وتجدر الإشارة هنا، أنني لا أستطيع تكرار ما ذكرته في متن الجزء السياسي من الأعمال الحضارية وأهم مظاهرها في أعقاب كل والي أو أمير أو خليفة طوال فترة الحكم الإسلامي بالأندلس. وإن كنت قد خصصت هذا الفصل لأعرض فيه الأسس التي قامت عليها الحضارة الأندلسية الإسلامية .

فإلى جانب هذا الفصل المستقل ، هناك في جميع فصول الكتاب الجوانب الحضارية التي خلفتها لنا أعمال الولاة والأمراء والخلفاء المسلمين ، دون الفصل عن الجانب السياسي حتى تكتمل الصورة الحضارية في نشأتها وتطورها خلال السيادة الإسلامية في الأندلس والتي استمرت هناك ما يقرب من ثمانمائة عام تقريباً تذخر بكل ما هو رائع وفخر للإسلام .

لهوامش الفصل الخامس :

(1) Conzales Prats ; Antonio : Altura en les ciencias Medicas en el Rieno de Al-Andalus ,p. 20.

وراجع أيضا : ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ، ١٩٨٣ .
ص ٢٦٧ .

(٢) د. عبد اللطيف عبد الهادى السيد، "موسوعة التاريخ الإسلامى" مجلد ٩ ،
ط ١٠ / الاسكندرية، ص ٢٠١٠ م .

(3) Gomez Nogales ; La Filozofia Musulmans, pp. ٩ - ١٠ .

(4) Ibid . Op. cit , p. 130 .

(5) Ibid . pp. 130 – 131 .

(٦) أحمد هيكل ، الأدب الأندلسى ، ط ٢٨/ ، ص ٣٥

وراجع : ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، ص ٢٦٨ .

(٧) الطاهر مكي؛ حضارة الإسلام فى الأندلس، عدد خاص من مجلة الهلال،
يونيو سنة ١٩٧٦م ، ص ٩٣ .

(٨) د. محمد عبد المجيد عيسى، تاريخ التعليم فى الأندلس، ص ٧١ – ٧٣ ،
دار الفكر العربى ١٩٨٢ م .

(٩) أحمد هيكل، المرجع السابق، ص ٦١ – ٦٢ .

(١٠) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص ١٤٨ وما بعدها .

(١١) محمد عبد الحميد عيسى ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

(١٢) ابن القوطية، افتتاح الأندلس، ص ٣٨، طبعة الأبيارى، القاهرة، ب- ت.

(١٣) المؤلف المجهول " أخبار مجموعة " ص ٣٠ طبعة الإبيارى . دار
للكتاب المصرى، القاهرة ، ١٩٨٢ م .

(١٤) الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٦ طبعة الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ،
ب.ت .

(15) Altamera, Ho de Espana ٤ de la Civilization Espanola,
p.229, 30 Edcian , Barcelona 1913 .

(١٦) خليل داود الزرو : الحياة العلمية فى الشام فى القرنين الأول والثانى من
الهجرة، بيروت ، ١٩٧١م ، ص ١٠٤ .

(١٧) الحميدى : جنوة المقتبس ، ص ٢٢٧ .

(١٨) محمود على مكى فى :

Euzayos Sboe las aportacione .s Orientales, en la Espania
musulmana.

(١٩) ابن الفرض : علماء الأندلس، ص ١٨١، والحميدى، ص ٢٠٥، وانظر
أسماء أخرى فى : محمد عبد الحميد عيسى " تاريخ التعليم فى الأندلس "
ص ٧٥ .

(٢٠) ابن فرحون : الديباج المذهب فى تاريخ أعيان المذهب ، ج ٣ ،
ص ٦٥ - ٦٦ .

(٢١) ابن القوطية ، إفتتاح الأندلس ، ص ٤٢ .

(٢٢) أحمد هيكل ، الأدب فى الأندلس ص ٦٢ .

(٢٣) المرجع السابق نفسه ، نفس الصفحة .

(٢٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٣ .

(٢٥) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

- (٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٣ ، وراجع : جودت الركابي : في الأدب الأندلسي . ص ٨٣ .
- (٢٧) ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٦٠
- (٢٨) مؤرخ مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٠٦ ، وراجع : ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، جـ ٢ ، ص ٥٩ .
- (٢٩) على أدهم : صقر قریش ، المقتطف ١٩٣٨ م .
- (٣٠) أخبار مجموعة ، ص ١٠٧ .
- (٣١) أحمد هیکل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ - ١٠٢ .
- (٣٢) محمود مکی ، فی الرسالة المشار إليها ، ص ١٤٠ - ١٤٢ .
- (٣٣) عبد الرحمن علی الحجی ، التاريخ الأندلسی ، ص ٨٠ .
- (٣٤) الخشني ؛ قضاة قرطبة ، ص ٩ : ١١ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ص ٦٤٦ : ٦٤٨ .
- (٣٥) أخبار مجموعة ، ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٣٦) المقرئ : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٧٢ - ٧٣ ، طبعة حسان عباس .
- (٣٧) الحمیدی ، المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .
- (٣٨) الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ٢٧ .
- (٣٩) ابن الفرضی ؛ علماء الأندلس ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (٤٠) لطفی عبدالسمیع ، الإسلام فی أسبانيا ص ٧٣ .
- (٤١) ابن القوطية ، المصدر السابق ، ٦١ .
- (٤٢) محمد عبد الحمید عيسى ، التعليم فی الأندلس ، ص ٢١٩ .

- (٤٣) نفسه ، نفس المرجع ، والصفحة .
- (٤٤) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ١٧٧؛ الحجى : المصدر السابق ، ص ١٤٦ .
- (٤٥) الحميدى، المصدر السابق، ص ١٨٩ - ١٩٠، ابن الفرضى، علماء الأندلس، ج ١، ص ١٢٧ .
- (٤٦) الحجى ، المصدر السابق، ص ١٤٦ .
- (٤٧) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، التعليق رقم (١). ص ٢٣ .
- (٤٨) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .
- (٤٩) عنان : دولة الإسلام فى الأندلس، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .
- (٥٠) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ - ٣١ .
- (٥١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، ص ٣١٠ .

ملحق الكتاب حول مذهب الإمام مالك في الأندلس

فى عصر الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالرضا (١٧٢-١٨٠هـ / ٧٨٩-٧٩٦م) نعمت بلاد الأندلس بقدر من الاستقرار والنضوج، لاسيما بعد أن قضى الأمير هشام الأول هذا، على معارضيه، أهمهم أخوة سليمان الذى ساندته الحزب الشامى الأندلسى، فأسفر ذلك عن التخلص تدريجياً من التأثير الشامى، فضلاً عن أن التراث الشامى لم يعد ملائماً لإمداد الأندلس بمقومات حياته الفكرية وعلى الأخص فى مجال الحياة الدينية، قبدأ الأندلسيون يتطلعون إلى حضارة جديدة، وتراث جديد، فأتجهت أنظارهم إلى الحجاز يستمدون منه قوام حياتهم الروحية. وكانت المدينة المنورة حاضرة دينية ممتازة فى العلوم الدينية آنذاك، يقيم فيها الإمام مالك بن أنس^(١) صاحب المذهب المعروف باسمه، ومقدم مدرسة أهل الحديث فى الفقه، وكان يعاصره فى العراق الإمام أبو حنيفة النعمان المتوفى (١٥٠هـ / ٧٦٩م)، صاحب المذهب المنسوب إليه الذى إنتشر فى العراق لمواظبته البيئة العراقية، وعقلية أهل العراق؛ وهو مقدم مدرسة أهل الرأى والقياس فى الفقه. وكان من الطبيعى أن يتجه أهل الأندلس إلى مذهب إمام دار الهجرة "الإمام مالك" لاسيما فى الفكر الدينى الذى بدت فيه سمات خاصة وبوادر معينة جعلته أقرب إلى تأييد بنى أمية ومعارضة العباسيين فى أى فكر آخر.

ولكن كيف تسنى للمذهب المالكى أن يحتل مكان الصدارة فى الأندلس بمثل هذه السرعة؟ وما أهم العوامل والأسباب التى مكنته من ذلك؟ وللإجابة على تلك الأسئلة، نقول: إن المذهب المالكى إنتشر فى الأندلس وحل محل المذهب الأوزاعى الدمشقى بسرعة كبيرة، ربما لقوة المذهب ذاته، وملائمته لأفكار كثير من الناس من ناحية، ومن ناحية أخرى يرجع إلى أسباب سياسية تتمثل فى إستقلال الدولة الأموية فى الأندلس عن الخلافة العباسية فى بغداد (أصحاب مذهب أبى حنيفة النعمان) الأمر الذى دفع الأمويين فى الأندلس إلى الاتجاه بسرعة نحو مذهب الإمام مال بن أنس فى المدينة المنورة، والذى أبدى

إعجاب الأندلسيين به الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، ومدحه في إحدى مجال العلم الطلاب الأندلسيون بقولهم له: "تسأل الله أن يزيح حرماننا بملككم"^(٢). ولعل ذلك يؤيد ما ذهب إليه عالم محدث من أن مذهب الإمام مالك بن أنس انتشر في الأندلس بسلطان الدولة^(٣).

وهذا، فضلاً عن أن المجتمع الأندلسي كان يضم فيما يضم عناصر عربية من أصول حجازية دون العراقيين الذين لم يشاركوا في جيوش الفتح والطوالع التي وفدت إلى الأندلس مما أدى إلى أن يفكر عدد كبير من الحجازيين في العودة إلى بلادهم لزيارة أهلهم ولتأدية فريضة الحج. فلما عادوا كانوا أكثر تأثراً بمذهب مالك بن أنس ونشروه في الأندلس "ولم يكن للعراقيين نصيب في هذا المذهب داخل الأندلس، وإقتصروا الأندلسيين على الأخذ من علماء المدينة وشيوخهم "مالك" وشيوخه من قبله، وتلميذه من بعده، فرجع أها المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته"^(٤). وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على اتصال الأندلسيين بالإمام مالك والإمام بمذهبه السائد في المدينة المنورة والأراضي الحجازية.

على أن ابن خلدون يضيف عاملاً آخر لانتشار المذهب المالكي في الأندلس فيقول: "البداءة كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعاينون الحضارة التي لأهل العراق؛ فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداءة، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غصاً عندهم، ولم يأخذ بتقحيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب"^(٥)؛ ومع إحترامنا لرأى المؤرخ الكبير "ابن خلدون" ومع ما لرأيه من وجهة، إلا أننا نعتقد أن أهل الحجاز وغيرهم من سكان البداءة قد تغير فكرهم ومفهومهم للحياة بشكل أوسع في ظل العصر الموي الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية مبلغاً كبيراً من الرقي والتقدم بسبب فتوحاتهم الواسعة وإختلاطهم بشعوب وأجناس ذات تباين وتوجهات مختلفة عن حياة البداءة في الحجاز أو المغرب أو حتى في الأندلس.

فخرج العرب من جزيرتهم إلى بلاد الشام وفارس وحتى الهند والصين شرقاً أدى إلى تغيراً واضحاً في حياة المسلمين خاصة في الجانب الإقتصادي والذي أغدق فيه الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون على الحواضر الإسلامية مما تفيض به هذه البلاد أو تلك، وكثر التتعم ونبت الشعراء في مجال الغزل، وكثر الغناء الحضري، بل أمدوا به بغداد حاضرة الخلافة العباسية. وإذا سلمنا بما قدمه ابن خلدون من أن حواضر الحجاز يسكنها البدو، فلا يجوز أن نعلم بذلك في الأندلس فأهل الأندلس كانوا أصحاب حضارة بون شك لموقعها في قلب البحار والمحيطات؛ وقد سبقت الحضارة الإسلامية إليها الحضارة الفينيقية القديمة بخاصة، ثم الحضارة الرومانية ثم القوطية، التي لا زالت آثارها باقية حتى اليوم إلى جانب ما خلفته الحضارة الإسلامية هناك^(٦).

وهكذا، إنتشر المذهب المالكي في الأندلس، وحل محل المذهب الأوزاعي الدمشقي، غير أن الأندلسيين إحتفظوا بمسألة غرس الشجر في صحون المساجد^(٧)؛ متبعين فيه مذهب الإمام الأوزاعي، ومذهب مالك يكره ذلك^(٨). وهذه المسألة ميزت المالكية الأندلسية عن غيرها حتى إنتهاء دولة الإسلام في الأندلس.

ولا خلاف بين المصادر الأندلسية في أن دخول المذهب المالكي في الأندلس، وإنتشاره هناك كان على أيدي الأندلسيين أنفسهم الذين درسوا على الإمام مالك بن أنس في المدينة المنورة ثم عادوا إلى بلادهم ونقلوا فقهه إليها.

وأول من نقل هذا المذهب من تلاميذه هو زياد بن عبد الرحمن اللخمي، المعروف بشبظون (ت ٢٠٤هـ / ٨١٩م)^(٩). ويذكر المقرئ أنه كان فقيبه الأندلس على مذهب الإمام مالك، وهو أول من أدخل مذهب الأندلس^(١٠)، ويضيف قائلاً "هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس مكملاً متقناً، فأخذه عنه يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤هـ / ٨٤٨م)^(١١)".

ثم إنتشر المذهب المالكي في الأندلس على يد الفقيه المحدث الواسع الشهرة "يحيى الليثي" الذي سماه مالك بـ "عقل الأندلسي" "الرشيد"^(١٢). وكان "يحيى الليثي" هذا عميد فقهاء الأندلس^(١٣). قد بلغ مكانة سامية لدى الأمير هشام الملقب بالرضا، وجعل للفقهاء والقضاة منزلة كبيرة في عصره، فارتقوا أهم المناصب، وإعتمد عليهم الأمير هشام وقربهم إليه، وهو بطبيعته كان تقياً^(١٤) فكان يستمع إليهم، وينفذ مشورتهم، فكثرت تدخلهم في شئون الدولة.

وهكذا، إنتقلت الفتوى في الأندلس إلى رأي مالك بن أنس، وأهل المدينة، فإنتشر علم مالك ورأيه في حواضر بلاد الأندلس^(١٥) فيما عدا أربع مسائل خالف فيها مالكية الأندلس مالكية المشرق، فأخذوا ثلاثاً منها من مذهب الإمام الليث بن سعد، وأخذوا الرابعة من مذهب الإمام الأوزاعي^(١٦). والمسائل الأربعة هي: ان لا يحكموا بالخلطة، ولا بالشاهد اليمين وأجازوا كراء الأرض بالجزء مما يخرج منها، وهو مذهب الليث ابن سعد، وأجازوا غرس الشجر في المسجد، وهو مذهب الأوزاعي^(١٧).

وهكذا إنتشر مذهب الإمام مالك بن أنس (فقيه المدينة المنورة) في الأندلس من حيث الأسباب التي عرضنا لها، وكذلك إعتلائه مكان الصدارة بين المذاهب الأخرى هناك.

هوامش الملحق :

(١) هو عبدالله مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، ولد بالمدينة المنورة في سنة ٩٧هـ / ٧١٥م، وقيل في سنة ٩٣هـ / ٧١١م، وينسب إلى أهل ذي أصبح الحميري، الذي كان ملكاً ممن ملوك حمير. أخذ مالك عن الزهري المحدث، ونافع القارئ وغيرهما؛ ومن مصنفاته كتاب "الموطأ" أي السهل الواضح، رتب فيه أبواب الفقه على الحديث معاً، تذكر فيه الأحاديث في الموضوع الفقهي الذي يجتهد فيه ثم عمل أهل المجمع عليه، ثم رأى من إلتقى بهم من التابعين، وآراء الصحابة والتابعين الذين يلتقى بهم، كسعيد بن المسيب، وفيه الآراء المشهورة بالمدينة، وقد روى بعده روايات، وأشهر الروايات له روايتان: أحدهما، رواية يحيى بن يحيى الليثي الأندلسي المتوفى عام ٢٣٤هـ. والآخرى، رواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة؛ وتوفي الإمام مالك بالمدينة المنورة سنة ١٧٩هـ / ٧٩٦م، أي عن عمر يناهز ٨٢ عاماً.

أنظر: ابن فرحون (ابراهيم بن علي): الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، تحقيق نكتور. محمد الأحمدى أبو للنور، ج١، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٧٢، ص ٨١ وما بعدها.

(٢) ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد): تاريخ إفتتاح الأندلس، نشر دون جوليان ريبيرا، مدريد، ١٩٢٦م، ص ٤٣.

(٣) الإمام محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد والمذاهب الفقهية، دار الفكر العربي، (ب. ت) ص ١٣٠.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٨٠٥.

(٥) نفسه، نفس المصدر، ص ٨٠٥ - ٨٠٦.

(6) Agude Bleye; Manuel de la histoire de Espana; tomo, I, Madrid; 1947, pp. 15 – 16.

(٧) النباهي، المرقبة العليا، ص ٥١ – ٥٢.

(٨) عندما كانت دمشق حاضرة الخلافة الأموية قبل قيام الخلافة العباسية في بغداد، فلا غرابة في أن يظل مذهب الإمام الأوزاعي في الأندلس إلى جانب المذهب المالكي، وإن كان لا يضاهيه من حيث القوة والمنعة هناك. فهو ولا غرابة كان مذهب الأمويين في المشرق. "المؤلف".

(٩) الخشي، قضاة الأندلس، ص ٣-٤، وأنظر أيضاً :

ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ص ١٥٤، (ترجمة ٤٥٨) والحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦، ص ٢١٨. وإين فرحون، الديباج، الجزء الأول، ص ٢٧٠.

(١٠) المقرئ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، المجلد الثاني، بيروت، ص ٤٥.

(١١) المقرئ، نفس المصدر والجزء، ص ٤٦.

(١٢) ابن القوطية، المصدر السابق، ص ٣٥، وأيضاً الخشني، المصدر السابق، ص ٣٥-٣٦، ابن الفرضي، المصدر السابق، قسم ٢، ص ١٧٩-١٨١، وراجع: ابن الخطيب: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام. نشره ليفي بروفنسال، بيروت، ١٩٥٦م، ص ١٥.

(١٣) ابن حيان، المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣م، ص ٨٣. وراجع: ابن عذاري المراكشي؛ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٢، تحقيق كولان وليفي دار الثقافة، بيروت، (ب - ت)، ص ٦٥ - ٦٦.

(١٤) ابن عذاري، المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١٥) ابن الخطيب؛ الإحاطة في أخبار غرناطة، م/١، تحقيق محمد عبدالله عنان؛ القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٣٤.

(١٦) النباهي، المرقبة العليا، ص ٥١، وأنظر أيضاً:

Mahmud Makki, op. cit; pp. 227 – 231.

(١٧) النباهي، المصدر السابق، نفس الصفحة.

الخاتمة

الخاتمة :

من الملاحظ بعد ما قدمنا في فصول الكتاب الخمسة السابقة وما سبقها من تمهيد، أن المسلمين في الأندلس لم يستطيعوا مطلقاً في وقت من الأوقات ان يسيطروا سيطرة تامة على جميع أنحاء شبه جزيرة أيبيريا، وإنما ظلت بعض الجهات - وبخاصة في الشمال الغربي - خارجة عن نفوذ المسلمين فقامت بها أربع دويلات نصرانية (أو أربع ممالك) هي: مملكة ليون، ومملكة نافاري، وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة النصرانية^(١). ومن هذه الوحدات السياسية إنبعث الخطر الذي هدد المسلمين في الأندلس على الدوام. وفي الوقت الذي تدهورت فيه الخلافة الأموية في قرطبة حتى سقطت فعلاً سنة ١٠٣٢م^(٢). ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحي على حساب المسلمين بالأندلس درجة خطيرة في عهد الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة (١٠٩٥ - ١١٩٠م). وهو الذي أوغل في وادي نهر تاجه - كما مر بنا - حتى استولى على مدريد ثم على طليطلة نفسها سنة ١٠٨٥م. وبذلك خسر المسلمون معقلاً من أهم معقلهم بالأندلس^(٣).

وكان لسقوط طليطلة سنة ١٠٨٥م نوى هائل في جميع أنحاء أوروبا الغربية، إذ استثار الشعور والحماسة لطرد المسلمين كلية من أسبانيا.

لما في الجانب الإسلامي فإن ضياع تلك المدينة، التي هي "من أكبر البلاد وأحصنها"^(٤). هذا المسلمين جميعاً في المشرق والمغرب، وجعل مسلمي الأندلس يفكرون في طريقة فعالة لوقت الخطر المسيحي من ناحية، وإسترداد ما فقدوه من أراض وبلاد من ناحية. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف في الإستعانة بالمرابطين في شمال أفريقية - بعد تردد بين ملوك الطوائف - وهم أقرب قوة إسلامية يمكنها أن تدرك خطر المسيحيين عن مسلمي الأندلس^(٥). ولم يلبث أن عبر يوسف بن تاشفين - ملك المرابطين - مضيق جبل طارق سنة ١٠٨٦م على رأس جيش كبير من البربر الأشداء، حيث التقى مع إلفونسو السادس في

الأندلس الإسلامية سياسياً وحضارياً

موقعة الزلاقة في أكتوبر سنة ١٠٨٦م. وحلت الهزيمة بالقشتاليين، وفرّ الفونسو السادس مع فلور جيشه مخلفاً وراءه عدة آلاف من لبقثلى والأسرى في حين قفل يوسف بن تاشفين راجعاً إلى شمال أفريقيا^(٦).

وقد أدى تجدد الخطر المسيحي على المسلمين بالأندلس من ناحية، وإتساع الخلاف بين ملوك الطوائف المسلمين من ناحية ثانية إلى عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ١٠٩٠م، ليشن حرباً على ملوك الطوائف المسلمين، فضلاً عن المسيحيين، ولم يلبث المرابطون أن إستولوا على بلاد الأندلس الإسلامية بأكملها، عدا مدينة طليطلة. وعندما ذلت دولة المرابطين وحل محلها دولة الموحيدين في شمال أفريقيا، فكر الموحيدون - بوصفهم ورثة المرابطين - في ضم الأندلس إلى ملوكهم، وإستطاع قائدهم عبد المؤمن أن ينجح في ذلك سنة ١١٤٦م^(٧).

وفي ذلك الوقت كان المسيحيون في أسبانيا قد وجدوا بطلاً جديداً في شخص ألفونسو الأول ملك أرغونة (١١٠٤ - ١١٣٤م) وقد إستطاع هذا الملك أن يواصل إغاراته العنيفة على المسلمين في الأندلس، حتى وفاته أمام أسوار بلنسية سنة (١١٣٤م)^(٨). كذلك إستطاع ريمور برنجار الرابع كونت قشتالة، أن يغزو طرطوشة سنة ١١٤٨م، وفي الجبهة الغربية تمكن ملك البرتغال ألفونسو الأول من التوغل داخل الأراضي الإسلامية وراء نهر تاجة^(٩).

وقد أوضحت الدراسة أيضاً أن ألفونسو الأول قام بجهود صليبية ضد المسلمين في الأندلس، حيث انه إستعان بأسطول صليبي سنة ١١٤٧م يجمع جماعة من الإنجليز والفلمنكيين والألمان - كان في طريقهم إلى الشام للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية - فإستوقفهم ألفونسو الأول لمساعدته. وتمكن بمساعدتهم من طرد المسلمين من لشبونة التي غدت عاصمة البرتغال، المملكة الناشئة^(١٠). وهكذا لم يقتصر ميدان الحروب الصليبية في ذلك العصر على

المشرق والأراضي الفلسطينية فقط، بل شمل أيضاً المغرب وأسبانيا فأسهم الصليبيون الوافدون من إنجلترا وألمانيا في فتح لشبونة. كما إشتراك الصليبيون الفرنسيون في مساعدة برنجار كونت برشلونة وبروفانس؛ هذا في الوقت الذي مد فرسان الدولة والإسبتارية نشاطهم إلى وادي نهر إيرو بأسبانيا فضلاً عن بلاد الشام^(١١). ولم تلبث فرسان السسترثيان أن أقامت لنفسها مركزاً في أسبانيا سنة ١١٤٩م للدفاع عن مصالحهم من جهة ومحاربة المسلمين من جهة ثانية. ثم تكاثرت بعد ذلك المنظمات الدينية العسكرية مثل هيئة (ست - جوليان) التي أسسها ملك ليون سنة ١١٥٢م والتي إتخذت فيما بعد اسم منظمة القنطرة سنة ١٢١٨م^(١٢).

ولم تتردد البابوية في تشجيع تلك المنظمات في أسبانيا بالدور نفسه الذي قامت به الأسبتارية والداوية والتيتون في بلاد الشام - والفضل هنا يرجع إلى البابا إسكندر الثالث والبابا إنوسنت الثالث، في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفت أسبانيا وهي منظمة "سنتياجو"^(١٣). وبفضل نشاط هذه الهيئات إشتدت حماسة المسيحيين في حرب المسلمين في الأندلس. كما أخذ الطابع الديني يغلب على هذه الحرب ليجعل منها حرباً صليبية مقدسة لا تقل أهمية في نظر الأوروبيين المعاصرين عن الحرب الصليبية الدائرة في المشرق^(١٤). وهكذا دخل الصراع بين المسيحيين في أسبانيا دوراً جديداً لم يعد فيه مجرد حروب محلية متفرقة بين حكام الفريقين. وإنما أصبح صراعاً شاملاً بين حضارتين مختلفتين وديانتين سماويتين متباينتين، ظلاً يتقسمان النفوذ، ويتنازعان السيادة على ذلك الركن الجنوبي الغربي من أوربا طوال عدة قرون^(١٥).

وفي هذه الحروب أظهر الموحدون مقاومة عنيفة، حتى أزلوا هزيمة ساحقة بألفونسو الرابع ملك قشتالة في موقعة الأرك سنة ١١٩٥م^(١٦).

على أن البابا إيتوسنت الثالث لم يسكت على هزيمة الأرك، إذ لم يلبث أن أعلن الحرب الصليبية ضد مسلمي الأندلس، وتضافرت في تلك الحملة على

الأندلس جهود ملك أرغونة وملك نافارى وملك قشتالة، وجعل الحملة تحت رئاسة أساقفة ناربون^(١٧) مما أنزل هزيمة كبرى بالموحدين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢م^(١٨).

ولم تقم قائمة للموحدين بعد ذلك بالأندلس، فأخذت المدن والمعازل الإسلامية تتساقط الواحدة بعد الأخرى فى قبضة المسيحيين، بحيث لم يتبق للمسلمين فى أسبانيا عند منتصف القرن الـ ١٣ م. سوى مملكة غرناطة الصغيرة فى الطرف الجنوبى لشبه جزيرة إيبيريا. وفى تلك البقعة الضيقة بين جبال نيفادا والبحر، قدر لبقايا دولة المسلمين أن تعيش فترة أخرى من الزمان، بلغت بعد ذلك نحواً من قرنين ونصف^(١٩) حتى كان طرد المسلمين العرب من أسبانيا نهائياً أواخر عام ١٤٩١م^(٢٠).

وهكذا، بدأ الفتح الإسلامى للأندلس فى عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥م) بعد نجاحهم فى القضاء على دولة القوط الغربيين (الوندال)، وإنتهى أجل المسلمين هناك أواخر عام ١٤٩١م، عندما تأخرت النجدات الإسلامية من قبل المماليك فى مصر والشام، وكذلك الدولة العثمانية^(٢١).

وكان ما أهم ما توصل إليه البحث هنا، هى تلك الحضارة الإسلامية التى لم تزول وتدهور بنفس السرعة التى إنتهت عندها النفوذ السياسى للمسلمين فى الأندلس: ذلك أن حضارة العرب الفكرية لم تبلغ ذروتها فى الأندلس إلا فى النصف الأخير من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى، على عصر الفيلسوف الأندلسى الذائع الصيت ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨م) وهو العصر الذى إشتد فيه أيضاً إقبال الأوربيين على ترجمة علوم المسلمين ونقلها من أسبانيا إلى مختلف أنحاء أوربا^(٢٢). وعلىنا أن نلفت الإنتباه هنا، إلى أنه فى الوقت الذى أخذ فيه نجم المسلمين فى أسبانيا فى الأفول، كانت أوربا آخذة نحو النهضة، حيث بدأت تتفتح أعم الغرب آفاق جديدة بدت واضحة فى النشاط الإقتصادى والإستقرار الإجتماعى والتنظيم السياسى^(٢٣).

الواقع أن الرقى الحضارى الذى بلغته أسبانيا فى ظل الحكم الإسلامى، يعتبر أبرز ناحية فى تاريخها طوال العصور الوسطى. فبالفتح الإسلامى إنتهى عصر الفوضى والإضطراب والتدهور الذى أصاب شبه جزيرة أيبيريا فى عهد القوط الغربيين، وأخذ المسلمون ينشرون فى البلاد جواً من الاستقرار والتسامح، وينصرفون إلى الإنتاج وإستثمار موارد البلاد فى صورة لم تعرفها البلاد من قبل. ولم تلبث أن تحولت مروج أسبانيا فى ظل الحكم العربى إلى حقول زراعية مثمرة إنتشرت فيها أشجار التين والزيتون والنخيل، فى حين أدخلت زراعة القصب (قصب السكر) والأرز فى الأجزاء الشرقية، والقطن والكتان فى الإقليم المحيط بأشبيلية، والتوت وصناعة الحرير فى الجنوب حول غرناطة^(٢٤). هذا فضلاً عن تربية الماشية فى المراعى الواسعة للإستفادة من أصوافها وألبانها ولحومها. وقد صاحب هذا النشاط الزراعى فى الأندلس إهتماماً كبيراً بالرى ووسائله، إذ أدخا العرب فى أسبانيا نظامهم فى الرى الذى لم يصل إلى الأسبان من قبل ولا من بعد^(٢٥)، حتى أن المصطلحات المستخدمة فى الزراعة والرى فى أسبانيا الحديثة ما زالت حتى اليوم تحمل أسماء عربية أو ذات أصل عربى^(٢٦). أما المدن فقد أصبحت مركزاً لنشاط تجارى وصناعى واسع؛ إذ كان يتم فيها تصنيع وبيع وشراء الجزء الأكبر من المحاصيل الزراعية. وكانت أهم الصناعات، صناعة المعادن والخزف والزجاج والمنسوجات القطنية والكتانية والحديدية، فضلاً عن التطريز. وقد إشتهرت قرطبة مركز الخلافة الأموية بالأندلس، بصناعة الخزف والفخار، كما إشتهرت بالجلود التى نسبت إليها؛ فى حين عرفت طليطلة بالسيوف والأسلحة الحربية^(٢٧).

لقد أبرزت الدراسة أهمية قرطبة الحضارى ووجهها المشرق فى ظل الحكم الإسلامى. فقد بلغت درجة كبيرة من الازدهار فى ذلك العصر، بعد أن أصبحت مركزاً تجارياً وصناعياً وعلمياً عظيماً، هذا بالإضافة إلى أن المسلمين قد أدركوا أهمية موقعها ومميزاتها التى تفوق تلك التى تمتعت بها طليطلة -

عاصمة القوط الغربيين - فإتخذوها حاضرة لهم، وأقاموا فيها الجسور والمساجد والأسواق ذات الفن العربى الرفيع، والتي ما زال بعضها، باقياً حتى اليوم يشهد على عظمة حضارة الأندلس الإسلامية. وقد أجمع المؤرخون على أنه لم توجد مدينة أخرى معاصرة فى أوربا - خلاف القسطنطينية - بلغت ما بلغته قرطبة فى العصر الإسلامى، من تقدم الحضارة ورخاء الحياة^(٢٨). ذلك ان عدد سكانها بلغ يتراوح - آنذاك - بين المليون ونصف المليون نسمة، وبلغ عدد منازلها مائتى ألف، ومساجدها - حينئذ - ثلاثة آلاف مسجداً، وحماماتها العامة ثلاثمائة، حتى صارت شهرتها بعيداً إلى قلب ألمانيا، فذكرتها الراهبة الألمانية "هوسويثا - Horswitha" فى شعرها، وأطلقت عليها اسم "جوهرة الدنيا"^(٢٩).

ويكفى قرطبة فخراً أن أهلها كانوا يستطيعون السير فى طرقاتها بعد غروب الشمس فى ضوء المصابيح العامة. فى حين ظلت لندن سبعة قرون بعد ذلك لا يوجد بها مصباح عامى واحد يضئ ظلمة شوارعها^(٣٠).

كذلك أوضحت الدراسة أن قرطبة فى العصر الإسلامى سرعان ما غدت مركزاً للشعراء والأدباء والعلماء، وبخاصة منذ عهد الحكم المستنصر، الذى أرسل فى شراء أمهات الكتب من القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية. فإذا تعذر شراؤها أرسل من يقوم بنسخها وإحضارها إلى قرطبة، حتى أصبحت مكتبة قصر الخليفة تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد. وقد صلب هذا النشاط العلمى إزدياد عدد المدارس - كما أوضحنا فى الكتاب - وعلى رأسها يأتى مسجد قرطبة الجامع الذى أنشأه عبد الرحمن الداخل سنة ٧٧٤م وأتمه إبنه هشام سنة ٧٩٣م؛ ثم أصبح بمثابة جامعة علمية ضخمة من الطراز الأول تدرس فيه جميع ألوان المعرفة من علوم دينية كالفقهاء والحديث والشريعة إلى الأدب شعراً ونثراً، إلى علوم بحثه كالطب والفلك والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة. وهكذا قصد قرطبة طلاب العلم من مختلف الجهات حتى أخذت تتازع بغداد مكانتها كأعظم مركز للنشاط الفكرى فى العالم الإسلامى^(٣١). وقد إشتهر من

علماء الفقه واللغة في جامعة قرطبة، أبو علي القالي، وأبو بكر بن معاوية القرشي، وابن القوطية^(٣٢)، ومن علماء الطب والجراحة، أبو الطيب خلف وابن زهر؛ ومن علماء النبات ابن البيطار، ومن الفلاسفة بن رشد .. وغير هؤلاء كثيرون^(٣٣).

على أنه ينبغي أن ندرك أن التعليم في الأندلس لم يقتصر على قرطبة وجامعتها، بل إنتشر التعليم الأول في جميع أنحاء الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، حتى كاد ينمحي الجهل بين الناس، وأصبح كل فرد يعرف القراءة والكتابة، في الوقت الذي ظل الجهل فاشياً في أنحاء أوروبا الغربية، حتى بين أرقى الطبقات وذوى المناصب السامية، بحيث لم يعرف القراءة والكتابة سوى قلة معظمها من رجال الدين^(٣٤). ومع ذلك، فقد ظن الخليفة الحكم المستنصر أن التعليم في بلاده أقل مما يجب أن يكون عليه، فأنشأ في قرطبة سبعاً وعشرين كُتَاباً لتعليم أبناء الفقراء بالمجان على حسابه الخاص^(٣٥).

وهكذا، كانت الأندلس الإسلامية صفحة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية بخاصة والعالم أجمع بعامة.

هامش الخاتمة :

- (1) Tout ; The Empire and the papacy; pp. 365 – 366.
- (2) Dozy, Spanish Islam, pp. 589 – 592.
- (3) Chapman , A Hist. of Spain, p. 72.
- (٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، حوادث ٤٧٨هـ .
- (5) Dozy , Op. cit,pp. 694 – 695.
- (6) Cam . Med. Hist. Vol, 6, pp. 398 – 399.
- (٧) حسنى أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين، ص ٢٧٦ .
- (8) Cam. Modern Hist. Vol, 6. p. 07, and See also, tout. Op. cit. p.470.
- (9) Stephenson, Portugal, pp. 18 – 19, and See Chapman, Op. cit, p. 76.
- (10) Panter, A Hist. of Middle Ages, p. 194 .
- (11) King , the knights Hospitallers in the Holy land. P. 133.
- (12) Tout , op. cit , p. 471 .
- وراجع سعيد عاشور ، الحركة الصليبية، ج ١ ، ص ٧٢-٧٣ .
- (١٣) عبد اللطيف عبد الهادى السيد ، السياسة الصليبية للبابا أنوسنت الثالث فى ق/١٣م.
- (14) Chapman , op. cit,pp. 94 – 96.
- (15) Tout . op. cit, pp. 470 – 471.
- (16) Cam. Med.Hist. Vol. 6, p. 409 .
- (17) Panter , op. cit, p. 195.

(18) Cam. Med. Hist. Vol. 6, p. 410.

وراجع عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، المرجع السابق .

(١٩) لين بول : العرب في أسبانيا ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

وراجع: سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٧٤ .

(٢٠) سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج ١ ، ص ٥٥٧.

(21) Chapman , op. cit, pp. 204 – 205.

(٢٢) ما يتعلق بابن رشد ، انظر :

Eyre; European civilization, Vol, 3, the Middle Ages, London, 1935.

وراجع أيضا : Barjer, the European Inheritance, Vol. I, pp. 376 – 377.

(23) Eyre, op. cit – pp. 128 – 129.

(24) Diehl , Marcais , op.cit,p. 407.

(٢٥) لين بول : العرب في أسبانيا ، ص ١٢٢ .

(26) Cam. Med. Hist . Vol. 3 ,pp. 431 – 432.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٩ .

(27) Draper; A Hist. of the Intellectual Development, Vol. 2, pp. 28 – 29.

(٢٨) لين بول : العرب في أسبانيا ، ص ١٢٠ .

(29) Dozy, Op.Cit, pp. 446 – 447.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٧.

(30) Draper , Op. Cit. Vol, 2, pp. 29 – 30.

وراجع عاشور ، المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٢٧.

(31) Cam. Med. Hist. Vol, Vol. 3 , pp. 434 – 435.

(32) Dozy, Op. Cit. p. 455.

(٣٣) لين بول : العرب في أسبانيا ، ص ١٣٢ – ١٣٣.

(34) Dozy, Op.Cit, pp. 455 – 456.

(35) Ibid . p. 455 .

فهرس الكتاب

الفهرس

من : إلى

الموضوع

١٠ : ٣

- المقدمة

٣٠ : ١١

المدخل

تعريف ببلاد الأندلس - طبوغرافية بلاد الأندلس - ديمغرافية
الأندلس - العرب قبل الإسلام في شبه جزيرة أيبيريا - الأوضاع
السياسية في أسبانيا قبل الفتح الأسباني - فتح العرب والمسلمين
لأسبانيا - مراحل لافتح العربي للأندلس - فتوحات طارق بن
زياد للأندلس - العرب وأهل البلاد الأصليين.

الفصل الأول

٧٤ : ٣١

الأندلس في عصر الولاة

- عبد العزيز بن موسى بن نصير - ولاية السمع بن مالك
الخولاني - عنيسة بن سحيم الكلبي - عبد الرحمن بن عبدالله
الغافقي - معركة بلاط الشهداء ١١٤هـ / ٧٣٢م - عبد الملك بن
قطن الفهري - عقبة بن الحجاج السلولي - عبد الملك بن قطن
للمرة الثانية - بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة - ولاية أبة
الخطار الحسام بن ضرار الكلبي - يوسف بن عبد الرحمن
الفهري آخر ولاة الأندلس - احوال الأندلس قبل قيام الدولة
الأموية فيها

١٥١ : ٧٥

الفصل الثاني

قيام الدولة الطوبى بالأندلس (عصر الإمارة)

- سقوط الدولة الأموية في دمشق - هروب عبد الرحمن بن
معاوية إلى أفريقية - عبد الرحمن يتطلع إلى الأندلس -

من : إلى

الموضوع

عبدالرحمن الداخل وإحياء الدولة الأموية في الأندلس -
للمصعوبات التي واجهت عبدالرحمن وكيف تغلب عليها - موقعة
المصارة والإستيلاء على قرطبة - قضاء عبدالرحمن الداخل
على كل من يوسف الفهري والسموئل - موقف عبدالرحمن
الداخل من ثوار العرب والبربر والأقارب - موقف عبدالرحمن
الداخل من المؤامرات التي تحاك ضده في الداخل والخارج -
عبدالرحمن الداخل وإصلاحاته الداخلية

١٥٣ : ٢٢٦

الفصل الثالث

عصر الخلافة الأموية

- عبدالرحمن الناصر وتأسيس الخلافة الأموية - عبدالرحمن
الثالث (الناصر) ومواجهة المتمردين - علاقات عبدالرحمن
الناصر بملوك قشتالة وبنبولة - علاقة عبدالرحمن الناصر
بالدولة الفاطمية بالمغرب - موقف عبدالرحمن الناصر من
الأقارب في قرطبة - إنشاء مدينة الزهراء بالأندلس وتوسيع
المسجد بها - خلافة الحكم المستنصر سنة ٣٥٠-٣٦٦هـ/
٩٦١-٩٧٦م - سياسة الحكم المستنصر في الأندلس - موقف
الأندلس من خلافت المغرب - هشام المؤيد سنة ٣٦٦-
٣٩٩هـ/ ٩٧٦-١٠٠٩م - مصير الأندلس تحت رحمته
الأوصياء بعد هشام - محمد بن أبي عامر والسلطان - محمد
بن أبي عامر وإنشاء جيش من المرتزقة - غزوات محمد بن
أبي عامر - محمد بن أبي عامر يتخذ لقب الحاجب المنصور -
ابن عامر ونقل الخلافة إلى البيت العامري.

من : إلى

الموضوع

٢٢٧ : ٢٧٠

الفصل الرابع

عصر الملوك الطوائف

- تمهيد - المرابطون وإنقاذ الأندلس - معركة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م - الأندلس بين يوسف بن تاشفين والسيد القمبيطور - الأندلس الإسلامية والحروب الصليبية - بابوات روما وتجييش الجيوش لطرد المسلمين من الأندلس - زوال دولة المسلمين في أسبانيا بعد ثمانية قرون.

٢٧١ : ٣٠٦

الفصل الخامس

حضارة الأندلس الإسلامية

- تمهيد - اختلاف آراء المؤرخين حول أصول الحضارة الإسلامية - تصدى العرب للدفاع عن عروبة الأندلس - تقسيم المؤرخين للحضارة الإسلامية في الأندلس إلى ثلاث مراحل تاريخية - اللغة العربية والقرآن الكريم كأساس في بناء الحضارة الإسلامية في الأندلس - مظاهر الحضارة الإسلامية في الأندلس - مجال التشريع والقضاء في الأندلس - المجال الأدبي (الشعر، النثر، الموشحات) - الحياة التربوية والتعليمية في الأندلس - في مجال العمران

٣٠٧ : ٣١٥

ملحق الكتاب

حول مذهب الإمام مالك بن أنس في الأندلس وكيف إنتشر فيها بسرعة

٣١٧ : ٣٢٩

الخاتمة

وتتضمن أهم الاستنتاجات في المجال السياسي والحضاري للإسلام في الأندلس خلال ثمانية قرون

من : إلى
٣٣٦ : ٣٣١

الموضوع
فهرس الكتاب

وتتضمن فصول الكتاب والمقدمة والخاتمة.

الأندلس الإسلامية سياسيا وحضاريا



الدكتور
عبد القويث عبد الجباري
أستاذ التاريخ الإسلامي والوسيلة
كلية الآداب - جامعة خريسان



Bibliotheca Alexandrina



1129.07



المكتب الجامعي الحديث

مساكن سوتير - أمام سيراتميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل (2) - الأزاريطة - الإسكندرية
تليفون : 4818707 / 03 - تليفاكس : 4865277 / 03 / 002
E-mail: modernoffice25@yahoo.com